
سُورَةُ المؤمنون



سورة المؤمنون[1]

بسم الله الرحمن الرحيم



لما قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التى تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ (١)﴾ [المؤمنون] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هى أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّى الزرع حَرْثاً فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) سورة المؤمنون ، هى السورة رقم (٢٣) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٣٥) . وهى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى « الإتقان » (١/٢٧) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتى لا بُدَّ منها كى تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتى البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة فى أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة فى اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء فى الآخرة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التى تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب فى العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه فى الآخرة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾[1]

كأن أول ظاهرية الفلاح فى الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا فى الآيات السابقة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ۝٧٧ ﴾ [الحج] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. ۝٧٨ ﴾ [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة فى حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون] فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٨٣] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره فى الصف تبطل صلاته[1] .

ولما دخل سيدنا عمر - رضى الله عنه - على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[2] . ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها فى صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو فى الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو فى الصلاة نقتله . يعنى مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شىء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

---

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلى فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٣) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى - طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاه للحسن البصرى ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العين ، فقال له : بئس الخاطب أنت ، تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصباء .

لصاحبه الذى يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنتَ تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخْرج من الخلاف بين الشافعى الذى قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبى حنيفة الذى قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾

اللغو : الكلام الذى لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿ **لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ** .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

لذلك جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ من نعيم الجنة : ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا** ﴿٢٥﴾ **إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا** ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة] كأن من المعايب فى الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفى آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التى لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿ **يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور] .

و ﴿ **مُعْرِضُونَ** ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون] الإعراض فى الأصل تجنّب الشىء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشىء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذى دخل عليه رجل وقصده فى قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى فى حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه فى قصدى تصويباً لقصدك . يعنى : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أننى أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١٠٣)﴾ [التوبة] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمِّيه وتزيده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩)﴾ [الشمس] يعنى : نمَّى ملَكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منك فى الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكَات الخير فى نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات فى آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابى المائة مائة وعشراً ، فى حين تنقص الزكاة من المال فى الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتى الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (٢٧٦)﴾ [البقرة] ، فالربا الذى تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذى تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم] أى : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالخشوع فى الصلاة أمرنا كذلك فى الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن ﴿ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة فى الإنسان ، فأنت حين تصلى ينبغى أن تخشع وتخضع فى صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّى تُرقِّى ملَكَة الخير فى نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفى نيتك أن تُخرج من الباقى زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة - إذن - فى بالك وفى نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) ﴾

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التى خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلّه الله له فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) ﴾

أى : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ؛ لأن الله أحلها ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٦) ﴾ [المؤمنون] وملْك اليمين حلال لم يَعُد له موضع ،

ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولى ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فمِلْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك فى مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهى كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سهام المؤلفة قلوبهم[1] ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن فى بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم فى ذلك . إذن : فسَهْم المؤلّفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر - رضى الله عنه - عطَّل حَدَّ السرقة فى عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ؛ لأنه ما عطّل

---

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عيينة بن حصْن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطينَاها ! فاقطعها إياهما وكتب لهما عليها كتاباً وأشهد ، وليس فى القوم عمر ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ثم تَفَل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما إن رعيتما » . [أورده أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن ٣/ ١٦٠] .

هذا الحد إنما عطَّل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول : ادرأوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسُدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفى الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملْك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد ملْك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولَية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تقول بمنع الرقِّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجد الرقُّ فملْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخذونها سُبَّة فى الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من ملْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشىء عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخذتَ فى حرب أو خلافه ، وكان فى إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، ونمَّى فى النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأَمَة أو الأسيرة فى بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهى تشاهد هذه العلاقات الزوجية فى المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكأن الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العتْق والحرية . ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفَّارة لبعض التجاوزات التى يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون] يعنى : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه فى أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾

﴿ ابْتَغَىٰ ﴾ : طلب ، ﴿ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج ومِلْك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿ وَرَاءَ ﴾ استُعْملت في القرآن لمعَان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج ومِلْك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ .. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ۝٢٤ ﴾ [النساء] يعني : حرَّمْت عليكم كذا وكذا ، وأحللْتُ لكم غير ما ذُكر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد ؛ لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أمّا البعدية فزمنها مختلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ ﴾ [هود] يعني : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝١٨٧ ﴾ [آل عمران] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ ﴾ [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْباً .

---

(١) روى الأزهري عن الفراء في تفسير هذه الآية : « إنما ضحكت سروراً بالأمن لأنها خافت كما خاف إبراهيم » وقال الفراء : وهو ما يحتمله الكلام والله أعلم ، وأما قولهم فضحكت : حاضت . فلم أسمعه من ثقة » أورده ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : ضحك .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ .. (١٦) ﴾ [إبراهيم] وجهنم أمامه ، وستأتى فيما بعد ، ولم تَمْض فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون] أى : المعتدون المتجاوزون لما شُرع لهم ، وربنا - تبارك وتعالى - حينما يُحذِّرنا من التعدى يُفرِّق بين التعدى فى الأوامر ، والتعدى فى النواهى ، فإنْ كان فى الأوامر يقول : ﴿ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وإن كان فى النواهى يقول : ﴿ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) ﴾

﴿ رَاعُونَ ﴾ : يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمنْت عليه ، وأول شىء استُؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه اللهُ عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التى قال الله تعالى عنها :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ؛ لأنك حين تعاهد إنساناً على شىء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك غداً فى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأُرتِّب حركة حياتى بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفتَ وعدك فقد أطلقتَ نفسك فى زمنك وتصرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتى أنا فى زمنى وضيَّعت مصالحى ، وأربكت حركة يومى ؛ لذلك شدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾

فى الآيات السابقة تحدَّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعنى أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْتدٌّ ، فالظهر مثلاً مُمْتد من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا فى باقى الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلى العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنتَ من الصلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذى يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخَّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شىء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ[1] ۝١٠ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٤١) : « أى : يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار » خرجه ابن ماجه بمعناه » .

﴿أُولَـٰئِكَ ⑩﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحـاب الصفات المتـقدمة ، وهم سـتة أصنـاف : الذين هم فى صـلاتهم خاشـعـون ، والذين هم عن اللغـو معـرضون ، والذين هم للزكـاة فاعلون ، والذيـن هم لفروجهم حـافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أَخْـذ حق من غيـر عقـد أو هبة ؛ لأن أَخْـذ مال الغـير لا بُدَّ أن يكون إمـا ببـيع وعقـد ، وإما هبـة من صاحب المال . لذلك سألوا الـوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فمـا صكُّك عليـه ؟ يعنى : أين العقـد الذى أخذته بـه ؟ قال : عـقدى وصكّى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ⑪﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدى من الحق ـ تبارك وتـعالى ـ فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حُباً فى المال واستـئثاراً به ، أو بخـلاً على مَنْ جعل له الشرع نصـيباً ، فـمَنْ كان عنده البنون والبنات يعـطى البنين ويحـرم البنات ، ومَنْ كـان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامـهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبـه لمـسألة المـيراث وتحـترم شـرع الله فيـه وتقسـيم الله للمال ، فـقد وهبك الله المال وتركك تـتصرف فـيه طوال حيـاتك ، وليس لك أن تتصرف فـيه أيضاً بعـد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتـصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ⑪﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قِسْمته .

والمتأمل فى مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البنين فليُعْط البنات حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتى من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويُربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما فى يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عادلاً فى هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق - تبارك وتعالى - حين يُورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بيَّن النبى ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

أما قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهى من فضل الله ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ (١٧٣) ﴾ [النساء]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى منَّا ؟

لقد خلق الله الخَلْق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزَّع هذه الملكية بين عباده : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد المُلْك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالىْ هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

والله خير الوارثين ؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم فى الدنيا بأسباب فإنه فى الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش فى الجنة مستريحاً لا تعبَ ولا نصبَ ولا سَعْىَ ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أنْ تُحرِّك ساكناً .

إذن : البشر يرثون ليأخذوا ، أمّا الحق سبحانه فيرث ليعطى ؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأىُّ شىء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟ يجيب الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾

إذن : الحق سبحانه ورَّثهم فى الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد فى الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعِّد النفع لهم ، ففى الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفى الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطى ، لا مِثْل ما أخذ إنما فوق ما أخذ ؛ لأننا

نأخذ فى الميراث ما يفنى ، والله تعالى يعطينا فى ميراثه ما يبقى .

لكن مِمَّنْ يرثون الفردوس ؟

قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتَّبَ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه فى النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهم فى النار ، وحين يدخل أهل النارِ النارَ يتركون أماكنهم فى الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان فى الجنة ، لذلك كان النبى ﷺ يقول : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة »[1] ذلك ؛ لأن الفردوس جنة على أعلى رَبْوة فى الجنة . يعنى : فى مكان مُميّز منها ، والعلو فى مسألة المسكن والجنان أمر محبوب فى الدنيا ، الناس يُحبون السُّكْنى فى الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، ألاَ تراهم يزرعون فى المرتفعات ، وإنْ كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذى يفسد الزرع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسْقَى بالماء الغمر ، إنما تُسْقَى من ماء

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٥ ، ٣٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

السماء الذى يغسل الأوراق قبل أن يروى الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون ؛ لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الأوراق هى رئة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئى التى يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّت مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصَاب بشىء فى رئته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

وفى الفردوس ميزة أخرى هى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : ﴿يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ.. (٧٥)﴾ [ص]

ويُروى أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس[1] : تكلمى ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون]

ثم يقول تعالى : ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقد عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أُوتِى الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أنْ يتركك بالفقر والحاجة ، وإما أنْ تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى فى نعيم الآخرة : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]

وهكذا نلحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح فى الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٣٩٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « خلق الله جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلَّمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى فى تلخيصه : بل ضعيف .

الجزاء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزاء مَنْ آمن بى واتبع منهجى . كما جاء فى قوله تعالى فى استهلال سورة (الرحمن) :
﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾
[الرحمن] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علَّمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذى يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويُحدِّد لها مهمتها أولاً قبل أن يشرع فى صناعتها ، فمثلاً - ولله المثل الأعلى - الذى يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانته فى حركة الحياة ؛ لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾

سبق أن تكلمنا عن خَلْق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق - عز وجل - خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى :
﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً (١) ﴾ [النساء]

ومسألة خَلْق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) ﴾ [الكهف]

فلا تُصْغ إلى هؤلاء المضلين فى كل زمان ومكان ، الذين يدَّعون العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنَت الأرض .. الخ وعن الإنسان

يقولون : كان أصله قرداً ، إلى آخر هـذه الخرافات التى لا أساسَ لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعـالى المناعـة الإيمانيـة التى تحـمينا أنْ ننسـاق خلف هذه النظريات ، فـأخبرنا سـبحـانه خبر هؤلاء وحـذرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخَلْق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمـر استأثر الله بعلمـه ، فلا تأخـذوا علمه إلاَّ مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنـسـان اسم جنس تطلق على المـفرد والمثنـى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. ۝٣ ﴾ [العصر] فاستثنى من المفرد الجماعة .

ومـعنى ﴿ خَلَقْنَا ۝١٢ ﴾ [المـؤمنون] أوجـدنا من عـدم ، وسـبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخَلْق أيضاً مع الفارق بين خَلْق الله من عدم وخَلْق البـشر من مـوجود ، وخَلْق الله فيـه حركة وحـياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فـيجمد على حاله لا يتغير ؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون]

أما قَـوْل القرآن حكايةً عن عـيسى عليـه السلام : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. ۝٤٩ ﴾ [آل عمران] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجريه على يد نبيه .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الإِنسَـانَ .. ۝١٢ ﴾ [المؤمنون] أى : الإنسان الأول ، وهو آدم عليـه السـلام ﴿ مِن سُـلالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ﴾ [المـؤمنون] والسلالة : خلاصة الشىء تُسَلُّ منه كـما يُسَلُّ السيف من غمْده أى :

الجراب الذى يُوضَع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغِمْد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشىء الهام .

فالسلالة - إذن - هى أجود ما فى الشىء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهى زُبْد الطين ، فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطتَ عليها بين أصابعك يتفلَّتْ منها الزبد ، وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أنْ يهجوَ قريشاً لمعاداتهم لرسول الله ﷺ قال : إئذن لى يا رسول الله أنْ أَهْجُوهم من على المنبر فقال ﷺ : « أتهجوهم وأنا منهم ؟ » فقال حسان : أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين[1] .

وتُطلَق السلالة على الشىء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح ، حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجِّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صدْق هذه الآية ، فبالتحليل المعملىّ التجريبى أثبتوا أن العناصر المكوِّنة للإنسان هى نفسها عناصر الطين ، وهى ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصْبة الصالحة للزراعة ؛ لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٩) عن شيخهما عثمان بن أبى شيبة بسنده إلى عائشة رضى الله عنها .

يعنى : بعد أن جعلناه بشراً مُسْتوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين فى الإنسان الأول نخلقه فى النسْل من خلاصة الماء وأصفى شىء فيه ، وهى النطفة ؛ لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقى يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفَّى الدم ويرشح فى الرئة وفى الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التى يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى فى النطفة من سلالة مُنْتقاة .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة] ثم جعلنا هذه النطفة ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾ [المؤمنون] قرار : يعنى مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصّنه بعظام الحوض ، وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعلَق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة ، وتبدأ فى أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله فى تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملتْ لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكُنْ له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أمّا وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً..(١٤) ﴾ [المؤمنون] وهى قطعة صغيرة من اللحم على قَدْر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ..(٥) ﴾ [الحج] هذا على وجه التفصيل ، أما فى الآية التى معنا فيُحدِّثنا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدَّعِى البعض .

المضْغة المخلَّقة هى التى يتكوّن منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلَّقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..(١٤) ﴾ [المؤمنون] لأنه كان فى كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذّى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولَد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه فى

عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقى جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك فى هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يختنق .

ولما كانت مسألة خَلْق الإنسان فيها كثير من العِبَر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التى يتقلّب فيها الإنسان ، ناسب أنْ تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال ﷺ للكاتب : اكتبها فقد نزلت[(١)] ، لأنها انفعال طبيعى لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم .

---

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، إنها ختمت بالذى تكلمت يا عمر » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٩٢] .

ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضاً[١] ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبى السرح[٢] ، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضى الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهى إلى الله ، ويُقِرّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصُّنْع .

أما ابن أبى السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قولُه قولَ القرآن أُعْجِب بنفسه ، وادعى أنه يُوحَى إليه كما يُوحَى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدَّعى مجرد أنه يوحَى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَرَّه غروره إلى أنْ قال : سأنزل مثلما أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله فى هذه المسألة ، فارتدّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ..(٩٣) ﴾ [الأنعام]

وظل ابن أبى السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله حرْص عثمان عليه سكت ، ولم يقُلْ فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضى الله عنه

---

(١) أثر معاذ بن جبل : أخرجه ابن راهويه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أملى علىّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] إلى قوله ﴿ خَلْقًا آخَرَ..(١٤) ﴾ [المؤمنون] فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] .

(٢) هو : عبد الله بن سعد أبى سرح القرشى العامرى ، من بنى عامر بن لؤىّ فاتح أفريقية ، أسلم قبل فتح مكة ، كان من كتّاب الوحى ، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر ووليها بعده لمدة ١٢ عاماً ، دانت له أفريقية كلها وهزم الروم فى معركة « ذات الصوارى » عام ٣٤ هـ . توفى عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/ ٨٩] .

وانصرف ، فقال النبى ﷺ لصحابته : « أما كان فيكم مَنْ يُجهز عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لو أومأتَ لنا برأسك ؟ يعنى : أشرْتَ إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغى أن يكون لنبى خائنة الأعين »[(١)] يعنى : هذا تصرُّف لا يليق بالأنبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبى السرح فيُؤمن ويَحْسُن إسلامه ، ثم يُولَّى مصر ، ويقود الفتوحات فى إفريقيا ، ويتغلب على الضجة التى أثاروها فى بلاد النوبة ، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التى رأيناها فى مراحل خَلْق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكِّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : كيف يُحدِّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مراحل الخَلْق ، ثم يُحدِّثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟

نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفى الذِّهْن وفى الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٨٣) ، والنسائى فى سننه (١٠٦/٧) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما ندرى يا رسول الله ما فى نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك . قال : « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. ۝ ﴾ [الملك] كأنه سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة حتى تستقبل الحياة وتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ﴾ [الزمر] البعض يظن أن ميِّت بالتشديد يعنى مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالميِّت بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى ميِّتون ، أمّا الذى مات بالفعل فهو ميْت بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر[1] :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنمـا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْياءِ[2]

ومعنى : ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ۝ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد أطوار الخَلْق التى تقدمت من خَلْق الإنسان الأول من الطين إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

والمتأمل فى هذه الآية وهى تُحدِّثنا عن الموت الذى لا ينكره أحد ولا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق - تبارك وتعالى - بأداتين من أدوات التوكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون] فأكّدها بإنّ وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتى التأكيد على قَدْر ما يواجهك من إنكار ، أما خالى الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

---

(١) هو : عدى بن الرعلاء الغسانى . شاعر جاهلى ، اشتهر بنسبته إلى أمه ، وضاع اسم أبيه . [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٠] .

(٢) ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : موت .

تقول مثلاً لخالى الذهن الذى لا يشك فى كلامك : يجتهد محمد ، فإنْ شك تؤكد له بالجملة الاسمية التى تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فتقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسْب حال مَنْ تخاطبه .

إذن : أكّد الكلام عن الموت الذى لا يشكّ فيه أحد ، فقال : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ** (١٥) ﴾ [المؤمنون] ومع ذلك لما تكلَّم عن البعث وهو محلّ الشك والإنكار قال سبحانه :

﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ** (١٦) ﴾

ولم يقُلْ : لتبعثون كما قال ﴿ **لَمَيِّتُونَ** (١٥) ﴾ [المؤمنون] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم ؛ لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذى يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذِّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوّره فى حقه .

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أنْ ينكرها ؛ لذلك جاءت دون توكيد : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** (١٦) ﴾ [المؤمنون] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك سأطلقها إطلاقاً دون مبالغة فى التوكيد ، أمّا مَنْ يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق - سبحانه وتعالى - بعقليات خَلْقه وبنفوسهم ومَلَكاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾

نلحظ أن للعدد سبعة مواقف في هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففي استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ .. (٢) ﴾ [المؤمنون]

وفي مراحل خَلْق الإنسان نجده مرَّ بسبعة أطوار : سلالة من طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ .. (١٧) ﴾ [المؤمنون]

وفي موضع آخر قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمغيَّا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أي : مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكّ فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ

الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم، وسوف نُمسكها بأيدينا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ..(٤١)﴾ [فاطر]

ثم يعطينا الحق - تبارك وتعالى - الدليل الحسيّ على هذه الآية، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عَمَد، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله في السماء: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ..(١٩)﴾ [الملك]

نعلم أن الطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط، كالسباح الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح، فإذا ما قبض الطائر جناحيه ومع ذلك يظل مُعلّقاً في السماء لا يسقط فمَنْ يُمسكه في هذه الحالة؟ هذه صورة تشاهدونها لا يشكّ فيها أحد، فإذا قلت لكم أني أمسك السماء أن تقع على الأرض فصدّقوا وآمنوا، واستدلوا على الغيب بالمشاهد.

وكأن الحق سبحانه في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾ [المؤمنون] يقول: اطمئنوا إلى السماء من فوقكم، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التي تُؤمِّن معيشتكم تحت سقفها، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفي رعايتنا.

لكن، ما المراد بقوله ﴿عَنِ الْخَلْقِ..(١٧)﴾ [المؤمنون] أهو الإنسان أم خَلْق السماء؟ المراد: ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء، فبنيناها على ترتيبات ونظم تحميكم وتضمن سلامتكم.

والغفلة: تَرْك شيء لأنه غاب عن البال، وهذه مسألة لا تكون أبداً في حق الله - عز وجل - لأنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فهل الماء مَقرُّه السماء ؟ لا ، الماء مقرُّه الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

لما استدعى الخالق - عز وجل - الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مُقوِّمات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبرَ له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألاّ يُملّكه لأحد ؛ لأنه مُقوِّم الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق - عز وجل - وقدرته أنْ جعل الماء على الأرض مالحاً ؛ لأن الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عُرضة للتغيُّر والعطن ، وبالملح نصلح ما نخشى تغيُّره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدينِ يا مِلْحَ البلَدِ مَنْ يُصلح الملحَ إذَا المِلْحُ فَسَد

إذن : أصل الماء فى الأرض ، لكن ينزلِ من السماء بعد عملية البَخْر التى تُصفيه فينزل عَذْباً صالحاً للشرب وللرى ، وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البَخْر ، ويتكون المطر الذى يكفى حاجة أهل الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿ بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بحساب وعلى قَدْر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمّراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مأرب . وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ.. ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] لأننا نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمر] ومن عجيب قدرة الله فى المياه الجوفية أنها تسير فى مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العَذْب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون فى مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العَذْب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعفنا إذا نَضُبَ الماء العَذْب الموجود على السطح ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ.. ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جَفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بقدرته على سَلْب هذه النعمة ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : سيروا فى هذه النعمة سَيْراً لا يُعرِّضها للزوال ، وقال فى موضع آخر : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

وحين تَعُدّ نعَم الله التى امتنّ علينا بها بداية من نعمة الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تجدها أيضاً سبعة . ويبدو أن لهذا العدد أسراراً فى هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خَلْق الإنسان سبعاً ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة ؛ لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

وأذكر ونحن فى المملكة السعودية وكنت أستاذاً فى كلية الشريعة ومعى بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكى غيث - رحمه الله وغفر الله له - ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة فى هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذى نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذا العدد فى القرآن الكريم ، وكان يقرأ فى تفسير القرطبى فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو على - أطال الله عمره - أن نذهب لنصلى فى الحرم بدل أن نصلى فى الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا فى هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقُل رسول الله ﷺ : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان »[1] ؟ إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا فى العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التى توجد بها ليلة القدر هى هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

أطال الله فى عمر مَنْ بقى من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

الجنة : المكان الملىء بالأشجار العالية والمزروعات التى تستر مَنْ يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج فى متطلبات حياته إلى غيرها ، فهى من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع ﴿ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المؤمنون] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المؤمنون] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١١٦٦) كتاب الصيام عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « أريت ليلة القدر ، ثم أيقظنى بعض أهلى فنسيتها فالتمسوها فى العشر الغوابر » .

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن ؛ لأن الله بارك فيها ، والطور كلَّم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون] الدهن هو الدَّسَم ، والمراد هنا شجرة الزيتون التى يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشهَى الأكلات وألذّها عند مَنْ يزرعون الزيتون فى سيناء وفى بلاد الشام ، وقد ذُقْنا هذه الأكْلة الشهيرة فى لبنان ، عندما ذهبنا إليها فى موسم حصاد الزيتون .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

الأنعام : يُراد بها الإبل والبقر ، وألحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكَر لأنه لم يكُنْ موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والماعز ، وفى سورة الأنعام يقول تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقال فيها : أنعام ونَعَم (بفتح النون والعين) .

والعبرة : شىء تعتبرون به وتستدلُّون به على قدرة الله وبديع صُنْعه فى خَلْق الأنعام .

لكن ، ما العبرة فى خَلْق هذه الأنعام ؟ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلَّم عن خَلْق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وخلاصة وسلالة من الطين ومن النطفة ، وهكذا فى جميع أطوار خَلْقه . وفى الأنعام ترى شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تأكل من هنا وهناك وتجمع شتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنتن لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيوان ، ومن بين الفَرْث والدم يُصفِّى لك الخالق ـ عز وجل ـ لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً وتصفية .

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ [1] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

ونلحظ أن الآية التى معنا تقول : ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا(٢١)﴾ [المؤمنون] وفى آية النحل : ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦)﴾ [النحل] ذلك لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنعام ، فالمعنى﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا(٢١)﴾ [المؤمنون] أى : الإناث منها و ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦)﴾ [النحل] أى : بطون البعض ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً .

وقوله : ﴿نُّسْقِيكُم (٢١)﴾ [المؤمنون] من سقى ، وفى موضع آخر ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ (٢٢)﴾ [الحجر] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى : أعطاه الشراب ، أمَّا أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب [2] .

---

(١) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٢/٧٤].

(٢) قال الفراء : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم أسقيت ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سقاه ولم يقولوا أسقاه ، كما قال تعالى : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان] ، وربما قالوا لما فى بطون الأنعام ولماء السماء سقى وأسقى . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

لذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن شراب الجنة ، قال : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان]

ولما تكلم عن ماء المطر قال سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] يعنى : جعله فى مستودع لحين الحاجة إليه .

كما قلنا فى (مُرضِع) بالكسر ، و (مُرضَع) بالفتح ، فمرضع بالكسر للتى ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ (٢) ﴾ [الحج]

أما مرضَع بالفتح ، فهى الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾ [المؤمنون] نلحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين فَرْث ودم ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك لمن يقولون بالتكرار فى القرآن الكريم ، فالآيات فى الموضوع الواحد ليست تكراراً ، إنما هو تأسيس بلقطات مختلفة ، كل لقطة تؤدى فى مكانها موقعاً من العظَة والعبرة ، بحيث إذا جمعتَ كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشىء .

والمنافع فى الأنعام كثيرة : منها نأخذ الصوف والوبر ، وكانوا يصنعون منه الملابس والفرش والخيام ، قبل أن تُعرف الملابس والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمَنْ يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس ناعمة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ [النحل]

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾ [المؤمنون] أى : لحماً ، وذكر اللحم فى آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أنْ ذكرنا أن الحيوان الذى أحلّه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذَبْحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد منى قبل أنْ أموت .

وفى لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ (٧) ﴾ [النحل] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾

﴿ وَعَلَيْهَا (٢٢) ﴾ [المؤمنون] أى : على الدواب تُحملون ، فنركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - ما تركنا فى البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [المؤمنون] فكما أعددتُ لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددتُ لكم كذلك ما تركبونه فى هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفُلْك فقد ناسب ذلك الحديث عَمَّنْ له صلة بالفُلْك ، وهو نوح عليه السلام :

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى سافر . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وخَلْق الحيوان ، وحدثنا عن بعض نعمه التى امتنّ بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفُلْك ؛ لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفُلْك أى : تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تنبت كالزرع ؟ فأوضح الخالق سبحانه أنها وُجدت بالوحى فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيَّه يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجَّهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر] وهى الحبال ، كانوا يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمون بعضها إلى بعض ، أو المسامير تُشَدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أُحكمَتْ ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بُدَّ أن يظل بينها مسامّ يتسرب منها الماء ، فكيف نتفادى ذلك فى صناعة الفُلْك خاصة فى مراحلها البدائية ؟ يقولون : لا بُدَّ لصانع الفُلْك أنْ يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشبُ الماءَ يتشرب منه ، فيزيد حجمه فيسدّ هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القرآن ومعجزاته فى مسألة الفُلْك قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : كالجبال العالية . وهذه الفُلْك لم تكُنْ موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذى امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور فى صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفُلْك ، فطبيعى ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ؛ لأنه أول من اهتدى بالوحى إليه إلى صناعة الفُلْك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ.. (٢٣) ﴾ [المؤمنون] لما تكلّم الحق سبحانه عما فى الأنعام من نِعَم وفوائد ، لكنها تؤول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذى لا يزول فذكر منهج الله الذى أُرسِل به نوح ، وهو واحد من أولى العَزْم من الرسل .

والإرسال : هو أنْ يكلِّف مُرسِل مُرْسَلاً إلى مُرْسَل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرِسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهمونه ، وكيف لا وهم عباده وخَلْقه ، وقد جعلهم خلفاء له فى الأرض ؟

والذى خلق خَلْقاً ، أو صنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدى مهمتها فى الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثَّلْنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوى تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذى خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض أَوْلَى بهذا القانون وأَوْلَى بصيانة خَلْقه ؛ لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » يعنى : ما دام كل شىء

من أجلك يعمل لك ويُؤدِّى مهمته ، فـعليك أيضاً أن تؤدى مهمتك التى خلقتُك من أجلها .

لذلك وضع لك ربُّك قانون صيانتك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سرُّ الجمال فى الكون ، وسرُّ السعادة والتوافق فى حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهى فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدى إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التى سكت عنها فأنت حرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتى بقبيح فى المجتمع ، وهذه المسائل تُسمَّى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مُقوِّمات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين فى مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيَّرت فى هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدى مهمتها .

كذلك - ولله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تَحدْ عنه ، وإلا فسد حالك وعجزتَ عن أداء مهمتك فى الحياة . فإن أردنا أن تستقيم لنا الخلافة التى خلقنا الله لها وهى خلافة مُصلحة لا مُفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذى وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إنْ رأيت فى المجتمع عورة ظاهرة فى أى ناحية من نواحى الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوْعى والمحاويج فاعلم أن فى الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السَّعْى فى مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرَّم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويُمثِّلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شىء خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها فى الحياة ، وليس بالضرورة أنْ تُؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تُخلق خمراً ، إنما هى ثمرة العنب الحلوة التى تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخّل فى هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات] فالنساء فى مقابل القوم أى : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر[١] :

وَمَا أَدْرِى وسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصنٍ[٢] أَمْ نِسَاءُ

لكنْ هل أُرسِل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أُرسِل نوح إلى الجميع ، لكن ذُكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلّغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال مَنُوط بهم القيام بمهام الأمور فى عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة فى ﴿قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام يعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتى بمعنى من مثل : أردب قمح يعنى من قمح ، وبمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى فى الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخَلْق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] ففى هذا إيناس وإِلْفٌ للقوم على خلاف ما إنْ كان الرسول ملَكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبى ﷺ كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومُقوِّمات حياته تُشجِّع على

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته . توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٥٢/٣] .

(٢) يريد : حِصْن بن حذيفة الفزارى . قاله ابن منظور فى [لسان العرب – مادة : حصن] .

أنْ يُصدِّقوه فيما جاء به ، وكيف يصدقونه فى أمر الدنيا ، ولا يُصدقونه فى البلاغ عن الله ؟

إذن : ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿٢٣﴾ ﴾[المؤمنون] أننا لم نأتِ لكم برسول من جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتَعرفون ماضيه وتاريخه ، فتأنسون بما يجىء به ، ولا تقفون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه ؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوّامين على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه ؛ لأنهم سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ..﴿٢٣﴾ ﴾[المؤمنون] (يا قوم) استمالة وتحنين لهم ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ..﴿٢٣﴾ ﴾[المؤمنون] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ، والعبادة تقتضى تكليفاً بأمر ونهى . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما الربوبية فعطاء وتربية ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [هود] أى : ربكم جميعاً : ربّ المؤمن ، وربّ الكافر ، ربّ الطائع ، ورب العاصى .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر .. الخ كلها تخدم الجميع ، لا فَرْقَ بين مؤمن وكافر ؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإنْ سألت الكافر الجاحد : من خلقك ؟ من رزقك ؟ فلن يملك إلا أن يقول : الله ، إذن : فليخْزَ هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى وحده المستحق للطاعة وللعبادة . فمقتضيات الربوبية والإيمان بها تقتضى أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشبّ ، فلا يجد غيرهما يخدمه ويقضى حاجته ويُوفِّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى

ويسهـر على راحته . كل ذلك بروح سعـيدة ونفس راضيـة مطمئنة ، ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك الحياة الكريمة ، فإذا ما كبـر الصغير وبلغ الحُلُم ومبلغ الرجال نجده يعقُّهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانهما أصدقاء السوء ، ويُزيّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمـثل هذا العاق : اخْـزَ على عرْضك واسْـتَح ، فليس هكذا يكون رد الجـميل ، وأين كـان هؤلاء الأصدقـاء يوم أنْ كنتَ صغـيراً تحتـاج إلى من يعولك ويميـط عنك الأذى ، ويسهر على راحـتك ؟ قد كان ينبغى عليك ألاَّ تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - ولله المثل الأعلى - فكيف تأخـذ من ربك عطاء الربوبيـة ، ثم تتـمرد عليـه سـبحـانه فى الألوهية ، فتـعصـى أمره وتكفر بنعمـه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عـز وجل - مـأمون علـيك فى التكليف بالأمر والنهى ، لأنك عبده وصنعتـه ، وأنك حين تُؤدِّى ما عليك تجاه الألوهية لا يـنتفع الله سبـحانه من ذلك بشىء ، إنمـا تعود منفـعتـها عليك ، وهكذا إذا مـا رددت أمور الطاعة والعـبادة والتكاليف لوجـدتها تعـود فى النهـاية أيضـاً إلى عطاء الربوبيـة ؛ لأنهـا تعـود عليك أنت بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامـر والنواهى على أنها تكاليـف وأعباء يقـتضيـها الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هى تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو أنصفتَ لوجدتَ الألوهيـة من الربوبية ، فحين يُحرِّم مـثلاً عليك شرب الخمر ويحميك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشىء ؟

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..(٢٥) ﴾ [لقمان]

ويقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..(٨٧) ﴾ [الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ، فلماذا تعصونه ؟ وهل نقص عصيانكم من مُلْكه شيئاً ؟ وهل زاد فى مُلْكه شىء بطاعة مَنْ أطاع ؟ هل زاد فى مُلْك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل مُقوِّمات حياتكم واستدعاكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولمعيشتكم . إذن : فربُّكَ ـ عز وجل ـ لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

لذلك يقول فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر ، وذلك أنِّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أن أقول له : كن فيكون »[1] .

إذن : حين تطيعنى فالخير لك ؛ لأنك ضمنتَ بهذه الطاعة حياة

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبى ذر رضى الله عنه ، واللفظ للترمذى ، وقال : « هذا حديث حسن » .

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانـية التى مهما أترفت فيها فهى إلى زوال ، فإما أنْ تـفوت نعيمهـا بالموت ، وإما أنْ يفوتك بـالحاجة والفقر ، أمـا فى الآخرة فالنعيم دائم بَاقٍ لا يفـوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] فكأن عطاء الألوهية ربوبية متعدية إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفـيدنى فى شىء ، أو أن معصيتك ستضـرنى بشىء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ (٢٣)﴾ [المؤمنون] أى : معبود غيره ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحـمل معنى التهديد والتـوبيخ ، لكن كيف يُوبِّخـهم وهو لم يَزَلْ فى مرحـلة الأمر بعـبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتـقوى مـعناها أنْ تجعل بيـنك وبين ربك وقاية تقـيك صفـات جبـروته وقَهْره وتحمـيك من أسباب بَطْشـه وانتقامه ، فلست مطيـقاً لهذه الصفات . والوقاية التى تجـعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهى .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أنْ يقول سبحانه : ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ (١٩٤)﴾ [البـقرة] ويقول : ﴿فَـاتَّقُـوا النَّارَ..(٢٤)﴾ [البـقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتـقى الله من متعلقـات صفات قهره وغـضبه ومنها النار ، فـحين تتقى الله بالمنهج فقـد اتقيْتَ النار أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾

الملأ : من الملء يعنى : الشيء الذى يملأ الشيء ، فالملأ يعنى الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأبهتهم ، ومن ذلك قولهم : فلان ملءُ العين ، أو ملْءُ السمع والبصر ، ويقولون للرجل إذا بلغ فى الحُسْن مبلغاً : فلان قَيْد العيون يعنى : حين تراه لا تصرف بصرك إلى غيره من شدَّة حسنه كأنه قيَّد بصرك نحوه . أما فى المقابل فيقولون : فلان تتقحمه العين ولا تراه وكأنه غير موجود .

إذن : الملأ : هم الذين يملؤون صدور المجالس أُبَّهة وفخامة ووجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين تعصَّبوا ضده وواجهوه ؟

قالوا : لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد فى الكون وما استشرى فيه من شر ، فالحق - تبارك وتعالى - يُنزِل منهجاً على لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبلِّغوا منهج رسولهم من بعده ، لكن تأتى الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتى خروجهم عن منهج ربهم على عِدَّة صور :

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا أنه يعاود نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه

وواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ومنهم مَنْ يخرج على منهج ربه خروجاً لا رجعةَ له ولا زاجر ، وهذا نسميه بلغتنا (فاقد) يعنى : لم يَعُدْ له زاجر من شرع ولا من ضمير . ويبقى بعد ذلك زاجر المجتمع حين يرى مثل هؤلاء الخارجين عن منهج الحق عليه أنْ يتصدَّى لهم ، ويقاطعهم ولا يودهم ولا يحترمهم ، وإلا لو ظَلَّ المنحرف ومرتكب القبائح على حاله من احترام الناس وتقديرهم ، ولو ظلَّ على مكانته فى المجتمع لتمادى فى غَيِّه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيستشرى بذلك الشر فى المجتمع ، ويعُمّ الفساد وتشيع الفوضى .

ألاَ ترى الشرع الحكيم حين جعل الدية فى القتل على العاقلة يعنى : عائلة القاتل ، لا على القاتل وحده ؟ لماذا ؟ لكى يأخذوا على يد ولدهم إنِ انحرف أو بدَتْ عنده بوادر الاعتداء ؛ لأنهم جميعاً سيحملون هذه التبعة .

ونقول : خُصَّ الملأ بالذات ؛ لأنهم هم المنتفعون بالشر والفساد فى المجتمع ، ومن مصلحتهم أنْ يستمر هذا الوضع لتبقى لهم سلطتهم الزمنية ومكانتهم ؛ لذلك هم أول مَنْ يقابلون الرسالات بالجحود والنكران . ألم يقل الحق سبحانه عنهم فى آية أخرى : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

فهؤلاء الذين يُسمُّونهم أراذل هم المستضعفون والفقراء والمطحونون والمهمومون بأمور الخَلْق والدين والقيم ، فما إنْ تسمع آذانهم عن رسالة إلا تلهَّفوا عليها وارتموا فى أحضانها لأنها جاءت لتنقذهم ؛ لذلك يكونون أول مَنْ يؤمن . وإنْ جاء المنهج لإنصاف

هؤلاء ، فقد جاء أيضاً لينزع من أصحاب السلطان والقهر والجبروت سلطانهم وتعاليهم ، فلا بُدَّ أن يواجهوه ويعاندوه .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ.. (٢٤) ﴾ [المؤمنون] كفروا : يعنى جحدوا وجود الله ﴿ مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] فأول شيء صدَّهم عن الرسول كونه بشراً ، إذن : فماذا كنتم تنتظرون ؟ وقد شرح هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

ولا بُدَّ فى الرسول أن يكون من جنس المرسَل إليهم ؛ ليصح أن يكون لهم أُسْوة ، فيقلدوه ويهتدوا به ، وإلا لو جاء الرسول ملكاً فكيف تتحقق فيه القدوة ؟ وكيف تطيعونه وأنتم تعلمون أنه ملَكٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ، وليست لديه شهوة ، ولا مُقوِّمات المعصية ؟

ولنفرض أن الله نزَّل عليكم ملَكاً ، فكيف ستشاهدونه وتتلقَّوْن عنه ؟ لا بُدَّ - إذن - أن يأتيكم فى صورة رجل لتتمكنوا من مشاهدته والتلقِّى عنه ، وهكذا نعود فى نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] وتظل الشبهة باقية .

إذن : من الحُمْق أن نقول بأن يكون الرسول ملَكاً .

أما قولهم : ﴿ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] نعم ، هو بشر ، لكن ليس كمثلكم ، فأنتم كاذبون فى هذه المثلية ، لأنه بشر اصطفاه الله بالوحى ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « يؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم ، وأُعْطَى من الله فأقول : أنا لست كأحدكم » .

ويقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۝٦﴾ [فصلت] ومن هنا كانت الأفضلية فى أنه بَشر يُوحَى إليه ، وما بشريته إلا للإيناس والإلْف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح : ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۝٢٤﴾ [المؤمنون] يتفضّل : يعنى ينسب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ۝٢٤﴾ [المؤمنون] يعنى : لو شاء أنْ يرسل رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ۝٢٤﴾ [المؤمنون] أى : رسلاً ، وقد رَدَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء]

ثم يقولون : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون] المراد بهذا : يعنى أن يأتى مَنْ يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آباءنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام ، ولم يأتِ مَنْ يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال فى الرأى ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة ، وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ[1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف]

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذى نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء فى ادعائهم التقليد للآباء ، كيف ؟ تأمل حال

---

(١) قال ابن عباس : أى على دين ، وفى رده على سؤالات نافع بن الأزرق قال : على ملة غير الملة التى تدعونا إليها . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٣٧٢/٧ ، وعزا الأول لابن جرير الطبرى ، والثانى للطستى] .

الأجيال المختلفة تجد كل جيل له رأيه وتطلعاته ورغباته التى ربما اختلف فيها الابن عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأى مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التى يرغبها ، الملابس التى يحبها ، وإنْ خالفتْ رأى أبيه ، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إنْ لزم الأمر ، وهذا موجود فى كل الأجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا فى مثل هذه الأمور : إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأىٌ مستقل فى أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يُلبِّى رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يُقلِّل تكليفكم ؛ لأن التكليف سيُقيِّد هذه الرغبات والشهوات ويقضى على هذه الانحرافات ؛ لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أفلتَ الزمام من الآباء والأمهات ، فالشاب يسير على هواه فى أمور انحرافية ، فإن وجَّهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الأمر من الأولاد إلى البنات ، فصرْن أيضاً يتمردْنَ على هذه القيم ولا يهتممن بها .

فقولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [المؤمنون] وقولهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] هم كاذبون أيضاً فى هذه المقولة ؛ لأنهم لو صدَقوا لقلَّدوهم فى كل شىء فيما لهم وما عليهم فى أمور الدنيا وفى أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج هذه القضية فى مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٧٠)﴾ [البقرة]

لأن هذا يريحهم من مشقة التكاليف ، وإنْ كانت العبادة : طاعة عابد لمعبود فى أمره ونهيه ، فما أسهلَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة كما يدعون لكن ليس لها منهج ، وليس معها تكاليف ، فبأىِّ شىء أمرك الصنم ؟ وعن أىِّ شىء نهاك ؟ وماذا أعدَّ من جزاء لمن أطاعه ؟ وماذا أعدَّ من عقاب لمن عصاه ، إذن : معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا دليل كذبهم فى عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم .

ألم يقولوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣)﴾ [الزمر] فهذا حُمْق وسَفَه وجهل ؛ لأن الكلام منطقياً لا يستقيم ، كيف تقولون نعبدهم وليس لهم منهج ، وليس لهم تكاليف ، والعبادة طاعة عابد لمعبود ؟

إذن : ما هو إلا خواء وإفلاس عقدىّ ؛ لذلك يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم فيقولَ سبحانه : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم : ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤)﴾ [المائدة] وهذه أبلغ من سابقتها ، لأنهم يُصعِّدون كفرهم ويُصرون عليه ، فقولهم : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] فلربما يراجعون أنفسهم فيهتدون إلى الحق ، ويخالفون الآباء .

لكن هنا : ﴿حَسْبُنَا ..(١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : كافينا ، ولن نغيره ولن نحيد عنه ؛ لذلك يأتى تذييل كل آية بما يناسبها : ففى الأولى قال تعالى ردّاً عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى الأُخْرى قال ردّاً عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ..(١٠٤)﴾ [المائدة]

فذكر العقل فى الأولى ؛ لأن الإنسان يأتمر فيه بنفسه ، وذكر فى الأخرى العلم ؛ لأن الإنسان فى العلم يأتمر بعقله ، وعقل العلم أيضاً ، فالعلم - إذن - أوسع من العقل ؛ لذلك ذكره مع قولهم ﴿حَسْبُنَا..(١٠٤)﴾ [المائدة] الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر .

كما نلحظ عليهم فى قولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا..(٢٤)﴾ [المؤمنون] أن الغفلة قد استحكمت فيهم ؛ لأن نوحاً عليه السلام يعتبر الجد الخامس بعد آدم عليه السلام ، فبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا طوال هذه الفترة برسول أو نبى ، يقول : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنْ هُوَ..(٢٥)﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هو و ﴿جِنَّةٌ﴾ : يعنى جنون ، وهو ستر العقل الذى يسيطر على حركة الإنسان فى الحياة فيسير حسب تقنيناتها (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، أما المجنون فيعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير ؛ لذلك من عدالة الله فى خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أن نبتسم له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فإنْ كان هذا حال المجنون فى حركة حياته ، فهل يكون ذو الخلق الذى يسير وَفْق قوانين الحياة ومحكوماً بنظم وقيم خلقية ، هل يكون مجنوناً ؟ ومن العجيب أن تهمة الجنون هذه سائرة على لسان

المكذِّبين للرسل فى كل زمان ومكان ، وقد اتُّهِم بها رسول الله ﷺ ، فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة فى قوله : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم]

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً ، فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم ، واطمأنوا إليه ، وسمَّوْه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خُلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جِنَّة ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ㉕ ﴾ [المؤمنون] أى : انتظروا واتركوه وشأنه ، فربما عاد إلى صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه غير مُهتمين به ، أو دَعُوه فإنْ كان على حق ونصره الله وأظهر أمره عندها نتبعه ، وإنْ كانت الأخرى فها نحن مُعرِضون عنه من بداية الأمر .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ㉖ ﴾

بعد أنْ كذَّبه قومه دعا الله أن ينصره ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ㉖ ﴾ [المؤمنون] يعنى : انصرنى بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلولَ له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضنى بتكذيبهم نصراً ، يعنى : أبْدِلنى من كذبهم نصراً ، كما تقول : اشتريت كذا بكذا ، فأخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ(١) فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح - عليه السلام - فى النُّصْرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفُلْك هى السفينة ، وتُطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [فاطر] فدلَّتْ مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون] دليل على أن نوحاً - عليه السلام - لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحى من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] فالمعنى : اصنع الفُلْك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأُصحِّح لك إنْ أخطأت فى وضع شىء فى غير موضعه ، إذن : أمَرْتُ وأعَنْتُ وتابعتُ . والوحى : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) التنور : مكان تفجُّر الماء ، والكانون الذى يُخبز فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] أى : تفجرت الأرض بماء كثير أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . [القاموس القويم ١/١٠٢] .

وهنا لم يتعرض السياق للفترة التى صنع فيها نوح السفينة ، والتى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفى موضع آخر يُعلمنا - سبحانه وتعالى - عن كيفية صُنْعها فيقول : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] وقلنا : إن الدُّسُر : الحبال التى تُضَمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطةَ أن تكون جافة ، وتُضَم إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل الماء وتشرَّبت منه يزيد حجمها فتسدُّ المسام بين الألواح ، كما نراهم مثلاً يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب .

وقد صنع أحدهم سفينة من البَرْدى بهذه الطريقة ، وسافر بها إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون] يعنى : بإنجاء المؤمنين بك ، وإهلاك المكذبين ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] والتنور : هو الفرن الذى يخبزون فيه الخبز ، ويقال : إنه كان موروثاً لنوح من أيام آدم ، يفور بالماء يعنى : يخرج منه الماء ، وهو فى الأصل محلٌّ للنار ، فيخرج منه الماء وكأنه يغلى . لكن هل كل الماء سيخرج من التنور ؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسينزل من السماء ، وفوران التنور هو إيذان بمباشرة هذه العملية وبداية لها .

إذا حدث هذا ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] يعنى : احمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من المخلوقات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) ﴾ [المدثر] يعنى : أدخلكم ، وقال سبحانه : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾

[القصص] يعنى : أدخلها ، وقال سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر]

ومن مادة (سلك) أخذنا فى أعرافنا اللغوية . نقول : سلَّك الماسورة أو العين يعنى : أدخل فيها ما يزيل سدَّتها .

والتنوين فى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : من كل شىء[1] نريد حِفْظ نوعه واستمراره ؛ لأن الطوفان سيُغرق كل شىء ، والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين مُقوِّمات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والأنعام وجميع أنواع المخلوقات الأخرى من كل ما يلِدُ أو يبيض .

ومعنى ﴿زَوْجَيْنِ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] ليس كما يظنُّ البعض أن زوج يعنى : اثنين ، إنما الزوج يعنى فرد ومعه مثله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ..﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]

فسمَّى كلَّ فرد من هذه الثمانية زوجاً ؛ لأن معه مثله .

هذا فى جميع المخلوقات ، أما فى البشر فلم يقُلْ زوجين ، إنما قال ﴿وَأَهْلَكَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] أياً كان نوعهم وعددهم ، لكن الأهلية هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية ؟

الأهلية هنا يُراد بها أهلية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى

---

(١) قال الحسن البصرى : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . قاله القرطبى فى تفسيره [٤٦٥٣/٦].

شرح هذه اللقطة فى آية أخرى ، فقال على لسان نوح عليه السلام :
﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .. (٤٥) ﴾ [هود]

فقال له ربه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٤٦) ﴾ [هود]

فبنوة الأنبياء بنوة عمل واتباع ، فإنْ جاءت من صُلْبه فأهلاً وسهلاً ، وإنْ جاءت من الغير فأهلاً وسهلاً . لذلك النبى ﷺ يقول عن سلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[1] فقد تعدى أن يكون مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .

وكذلك أدخل فيها أهلك من النسب بدليل أنه استثنى منهم : ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] وكان له امرأتان ، واحدة كفرت به وخانته هى وولدها كنعان ، والتى ذُكرت فى قول الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا .. (١٠) ﴾ [التحريم]

وكنعان[2] هو الذى قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء وهذه اللقطة لم تذكر هنا ؛ لأن أحداث هذه القصة جاءت مُفرَّقة فى عدَّة مواضع ، بحيث لو جُمعت تعطى الصورة العامة للقصة ، فإنْ قُلْتَ : فلماذا لم تأت مرة واحدة كما فى قصة يوسف عليه السلام ؟

نقول : جاءت قصة يوسف كاملة فى موضع واحد ليعطينا بها الحق - سبحانه وتعالى - نموذجاً للقصة الكاملة المحبوكة التى تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإنْ

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٥٥٨) : سنده ضعيف .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٤٦) « قوله ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ .. (٤٢) ﴾ [هود] هذا هو الابن الرابع واسمه يام » .

أردتها كاملة فنحن قادرون على ذلك ، وها هى قصة يوسف ، إنما الهدف من القصص فى القرآن هو تثبيت فؤاد النبى ﷺ كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] ؛ لأنه ﷺ سيقابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قومه ، وسيتعرض لأزمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسلِّيه ويُثبِّته أمام هذه الأحداث .

لذلك جاءت لقطات القصص القرآنى متفرقة فى عدة مواضع لتسلية رسول الله ، والتخفيف عنه كلما تعرَّض لموقف من هذه المواقف ، وبجَمْع هذه اللقطات المتفرقة تتكون لديك القصة الكاملة المستوية .

وقد أدخل نوح معه زوجته الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فهؤلاء ستة ونوح وزوجه فهم ثمانية ، ومعهم اثنان وسبعون من المؤمنين وأصول الإيمان الباقى مع نوح عليه السلام .

ولما كان الحكم بغرق مَنْ كفر من أهله أمراً لا استئناف فيه ، قال تعالى بعدها : ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود] لكن ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم حين كفروا بالله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

صحيح أنت حين كفرت أخذتَ حقَّ الله فى أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معبود غيره ، وأعطيتَه لغيره ، لكن هذا الظلم لم يضر الله تعالى فى شىء إنما أضرَّ بك وظلمتَ به نفسك ، ومنتهى الحُمْق والسفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾

﴿ اسْتَوَيْتَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : استعليتَ وركبتَ أنت ومَنْ معك على الفُلْك واطمأنّ قلبك إلى نجاة المؤمنين معك ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نعَم الله عليه بالحمد ، وبألاَّ تُنسيه النعمةُ جلالَ المنعِم ، فساعةَ أنْ يستتب لك الأمر على الفُلْك وتطمئن بادر بحمد الله .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضنا لنكران الجميل ممَّنْ أحسنَّا إليه لا نغضب ؛ لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى ـ عليه السلام ـ : يا ربِّ أسألك ألاّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ . يعنى : لا يتهمنى الناس ظلماً ، فردَّ عليه ربه عز وجل : « يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسى » .

إذن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضِنُّ به على الناس لأنهم ينكرونه لَفسد الحال ، وتوقفت المصالح بينَ الخَلْق ، وضَنَّ أهل الخير بخيرهم ؛ لذلك وضع لنا ربنا ـ عز وجل ـ الأُسْوة بنفسه سبحانه .

والإنسان إنْ كان حسيساً لا يقف عند إنكارِ الجميل ، إنما يتعدّى ذلك فيكره مَنْ أحسن إليه ويحقد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس والتعالى والغطرسة ، فإذا ما رأى مَنْ أحسن إليه كرهه ؛ لأنه يدكُّ فيه كبرياء نفسه ، ويَحدُّ من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شرَّ مَنْ أحسنت إليه » لماذا ؟ لأنه يخزَى ساعة يراك ، وهو يريد أنْ يتعالى ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالى .

إذن : وطِّنْ نفسك على أن الجميل قد يُنكَر حتى لو كان فاعله رب العزة سبحانه ، فلا يحزنك أنْ يُنكَر جميلك أنت .

وعن ذلك قال الشاعر[1] :

يَسير ذَوُو الحاجَات خلفكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدركُوهَا خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
وأفضلُهم مَنْ إنْ ذُكِرْت بسىء ... توقَّفَ لا ينفى وقد يتقوّل
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أرْبَى وأجزَلُ

فالمعنى : إذا استويتَ أنت ومَنْ معك ، واستتبَّ لك الأمر على الفُلْك ، فإياك أنْ تغتَرّ أو تنأى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة ؛ لذلك أمرنا حين نركب أى مركب أن نقول : « بسم الله مجريها ومرساها » لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ، وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذى قال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨)﴾ [القصص] فيقول: ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

---

(١) من قول الشيخ رحمه الله .

حتى فى ركوب الدَّابّة يُعلِّمنا ﷺ أنْ نقول : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] وذكر النجاة لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جلْب المنفعة .

ثم يُعلِّمه ربه دعاءً آخر يدعو به حين تستقر به السفينة على الجُودى ، وعندما ينزل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. (٤٨) ﴾ [هود] لأنك ستنزل منها وليست هى مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبى ﷺ فقال كما حكى القرآن : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .. (٨٠) ﴾ [الإسراء]

فلا بُدَّ أن تذكر فى النعمة المنعمَ بها ، لذلك فالذين يُصابون فى نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثِقْ تمام الثقة أنهم حين رأوْا نعمة الله عليهم لم يذكروا المنعم بها ، ولو أن الإنسان حين يرى نعمة من نعم الله عليه فى ماله أو ولده فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ووضع النعمة فى حماية المنعم لضمن دوام نعمته وسلامتها من أعين الحاسدين ؛ لأنه وضعها تحت قانون الصيانة الإلهية .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٤٤ ، ١٥٠) .

ومعنى : ﴿ مُنزَلاً مُّبَارَكًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون] الشىء المبارك : الذى يعطى فوق ما يتصور من حجمه ، كأن يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريمة ويُربِّى أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين له ذلك ؟ ونقول : إنها البركة التى تحلّ فى القليل فيصير كثيراً ، صحيح أن الوارد قليل لكن يُكثِّره قلة المنصرف منه .

وقد مثّلنا لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فيُيسِّر الله أمره ، ويقضى مصالحه بأيسر تكلفة ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاى ، ولا يفزع لمرضه ؛ لأنه مطمئن القلب ، راضى النفس ، واثق فى معونة الله . أما الذى يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة .. الخ إنْ مرض ولده يُهرع به إلى الأطباء ويتوقع فى ولده أخطر الأمراض ، فإنِ ارتشى بعشرة صرف عليها مائة .

وسبق أن قلنا : إن هذه البركة هى رزق السَّلْب الذى لا يزيد من دخلك ، إنما يُقلِّل من مصروفاتك .

وكلمة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أم أنه سبحانه المُنزِل الوحيد ؟ الله خير المنزلين يعنى : أباح أن يقال للعبد أيضاً مُنزِل حين يُنزِل شخصاً فى مكان مريح ، كأن يُسكنه مثلاً فى شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه .. الخ . وإنْ كنتَ مُنزِلاً بهذا المعنى ، فالله عز وجل هو خير المنزلين ؛ لأنه سبحانه حين يُنزلك ينزل على قَدْره تعالى ، وعلى قَدْر كرمه وعطائه .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يضنّ عليه خَلْقه أنْ يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يضنّ عليك أنْ يصفك بالخَلْق فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] فأثبت لك صفة الخَلْق ، لأنك توجد

معدوماً مع أنك تُوجده من موجـود لله ، كأنْ تصنع من الرمل والنار كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجـده يظل جامداً على حالته لا ينمو ولا يتناسل ، وليست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال : ﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وكمـا أن الله عز وجل لم يضنّ عليك بهـذه الصفـات ، فلا تضنّ عليه سبحـانه بأنه خير المنزلين ، وخير الوارثين ، وخـير الماكرين ، وأحسن الخالقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : فيما تقدم ﴿ لَآيَاتٍ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] عبـر وعظات وعـجائب ، لو فكّر فـيهـا المرء بعـقل محـايد لانتـهى إلى الخيـر ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فلا تظن أن الابتلاء مقصور على الظلمة والكافرين الذين أخذهم الله وأهلكهم ، فقد يقع الابتـلاء بمَنْ لا يسـتحق الابتـلاء ، وحـين يبتـلى اللهُ أهلَ الخيـر والصلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وتُرفع مكانتهم ويُمحّص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التى وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكُنْ كراهيـة لهم أو انتقـاماً منهم ، إنمـا كانت تصـفيـة لمعدنهـم وإظهاراً لإيمانهم الراسخ الذى لا يتـزعزع ؛ لأنهم سيحـملون دعوة الله إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سـبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] لا ، لابُدَّ من الابتلاء الذى يُميِّز الصادقين ممَّنْ

يعبد الله على حَرْف ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنون الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إذن : المعنى ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب ؛ لأننا نحب أن نرفع درجاتهم ونُمحِّص إيمانهم ليكونوا أهْلاً لدعوة الله ؛ لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى الحديث القدسى :

« وعزتى وجلالى ، لا أُخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض فى جسمه وخسارة فى ماله ، وفقد فى ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلت عليه سكرات الموت حتى يأتينى كيوم ولدته أمه .. وعزتى وجلالى ، لا أخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحةً فى جسمه ، وبركة فى ماله وولده ، فإذا بقيتْ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى وليست له حسنة » .

إذن : فالابتلاء كما يكون انتقاماً من الكفرة والظلمة يكون كذلك تربيباً للنفع ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادة للثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا : إن القرن : الزمن الذى يجمع أُناساً متقاربين فى مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن

القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طال ، أو رسالة مهما طالتْ ، كلها تسمى قَرْناً[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) ﴾

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٣٢) ﴾ [المؤمنون] وقال لهم أيضاً : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) ﴾ [المؤمنون]

إذن : هو منهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإنْ قلتَ : فما بال قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

نقول : نعم ، لأن العقائد والأصول هي الثابتة التي لا تتغير :

---

(١) قال الأزهري : القرن أهل كل مدة كان فيها نبيّ أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّتْ السنون أو كثُرت ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : « خيركم قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم - يعني التابعين - ثم الذين يلونهم - يعني الذين أخذوا عن التابعين » . وقال القرطبي في تفسير الآية (٦/ ٤٦٥٤) : « هم قوم عاد . والرسول هود ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت في إثر قوم نوح إلا عاد » .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشريعة الخاصة بالفروع فهى محلُّ التغيير بين الرسل ؛ لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشِّرْعة : هى القانون الذى يحكم حركة حياتك ، أمّا الدين فهو الأمر الثابت والموحّد من قبل الله ـ عز وجل ـ والذى لا يملك أحد أنْ يُغيِّر فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت آفة الأمم أنْ يجعلوا أنفسهم فِرَقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

وتأمل : ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ : فرّقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهى مجال الاختلاف على حَسْب ما فى الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نِعَم الله .. الخ .

وسبق أنْ أوضحنا أن اختلاف الداءات فى هذه الأمم ناتج عن العزلة التى كانت تبعدهم ، فلا يدرى هذا بهذا ، وهم فى زمن واحد . أمّا فى رسالة الإسلام ـ هذه الرسالة العامة الخاتمة ـ فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث فى أقصى الشمال يعرفه مَنْ فى أقصى الجنوب ؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاء رسول واحد خاتم بتشريع صالح لجميع الزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وآفة المسلمين فى التعصُّب الأعمى الذى يُنزل الأمور الاجتهادية التى ترك الله لعباده فيها حريةً واختياراً منزلةَ الأصول والعقائد التى لا اجتهادَ فيها ، فيتسرَّعون فى الحكم على الناس واتهامهم بالكفر لمجرد الاختلاف فى وجهات النظر الاجتهادية .

نقول : من رحمة الله بنا أنْ جعل الأصول واحدة لا خلافَ عليها ، أما الفروع والأمور الاجتهادية التى تتأتّى بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، وينبغى أنْ يحترم كُلٌّ منّا فيها رأى الآخر ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء]

وإلا لو أراد الحق سبحانه لَمَا جعل لنا اجتهاداً فى شىء ، ولجاءتْ كل مسائل الدين قهرية ، لا رأىَ فيها لأحد ولا اجتهاد ، أمّا الحق - سبحانه وتعالى - فقد شاءت حكمته أن يجمعنا جَمْعاً قهرياً على الأمور التى إنْ لم نجمع عليها تفسد ، أما الأمور التى تصلح على أى وجه فتركها لاجتهاد خَلْقه .

فعلينا - إذن - أنْ نحترم رأى الآخرين ، وألاَّ نتجرأ عليهم بل لنحترم ما اختاره الله لنا من حرية الفكر والاجتهاد .

وأُسْوتنا فى هذه المسألة سيرة رسول الله ﷺ ، وسلف هذه الأمة فى غزوة الأحزاب ، فلما هَبَّتْ الريح على معسكر الكفار فاقتلعت خيامهم وشتتت شملهم وفَرُّوا من الميدان انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، لكن سرعان ما أمره ربه بالتوجه إلى بنى قريظة لتأديبهم ، وأخبره - سبحانه وتعالى - أن الملائكة ما زالت على حال استعدادها ، ولم يضعوا عنهم أداة الحرب ، فجمع رسول الله الصحابة

وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

وفعلاً ، سار الصحابة نحو بنى قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فمنهم مَنْ خاف أنْ يدركه المغرب قبل أنْ يصلى العصر ، فصلى فى الطريق ومنهم مَن التزم بأمر رسول الله ﷺ بألاَّ يصلى إلا فى بنى قريظة ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفى وجوده ، لكنه خلاف فرعى ، لَمَّا رفعوه إلى رسول الله وافق هؤلاء ، ووافق هؤلاء ، ولم ينكر على أحد منهم ما اجتهد .

إذن : فى المسائل الاجتهادية ينبغى أن نحترم رأى الآخرين ؛ لذلك فالعلماء ـ رضى الله عنهم ـ وأصحاب الفكر المتزن يقولون : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . فليت المسلمين يتخلصون من هذه الآفة التى فرَّقتهم ، وأضعفتْ شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

ولما تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. (٦) ﴾ [المائدة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألاَّ يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » وفى لفظ « العصر » .

نلحظ أنه تعالى عند الوجه قال ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة] دون أن يحدد للوجه حدوداً ، لماذا ؟ لأن الوجه لا خلافَ عليه بين الناس ، لكن فى الأيدى قال : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. (٦) ﴾ [المائدة] فحدد اليد إلى المرفق ؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس مَنْ يقول : الأيدى إلى الكتف . ومنهم مَنْ يقول : إلى المرفق . ومنهم مَنْ يقول : هى كف اليد .

لذلك حدَّدها ربنا - عز وجل - ليُخرجنا من دائرة الخلاف فى غَسْل هذا العضو ، ولو تركها - سبحانه وتعالى - دون هذا التحديد لكانَ الأمر فيها مباحاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك فى الرأس قال سبحانه : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة] وتركها لاحتمالات الباء التى يراها البعض للإلصاق ، أو للتعدية ، أو للتبعيض .

إذن : حين ترى مخالفاً لك فى مثل هذه الأمور لا تتهمه ؛ لأن النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حقَّ الاجتهاد .

ثم قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾

تكلمنا عن معنى ﴿ الْمَلأُ .. (٣٣) ﴾ [المؤمنون] وهم عَيْن الأعيان وأصحاب السلطة والنفوذ فى القوم ، والذين يضايقهم المنهج الإيمانى ، ويقضى على مكانتهم ، ويقف فى وجه طغيانهم وسيطرتهم واستضعافهم للخلق .

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٣)﴾ [المؤمنون] تماماً كما حدث مع سابقيهم من قوم نوح ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [المؤمنون] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعّم ، فإذا زِدْتَ عليها الهمزة (أترف) نقول : أترفته النعمة ، أترفه الله ، يعنى : كانت النعمة سبب طغيان ، ووسَّع الله عليه فى النعمة ليتسع فى الطغيان .

وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] يعنى من منهج الحق ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] (٤٤)﴾ [الأنعام]

ذلك ، ليكون الأَخْذ أقوى وأعنف وأبلغ فى الإيلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، ولله تعالى - المثل الأعلى - ، قلنا : إن الله تعالى إذا أراد أنْ يُوقع معانداً لا يُوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسى عالٍ ومكانة رفيعة ، ليكون (الهَدْر) أقوى وأشدّ .

فإن أخذ الإنسان العادى الذى لا يملك ما يتحسر عليه من مال أو جاه أو منصب ، فالأمر هيِّن ، أمّا حين يُرقِّيه ويُعلى منزلته ويُترفه فى النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شكَّ أنه أَخْذ عزيز مقتدر ، وهذا أشدُّ وأنكَى .

إذن : أترفناهم يعنى : وسَّعنا عليهم وأمددناهم بالنعم المختلفة ليزدادوا فى كفرهم وطغيانهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ فِي

(١) أبلس : حزن ويئس وتحيَّر وسكت غماً وهماً أو سكت لانقطاع حجته . [القاموس القويم ١/٨٢] .

غَمْرَتِهِمْ[1] حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون]

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء فى وسائل الغيّ والانحراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا فى آثامها لنتعمق نحن فى عذابهم والانتقام منهم .

ثم يحكى القرآن عنهم هذه المقولة التى سارت على ألسنتهم جميعاً فى كل الرسالات : ﴿ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] وكأن هذه الكلمة أصبحتْ لازمة من لوازم المكذِّبين للرسل المعاندين لمنهج الله ، ثم يؤكدون على بشرية الرسول فيقولون : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] ألم يقُل كفار مكة لرسول الله ﷺ : ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان]

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الأمم وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون : الكفر ملة واحدة .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

خاسرون إنْ أطعتُم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يُوحَى إليه ، فأنا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحى .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) أى : فى غيِّهم وضلالهم . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٧) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٦٤) : « الغمرة فى اللغة ما يغمرك ويعلوك ، وأصله الستر . والغمر : الماء الكثير لأنه يغطى الأرض . والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة » .

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذى يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال فى مسألة البعث ؟ أليست الإعادة أهونَ من البَدْء ؟ وإذا كان الخالق - عز وجل - قد خلقكم من لا شىء فلأنْ يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق فى حق الله تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل أموره عن علاج ومزاولة ، إنما عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث فى هذه المسألة يأتى بما تعارفتْ عليه العقول ، وبما يُقرِّب القضية إلى الأذهان .

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ هَيْهَاتَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [المؤمنون] اسم فعل بمعنى بَعُد ، يعنى بَعُد هذا الأمر ، وهو أن نرجع بعد الموت ، وبعد أن صِرْنا عظاماً ورُفَاتاً .

والكلمة فى اللغة إما اسم أو فعل أو حرف : الاسم ما دَلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين تقول : سماء نفهم أنها كل مَا علاك فأظلَّك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهى متعلقة بالزمن الماضى ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعلاء أى شىء ؟

فالمعنى - إذن - لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى مَا يوضحه ، كذلك (فى) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية ، كذلك من للابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة ؛ لذلك

يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيهات) أى بَعُد ، فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفعل ، ومثله شتان بمعنى تفرق ، أف بمعنى أتضجّر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث ؛ لأنهم لا يعتقدون فى حياة غير حياتهم الدنيا ، فالأمر عندهم محصور فيها ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون] إن : حرف نفي يعنى . ما هى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] يعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنَهم .

وقوله : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا : (نموت ونحيا) فكيف يُنكرونه ؟

والمراد : نموت نحن ، ويحيا من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يعنى : الرجل الذى أخبركم بمسألة البعث ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المؤمنون] وعجيب منهم هذا القول ، فهم يعرفون الله ويعترفون ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فكيف يكون إلهاً دون أنْ يُبلغكم رسالة على لسان رسوله ؟ وإلاَّ ، فكيف ستعرفون منهج الله ؟ قالوا : بالعقل ، لكن العقل فى هذه المسألة لا يصح .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى : هَبْ أننا نجلس فى حجرة مغلقة ودَقَّ جرس الباب ، لا شكَّ أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكنا سنختلف فى التصوُّر : أهو رجل ؟ أم امرأة ؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير ؟ .... الخ .

إذن : نتفق حين نقف عند التعقُّل ، لكن كيف نعرف مَنْ بالباب ؟ نجعله هو يخبر عن نفسه حين نقول : مَن الطارق ؟ يقول : أنا فلان ، وجئتُ لكذا وكذا . فمَن الذى يبلغ عن التعقل ؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق واجد تدلُّ عليه آيات الكون ، فأنتَ لو نظرتَ إلى لمبة الكهرباء هذه التى تنير غرفة واحدة ، وتأملتَ لوجدتَ وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولها عمر افتراضى وربما كسرت لأىٍّ سبب وطفئتْ .

أفلا تنظر كذلك إلى الشمس وتتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية فى وقت واحد دون أنْ تتعطلَ ودون أنْ تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدَّعها أحد لنفسه ، أفلاَ يدل ذلك على أن وراء هذا الخَلْق العظيم خالقاً أعظم ؟

إذا كنا نُؤرِّخ لمكتشف الكهرباء ومخترع المصباح الكهربائى ، ونذكر ماذا صنع ؟ وكيف توصّل إلى ما توصّل إليه ، أليس يجدر بنا أنْ نبحث فى خالق هذا الكون العجيب ؟

إنك لو حاولتَ أنْ تنظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإنَّ نظرك يكلُّ ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأىّ طاقة هذه التى تنبعث من الشمس ؟

ومن عجائبها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة فإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقلّ درجة الحرارة مع أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدتَ ناراً مثلاً فتجد أن حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها ، أما الشمس فكلما اقتربت منها قلَّتْ درجة الحرارة ، فمَنْ يقدر على هذه الظاهرة ؟

فإذا جاء مَنْ يخبرنى أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هى لك ، إلى أن يأتي منازع يدَّعيها لنفسه ، ولم يأت منازع يدَّعيها إلى الآن .

وقولهم : ﴿ افْتَرَىٰ .. (٣٨) ﴾ [المؤمنون] مبالغة منهم فى حقِّ رسولهم ؛ لأن الافتراء : تعمُّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتى الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتى الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم صاحبه ، فهو فى ذاته صادق .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) ﴾

سبحان الله ، كأن تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذِّبين ، وكأنه (أكلشيه) ثابت على ألسنة الرسل : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فيتهمونه ويُكذِّبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتى النهاية واحدة : ربِّ انصرنى بما كذَّبون ، يعنى : أبدلنى بتكذيبهم نَصْراً .

هذه قَوْلة هود ـ عليه السلام ـ حين كذَّبه قومه ، وقوْلة نوح ، وقوْلة كل نبى كذَّبه القوم ؛ لأن الرسول حين يُكذَّب من المرسل إليهم لا يفزع إلا إلى مَنْ أرسله ؛ لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

فالمعنى : انصرنى لأنك أرسلتنى ، وقد كذَّبنى القوم بعد أن استنفدتُ فى دعوتهم كل أسبابى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة ، ولم يَعُد لى إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الأسباب التى منحه الله إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً داخلاً فى قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

إذن : لا تلجأ إلى الله إلا بعد أنْ تؤدى ما عليك أولاً ، وتفرغ كل ما فى طاقتك فى سبيل غايتك ، لكن لا تقعد عن الأسباب وتقول : يا رب فالأرض أمامك والفأس فى يدك ومعك عافية وقدرة ، فاعمل واستنفد أسبابك أولاً حتى تكون فى جانب المضطر الذى يُجيب الله دعاءه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول : دعوتُ الله ولم يستجب لى ، ونقول له : أنت لم تَدْعُ بدعاء المضطر ، أنت تدعو بدعاء مَنْ فى يده الأسباب ولكنه تكاسل عنها ؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، ولله تعالى المثل الأعلى : هَبْ أنك صاحب مال وتجارة وجاءتك بضاعة من الجمرك مثلاً ، وجلست تراقب العمال وهم يُدخلونها المخازن ، فليس من مهامك الحمل والتخزين فهذه مهمة العَمال ، لكن هَبْ أنك وجدت عاملاً ثقُلَ عليه حمْله وكاد الصندوق أن يوقعه على الأرض ، ماذا يكون موقفك ؟ لا شكَّ أنك ستفزع إليه وتأخذ بيده وتساعده ؛ لأنه فعل كل ما فى وُسْعه ، واستفرغ كل أسبابه وقواه ، فلم تضِنّ أنت عليه بالعون .

كـذلك ربك - عز وجل - يريد منـك أن تؤدى ما عليك ولا تدعـه لشىء قد جعل لك فيه أسبـاباً ؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخلْقه ، فلا ترد يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جـاء قـول الرســل الذين كُـذبوا : ﴿رَبِّ انصُـرْنِي .. (٣٩)﴾ [المؤمنون] ليس وأنا قاعد متـخاذل متهاون ، ولكن ﴿بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)﴾ [المؤمنون] يعنى : فعلت كل مَا فى وُسْعى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة .

فتأتى الإجابة على وجه السرعة :

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾

﴿عَمَّا قَلِيلٍ.. (٤٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد قليل ، فـ (عن) هنا بمعنى بعد ، كمـا جاء فى قوله تعالى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)﴾ [الانشقاق] يعنى : بعد طبق .

أما ﴿مَّا .. (٤٠)﴾ [المؤمنون] هنا فقـد دلَّتْ على الظرف الزمنى ؛ لأن المراد بعد قليل من الزمن .

﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾ [المؤمنون] حـين يقع بهم ما كـانوا به يُكذِّبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يـستطيعوا تدارك ما فـاتهم ، فليس أمـامـهم إذن إلا النـدم ، وهذه المسـألة دلَّتْ على أن الفطرة الإنسـانية حـين لا تختلط عـليهـا الأهواء تنتهى فى ذاتهـا إلى الحق ، وإنْ أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى الجادة حين تهدأ ثورة الغضب .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أدلةً وإشارات حـول هذه القضية فى قصـة ولدى آدم عليه السـلام فيـقول : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ .. (٣٠) ﴾ [المائدة] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب ، والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، وينبغى له أن يُسَرَّ لأنه حقق ما يريد ، لكن ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

أى : بعد أن هدأتْ ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا ؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التى لا يُطغيها ولا يُخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإنْ خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكأن الله تعالى خلق فى الإنسان مقاييس يجب ألاَّ تُفسدها الأهواء ولا يُخرجها الغضب عن حَدِّ الاعتدال ؛ لذلك يقولون : آفة الرأى الهوى .

لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أنْ رأى عاقبة السوء التى وصل إليها بتسرُّعه ، لكن الذكى يستيقظ قبل رَدِّ الفعل .

لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات : ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) ﴾ [المؤمنون] المتتبع لما حاق بالأمم المكذِّبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون فى الصباح ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر]

وقال سبحانه : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) ﴾ [القلم]

ذلك ، لأن الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركى ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة ، على خلاف إنْ جاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون .

وندمهم على أنهم كذَّبوا أمراً ما كان ينبغى أن يُكذَّب وقد جَرَّ

عليهم الوَيْلات ، والندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التى عادةً ما تغلبها الشهوة ويُغريها الحمق بردِّ الحق ، ويمنعها الكِبْر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشر مثلهم ، ويريد فى ظنهم أنْ يستعلى عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا الحمق يندمون ، ولاتَ ساعة مَنْدم .

إذن : فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزى عليه بالشدة يندم أنه لم يُنفذ ولم يطع ، يندم على غطرسته فى موقف كان ينبغى عليه أنْ يتنازل عن كبريائه ؛ لذلك يقولون : من الشجاعة أنْ تجبن ساعة .

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابهته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال : لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضَعْف وجُبْن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راقٍ ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب فهُزِم كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب . وقد رأينا عاقبة الجرأة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ما دام أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ توعّدهم وحدَّد لهم موعداً ،

فلا بُدَّ أن يقع بهم هذا الوعيد فى الوقت ذاته ، وإلاَّ لو مَرَّ دون أن يصيبهم ما يندمون لأجله لانهدم المبدأ من أساسه ، ما دام أن الله تعالى قالها وسجَّلها على نفسه سبحانه فى قرآن يحفظه هو .

﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۝٤٠ ﴾ [المؤمنون] فلا بُدَّ أن ينزل بهم العذاب فى الصباح .

لذلك ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ .. ۝٤١ ﴾ [المؤمنون] لا بالظلم والعدوان ، وفى موضع آخر قال سبحانه عنهم : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾ [الحاقة] والمعنيان يلتقيان ، لأن الريح الصرصر لها صوت مزمجر كأنه الصيحة والصراخ .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً .. ۝٤١ ﴾ [المؤمنون] الغثاء : ما يحمله السيل من قش وأوراق وبقايا النبات ، فتكون طبقة طافية على وجه الماء تذهب بها الريح فى إحدى الجوانب ، والغثاء هو الزَّبَد الذى قال الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. ۝١٧ ﴾ [الرعد]

وفى الحديث الشريف قال ﷺ لأصحابه : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ـ يعنى : يدعو بعضهم بعضاً لمحاربتكم كأنكم غنيمة يريدون اقتسامها ـ فقالوا : أمنْ قلَّة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[1] يعنى : شيئاً هيِّناً لا قيمةَ له يذهب سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤١ ﴾ [المؤمنون] أى : بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذى كُنَّا نُمنِّيهم به ونَعِدهم به لو آمنوا ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٨/٥) ، وأبو داود فى سننه (٤٢٩٧) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

وليس البُعد عن العذاب ؛ لأن البعد مسافة زمنية أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أى : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البُعْد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

والظلم : كما قلنا أخْذ حَقِّ الغير ، والشرك هو الظلم الأعظم ؛ لأنه ظلم فى مسألة القمة ، والبعض من السطحيين يظن أن الشرك ظلم عظيم ؛ لأنك ظلمتَ الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرتَ وجوده وهو موجود ، وأشركتَ معه غيره وهو واحد لا شريك له ، نعم أنت ظلمتَ ، لكن ما ظلمتَ الله ؛ لأنه سبحانه لا يظلمه أحد ، وإنْ كان الظلم - كما نقول - أَخْذ حَقِّ الغير ، فحقُّ الله محفوظ وثابت له سبحانه قبل أن يُوجَد مَنْ يعترف له بهذا الحق ، حقُّ الله ثابت مهما علاَ الباطل وتبجَّح أهل الضلال .

لذلك يقول عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ .. (٤٠) ﴾ [التوبة] وفى المقابل : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] ولم يقُل قياساً على الأولى : وكلمةَ الله العليا ؛ لأن معنى ذلك أن كلمة الله لم تكُنْ عليا فى يوم ما ؛ لذلك جاءت وكلمةُ الله مرفوعةً على صورة الجملة الاسمية الدالّة على الثبوت ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] أى : دائماً ومهما علَت كلمة الكافرين . لماذا ؟

قالوا : لأن علُو كلمة الكافرين فى ذَاته علُوٌّ لكلمة الله ، فإذا علا الكفر واستشرى شرُّه وفساده يعض الناس ويُوقظ غفلتهم ويُنبههم إلى خِسَّة الكفر ودناءته وما جرّه عليهم من ظلم وفساد فينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إذن : فكلمة الله هى العليا مهما كانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكما يقولون : والضد يُظهر حُسْنه الضدّ . والله عز وجل لا يُسْلِم

الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإنْ لم يغاروا عليه غار هو عليه .

وما داموا ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا أنفسهم ، وإنْ عُقل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقَل ظلمك لنفسك ؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المؤمنون] فجاءتْ قرناً بصيغة المفرد ؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن الكلام سيأتى عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت (قروناً) بصيغة الجمع ، قروناً متتابعة أو متعاصرة ، كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

تأملوا هذه الآية جيداً وارْعَوْها انتباهكم ، فلكل أمة أجلٌ تنتهى عنده تماماً ، مثل أجَل الأفراد الذى لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فقرْن بعد قَرْن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهى إلى زوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحمل إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد فى سبيل نشرها إلى أنْ ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسَّك الناس بها ، ثم

تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذاناً بزوالها ثم يخلفها غيرها ؟

كذلك فى مسألة الحضارات التى تندثر ليحلَّ محلَّها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة فى مصر وفى الصين وفى اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية .. الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرُّقِىِّ والرفاهية ، وتُورث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجلَد والقوة ليناً وضعْفاً ، فيغفلوا عن أسباب رُقيِّهم وتقدُّمهم ، فتنهدم حضارتهم ويحلُّ محلَّها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج فى حضارة بلغت أوج عظمتها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر]

وإلى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة وتنال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها ؛ لأن الله تعالى قال فى حقها : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عظَم حضارتهم ، ولم يكُنْ لهذه الحضارة مناعة لتحمى نفسها ، أو تحتفظ لها بشىء ، فانهارت وبادتْ ولم يَبْقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرُّون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم الغفلة ويتسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسولاً جديداً .

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون]

المعنى فى الجملة الأولى واضح ، فأىُّ أمة لا يمكن أنْ تسبق

أجلها الذى حدَّده الله لها ، ولا يمكنْ أن تنتهى أو تقوَّض قبل أنْ يحلَّ هذا الأجل .

لكن ما المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ﴾ [المؤمنون] كيف يتأتَّى ذلك ؟ فهمنا : لا تسبق أجلها يعنى أجلها أن تقوض بعد عشرين سنة ، فلا يمكن أن تُقوَّض قبل خمس عشرة ، أما كونها تستأخر بعد أن بلغتْ العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك ؟

نقول : لا تستأخر يعنى : من حيث الحكم هى لا تسبق الأجل وهى محكوم عليها بأنها لا تستأخر ؛ لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل ، كما لو قلنا : شخص بلغ سنَّ العشرين لا يقدر أن يموت فى العاشرة . فالمعنى : الأصل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾

﴿ تَتْرَا .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : متوالين يتبع بعضهم بعضاً ؛ لذلك ظنَّها البعض فعلاً وهى ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت فى قراءة أخرى(١) (تتراً) بالتنوين والفعل لا يُنوَّن ، إذن : هى اسم ، والألف فيها للتأنيث مثل حُبْلى .

أضفْ إلى ذلك أن التاء الأولى تأتى فى اللغة بدلاً من الواو ، كما جاء فى الحديث الشريف من نصيحة النبى ﷺ : « احفظ الله

---

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء . [تفسير القرطبى ٦/٤٦٥٩] .

يحفظك ، احفظ الله تجدْه تجاهك ـ أو وجاهك »[1] يعنى : مواجهك .

فإذا أُبدلَتْ التاء الأولى فى (تترا) واواً تقول (وترا) يعنى : متتابعين فَرْداً فَرْداً ، والوتر هو الفَرْد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من رسول أُرسل إلى قوم إلا كذَّبوه ، ثم يلجأ إلى ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) ﴾ [المؤمنون]

ولو لم يُكذَّب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعَمَّ الطغيان ، فطبيعى أنْ يُكذَّب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكل قواهم ، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجىء الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : يمضى واحد ويأتى غيره من الرسل ، أو نهلك المكذِّبين ثم يأتى بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] أحاديث : إما جَمْعاً لحديث كما نقول : أحاديث رسول الله ﷺ أو جمع : أحدوثة . وهى المقولة التى يتشدَّق بها الجميع ، وتلوكها كل الألسنة ، ومن ذلك قول الإنسان إذا كثُر كلام الناس حوله : (جعلونى حدوتة) يعنى على سبيل التوبيخ والتقريع لهم .

فقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] كأنه لم يبْقَ منهم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث عبد الله بن عباس .

أثر إلا أنْ نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتاريخ يُحْكَى ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ فَجعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمزَّقٍ .. (١٩) ﴾ [سبأ]

ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقيهم : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : بُعْداً لهم عن رحمة الله ، وبُعْداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ، ولو أنهم آمنوا لنالوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) ﴾

تكررت قصة موسى ـ عليه السلام ـ كثيراً ومعه أخوه هارون ، كما قال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخّصها : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

وجاء له بمعجزات تثبت صدْق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون فى مسألة الإيمان جزءاً من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضاً فى المناقشة التى دارتْ بينهما .

والرسالة الأخرى هى رسالته إلى بنى إسرائيل متمثلة فى التوراة .

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا .. (٤٥) ﴾ [المؤمنون] قلنا : إن الآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذى يكرم ويفتخر به . والآيات إما كونية دالّة على قدرة الله فى الخَلْق كالشمس والقمر .. إلخ كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

ومهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صنع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أنّ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمده وتديره ، فَمَنْ يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائى إذا انقطع تُطْفأ هذه اللمبة ، فمَنْ خلق الشمس من عدم ، وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

إذن : وراء هذا الكون قوة ما هى ؟ وماذا تطلب منا ؟ وهذه مهمة الرسول أنْ يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة .

وتُطلَق الآية أيضاً على المعجزة التى تثبت صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خَلْقه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المؤمنون] فعطف ﴿ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المؤمنون] على ﴿ بِآيَاتِنَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [المؤمنون] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص ؛ لأن الآيات هى السلطان ، فالسلطان : الحجة . والحجة على الوجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صِدْق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة لها .

وسَمَّى معجزة موسى عليه السلام (العصا) سلطاناً مبيناً أى : محيطاً ؛ لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات : فهذه العصا الجافة مرة تنقلب إلى حيّة تلقفُ الحيّات ، ومرة يضرب بها البحر فينفلق ، ومرة يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

ومن معانى السلطان : القَهْر على عمل شىء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشىء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لأتباعه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم رَهْن الإشارة ، إنما أنا لا سلطانَ لى عليكم ، لا سلطانَ قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال فى النهاية : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا فزَّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمَنْ أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعنى : أزال سبب صراخه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾

﴿فِرْعَوْنَ .. (٤٦)﴾ [المؤمنون] لقب لكل مَنْ كان يحكم مصر ، مثل كِسْرى فى الفرس ، وقيصر فى الروم ، وتكلَّمنا عن معنى (الملأ) وهى من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشراف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قَيْد النواظر يعنى : مَنْ ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾ [المؤمنون] والاستكبار غير التعالى ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أنْ يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والعالون هم الملائكة المهيّمون فى الله ، والذين لا يدرون شيئاً عن آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ ﴾

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من الأمم السابقة ، إنهم يريدون الرسول ملكاً ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿ وَمَا منَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ٩٤ ﴾ [الإسراء]

ومن الغباء أن يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون أسْوة للبشر ؟ وكيف سيرونْه ويتلقّون عنه ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩ ﴾ [الأنعام]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذى يجعلك تُصدِّق أنه ملَك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ٤٧ ﴾ [المؤمنون] يعنى : كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما ـ أى : بنى إسرائيل ـ خدم لنا ، يأتمرون بأمرنا ، بل ونُذلّهم ونُذبِّح أولادهم ، ونستحيى نساءهم ، ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمّى ذلك عبادة ، لأن مَنْ يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ ﴾

أى : بالغرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مُثْلة وعِبرةً .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : التوراة ، وفيه منهج الهداية ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : يأخذون الطريق الموصّل للغاية الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ[1] ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن فى حديثه عن عيسى عليه السلام مرة يقول : ابن مريم ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية عيسى عليه السلام بأمه هى التى جعلتْ سيدتنا وسيدة نساء العالمين مريم ساعة تُبشَّر بغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسسنى بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أنْ تتزوّج وتُنجب ، لماذا ؟ لأن الله

---

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٦) : « اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟
- بمصر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ليس الربى إلا بمصر . قال ابن كثير : وهو بعيد جداً .
- دمشق . قاله سعيد بن المسيب . وقال ابن عباس : أنهار دمشق .
- الرملة من فلسطين . قاله أبو هريرة .
- بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة .
قال ابن كثير : « هذا والله أعلم هو الأظهر ؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهذا أوْلَى ما يُفسَّر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار » .

سمَّاه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .

وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها رجل ؛ لأن عِرْض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة ، وأعدَّ مريم لاستقبالها ، وأعطاها المناعة اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن فى التطعيم ضد الأمراض ، وإعطاء المناعة التى تمنع المرض .

فلما دخل زكريا ـ عليه السلام ـ على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأْتِ به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فَهْم تام لقضية الرزق ، ولم يكُنْ كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى هذا الموقف درس لكل أب ولكل ولىّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شىء يراه فى بيته ولم يأْتِ هو به ، حتى لا يدعَ لأولاده فرصة أنْ تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا ـ عليه السلام ـ بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة فى حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجتْ إلى بُؤْرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الولد وقد بلغ من الكِبَر عِتياً ، وامرأته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسَّتْ بالحمل دون أن يمسسْها بشر فاطمأنتْ ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] فأخبر

سبحانه عن المثنى بالمفرد ﴿آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه وُلد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون فى أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآنى هذه المساواة فيُقَدِّم عيسى فى آية : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء] هذه العدالة فى النص لأنهما سواء فى الخبرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هى الأمر العجيب الذى يُثبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخَلْق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخَلْق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب فى خَلْق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإنْ أراد أنْ يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى فى اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدودَ لها .

يقول سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إنْ قُدِّر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التى تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] من الطبيعى بعد أن حملتْ مريم بهذه الطريقة أنْ تُضطهد

من قومهـا وتُطارد ، بل وتستحى هى من الناس وتتحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعالى عن ابنة شعيب : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥)﴾ [القصص] على استحياء ، لأنها ذهبت لاستدعاء فتىً غريب عنها ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لما سئل الإمام محمد عبده وهو فى باريس : بأىِّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حادثة الإفك ؟ فألهمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذى قابلتْ به مريمُ قومَها وقد جاءتْ تحمل ولدها ؛ ذلك لأنهم أرادوا أنْ يأخذوها سُبة ومطعناً فى جبين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مريم حين يرى مسألة حَمْلها ، وهو أغْير الناس عليها بدل أنْ يتشكك فيها ويتهمها يتحوّل قلبه عليها بالعطف ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فإذا به يخدمها ويحنُو عليها ؛ لأن الله أنزل المسألة على قلبه منزل الرضا ، وكل ما قاله فى مجادلة مريم وفى الاستفسار عَمّا حدث بطريقة مهذبة : يا مريمُ أرأيتِ شجرة بدون بذرة ؟ فضحكتْ مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعم الشجرة التى أنبتت أول بذرة[1] إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/١١٦) وفيه أن مريم عليها السلام ردت عليه فقالت : « أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم » فصدّقها وسلم لها حالها .

[المؤمنون] وساعةَ تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوى إليه ، وكذلك كانت مريمُ مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهى مضطهدة من قومها . ولا بُدَّ فى مكان الإيواء هذا أنْ تتوفر فيه مُقوِّمات الحياة ، خاصة لمثل مريم التى تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعدَّ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لمريم مكان الإيواء : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ .. ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون] وهى المكان العالى عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة فى الأرض المستوية والبرودة فى أعلى الجبل .

﴿ذَاتِ قَرَارٍ .. ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : توفرتْ لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمرُّ عليها ماءً معيناً ، يعنى : تراه بعينك ، والطعام يأتيها من ثمار النخلة التى نزلت بجوارها .

ومعلوم أن الربوة هى أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضرُّ بمزروعاتها ؛ لأنها تتصرف فى الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ المثل للأرض الخصبة التى تؤتى المحصول الوافر ، فقال : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة]

إذن : اختار الله تعالى لمريم القرار الذى تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قضية عامة بعد أن تكلَّم عن القرار ومُقوِّمات الحياة ، وهى الطعام والشراب والهواء ،

فناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

لكن ، كيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل جميعاً فى وقت واحد ؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأتِ خاصاً بمحمد ﷺ ، وإنْ نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامى فيما آمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأننى الخالق الذى أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، وإلاّ تعطلتْ عن أداء مهمتها .

فلكى تؤدى الصالح فى حركة حياتك عليك أنْ تبدأ بالمطْعَم الطيب الذى يبنى ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمتْ ذراتُك وتوافقتْ أعانتك على الصالح .

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتُك تنافرتْ وتعاندت ، كما لو وضعتَ للآلة وقوداً غير ما جُعل لها ، فافهموا هذه القضية ؛ لأننى أنا الخالق فآمنُوا لى كما تؤمنونَ بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكمَ قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن

العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك فى سيرة النبى ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبى فى يوم صامه وهو حارٌ شيئاً من اللبن يفطر عليه ، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تَملك شيئاً فأرسل إليها : من أين لك هذا اللبن ؟ فأرسلت إليه : من شاة عندى ، فبعث إليها : ومن أين لك بالشاة ؟ قالت : اشتريتها بمال دبّرته . فشرب رسول الله من اللبن(١) .

وإنْ كنا نحن لا نتحرى فى مَطْعمنا كُلَّ هذا التحرى ، لكن هذا رسول الله الذى يُنفذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه . وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ۝١٧٢ ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»(٢) .

نعم ، كيف يُسْتجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مُشوّش دَنَّسه وخالطه الحرام ؟

وفى حديث سيدنا سعد رضى الله عنه لما قال لرسول الله : يا رسول الله ادْعُ الله لى أنْ أكون مُستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

---

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك فى طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن ؟ قالت : من شاة لى . قال : فرد إليها رسولها : أنى كانت لك هذه الشاة ؟ قالت : اشتريتها من مالى فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله بعثت لك باللبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت الرسول فيه فقال لها : بذلك أمرت الرسل الا تأكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) وقال : « رواه الطبرانى وفيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

« يا سعد أطبْ مطعمك تكُنْ مُستجاب الدعوة »[1] .

ثم يُذيِّلَ الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : أعلم ما يُصلحكم ، وما يجلب لكم الخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) ﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن المعركة بين الإيمان والكفر أراد هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقلّ خطورة عن الأولى ، وهى معركة الفُرْقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذرنا من الخلافات التى تشقُّ عصانا ، وتفُتُّ فى عَضُد الأمة وتُضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنَّا بعدما وصلنا إليه من شَيع وأحزاب ـ ليتفقوا أولاً فيما بينهم ، ثم يُبشِّروا بالإسلام .

الأمة : الجماعة يجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتُطلَق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التى لا تجتمع إلا فى أمة ، لذلك سمَّى الله تعالى نبيه إبراهيم أمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أما قوله سبحانه : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة] فكيف نقول : إنها أمة واحدة ؟

قالوا : لأن الدين يتكوّن من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة ؛ لأنها تأتى بما يناسب حركة الحياة فى كل عصر .

(١) عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا .. (١٦٨) ﴾ [البقرة] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال رسول الله ﷺ : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم » .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فالأمة واحدة يعنى فى عقائدها وإن اختلفتْ فى الشريعة والمنهج ، والأحكام الجزئية التى تتعرض لأقضية الحياة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ .. (٥٠) ﴾ [آل عمران]

وكانوا فى الأمم السابقة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذى وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفَّف عن الناس هذا العَنت ، وشرع لهم أنْ يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾ [المؤمنون] يعنى : اتقوا الله فى هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يُفرِّقها من خلافات حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر ؛ لأنهم يريدون أنْ يَنْهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لأنفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

فالأمور التى أحكمها الله باللفظ الصريح المُحْكَم أصول لا خلافَ عليها ولا اجتهْادَ فيها ، وأما الأمور التى تركها سبحانه للاجتهاد فيجب أن نحترم فيها اجتهاد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى أو اجتهاد .

ومعنى ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ .. (٥٢) ﴾ [المؤمنون] أن من عطاء ربوبيتى أنْ جعلْتُ لكم أموراً محكمة وعقائد ثابتة ؛ لأن الاختلاف فيها يفسد

المجتمع ، وتركتُ لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كُلٌّ حسب اجتهاده ؛ لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد فى المجتمع ، وسبق أن مثّلنا لهذه الأمور .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾ [المؤمنون] يعنى : بطاعة الأمر ، فما أحكمتُه فأحْكِموه ، وما جعلتُ لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين .

لكن ، هل سمعنا قوْل الله وأطعْنَا ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾

﴿ زُبُراً .. (٥٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى : قطعاً متفرقة ، ومنه ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ .. (٩٦) ﴾ [الكهف]

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى : كل جماعة تتعصب لرأيها وتفرح به ، وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويُصوِّرون لهم أنهم أتوْا بما لم يأت به أحد قبلهم ، وتنبّهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .

﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ .. (٥٣) ﴾ [المؤمنون] بالرأى الذى يريدونه ، لا بالحكم الذى يرتضيه الحق سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم : إن الصلاة فى مسجد به قبر أو ضريح باطلة ، وأن ذلك شرك فى العبادة .. إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر فى المدينة .

إن على هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات أنْ يتفهموا الأمور

على وجهها الصحيح ، حتى لا نكون من الذين قال الله عنهم :
﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلاّ فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشَّرَتْ بمحمد ﷺ ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صلة بالسماء - يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون : لقد أطلَّ زمان نبى يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[(١)] .

ومع ذلك : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الزمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله ﷺ ، وقد كان أحدهم[(٢)] يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أنْ دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد ؟

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ .. (٥٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : دَعْهم ، والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١١) ﴾ [المزمل]

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول . رأس المنافقين فى المدينة ، أبو الحباب من خزاعة ، وسلول جدته لأبيه ، كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم ، وكلما سمع بسيئة نشرها . توفى عام ٩ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/ ٦٥]

وفى قوله تعالى : ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ..(٤٤)﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم ، وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والغمرة : جملة الماء التى تغطى قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ، فلا يبقى له من أمل فى الحياة إلا بمقدار ما فى رئته من الهواء ؛ لذلك يحرص الإنسان على أنْ يُمرِّن نفسه على أن تتسع رئته لأكبر قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المنافسة ، وأصلها أن يغطس اثنان تحت الماء ليختبر كل منهما الآخر : أيّهما يبقى فترة أطول تحت الماء ودون تنفس .

ويقول تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين] وتستطيع أن تُجرى مع نفسك هذه المنافسة ، بأن تأخذ نفساً عميقاً ثم تعد : واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما فى رئتك من الهواء .

فالمعنى : ذَرْهم فى غبائهم وغفلتهم فلن يطول بهم الوقت ؛ لأنهم كمن غمره الماء ، وسرعان ما تنكتم أنفاسه ويفارق الحياة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)﴾ [المؤمنون] والحين مدة من الزمن قد تطول ، كما فى قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.. (٢٥)﴾ [إبراهيم]

وقد تقصر كما فى قوله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم] وكأن الله تعالى عَبّر بالغمرة ليدل على أن حينهم لن يطول .

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يروْنَ الكافرين بالله مُرفَّهين مُنعّمين ، في يدهم المال والنفوذ ، في حين أن المؤمنين فقراء ، وربما تشكّك البعض واهتزَّ إيمانه لهذه المتناقضات .

ونقول لهؤلاء : لم تكن هذه صورة المؤمنين في الماضي ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافاتهم وازدهرتْ حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فلما تخلَّوْا عن دينهم وقيَمهم حَلَّ بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون ؛ لأنهم أخذوا بأسباب الدنيا ، وينبغي علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب ؛ لأنها من عطاء الربوبية الذي لا يُحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فَمَنْ أحسنه نال ثمرته وأخذ خيره .

قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ ﴾ [الشورى]

والأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فَمَنْ ردَّ يد الله إليه فلا بُدَّ أن يشْقَى في رحلة الحياة .

وقد يكون تنعُّم هؤلاء مجرد ترف يجرُّهم إلى الطغيان ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ ﴾ [الأنعام]

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعالج هنا هذه المسألة :

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون] أيظنون أن هذا خير لهم ؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا .. ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿بَل لاَّ يَشْعُرُونَ.. ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون] (بل) : تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات ما بعدها ، إضراب عن مسألة تنعُّم هؤلاء ؛ لأنها نعمة موقوتة وزائلة ، وهى فى الحقيقة عليهم نقمة ، لكنهم لا يشعرون ، لا يشعرون أن هذه النعمة لا تعنى محبتهم ورضانا عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذى يُدبَّر لهم .

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه أولاً ، ويُوسِّع عليه ويُعلى مكانته ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه مؤلماً وشديداً .

وقوله تعالى : ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ..﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون] المسارعة ترد فى كتاب الله على معَانٍ : مرة يتعدَّى الفعل بإلى ، مثل : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] ومرة يتعدى بفى ، مثل : ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ..﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] فما الفرق بين المعنيين ؟

سارع إلى كذا : إذا كنتَ خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خُطَىً عاجلة ، لكن إنْ كنتَ فى الخير أصلاً وتريد أنْ ترتقى فيه تقول : سارع فى الخيرات . فالأولى يخاطب بها مَنْ لم يدخل فى حيِّز الخير ، والأخرى لمنْ كان مظروفاً فى الخير ، ويريد الارتقاء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

الخشية : هى أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شىء ، لكن يبقى عنده أمل فى النجاة ، ويتوقّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منفذَ للأمل فيه ، ولا تهبُّ فيه هَبّة تُشعرك بلطف .

ومعنى ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المؤمنون] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُمدَح ولا يُذم ؛ لأنه خوف يحمل صاحبه ويحثّه على تجنُّب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذى يستوجب العقوبة ، كالتلميذ الذى يذاكر ويجتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا الخوف المثمر الممدوح الذى يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أمّا الإشفاق بعد فوات الأوان ، والذى حكاه القرآن عن المجرمين : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] فهذا إشفاق لا فائدة منه ؛ لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشِرت الكتب ولا أملَ فى النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم فى النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك ؟

نقول : لأن الشرك المراد هنا الشرك الخفى الذى يقع فيه حتى المؤمن ، والذى قال الله فيه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف] فلا تظن أن الشرك فقط أن تجعل لله شريكاً ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشرك شرك خفى دقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمناً .

لذلك ، فالنبى ﷺ يُعلِّمنا الأدب فى هذه المسألة ، فيقول فى دعائه : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالإنسان يشرع فى العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شىء من الرياء وتزيين الشيطان ؛ لذلك وصف النبى ﷺ الشرك الخفى بأنه أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[2] .

كما أن الشرك الأكبر لا يتصور ممَّن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمتَ » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤٠٣/٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]

﴿ يُؤْتُونَ . ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى المال ، وقال بعدها : ﴿ مَا آتَوا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿ مَا آتَوا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] هكذا مُبْهمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضُّل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

والمحسن : الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك تجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١٥٩ ، ٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٩٨) ، واللفظ للترمذى .

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَلِّ العشاء ونَمْ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى بعدها : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ ﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإبهام فى ﴿ مَا .. ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون] جاء أيضاً فى قول الله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ ﴾ [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذى غشيهم ، وترك المسألة مبهمة ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون فى هَوْلها كل مذهب .

لكن ؛ ما داموا قد أعْطوا ومدُّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتحرَّوْن الإخلاص وأسباب القبول ويتصدّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقتْ يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكأن ربك عز وجل يَغَارُ عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ؛ لأنك إنْ رأيت الناس فى شىء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْد مُهْدر لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفى الحديث القدسى : « الإخلاص سِرٌّ من أسرارى أودعته

قلب مَنْ أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده »[١] .

والوجل : انفعال قسرى واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شىء يخيفك أنت ، أما الخشية فهى أعلى من الخوف ، وهى أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] جاءت فى الرجل الذى يسرق ، والذى يزنى ، والذى يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجِلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى . وقالوا : إن عائشة رضى الله عنها فهمت هذا من الآية[٢] .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] أى : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُؤتٍ ومُؤْتىً له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُون .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم .. الخ فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ ألاَّ يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

---

(١) ذكره الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٣٧٦) قال العراقى فى تخريجه : « رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلاً يقول كل واحد من رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف » .

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥ .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] فالمؤمن يؤدى ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وَجِلاً ؛ لأنه يثق فى الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذى يُجازيه على قَدْر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إنْ خالط عملَه شىءٌ من الرياء ؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً فى العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شىء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال فى ظاهرها أنها من الدين ، لكن فى طيها شىء من الرياء ، وإنْ لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك .. الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل فى طياتها معانى الشرك التى ينبغى أن نُنزِّه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفَاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. ﴿٣٩﴾﴾ [النور] إذن : ما دُمْنَا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شىء غير الحق ، فليكُنْ عملنا للحق ، ولا شىء لغير الحق .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أُوْلَٰئِكَ .. ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون] وفرْق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرع يعنى : بذاته ، إنما سارع يسارع أى : يرى غيره

يسرع ، فيحاول أنْ يتفوق عليه ، ففيه مبالغة وحافز على المنافسة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع فى ، فمعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون] أنهم كانوا فى حيِّز الخيرات ومظروفين فيه ، لكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون] هل المسارعة هى علَّة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أنْ سَبْقهم إلى الخيرات علّة المسارعة ؟

فى اللغة يقولون : سبب ومُسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومعلول . فحين تقول : إنْ تذاكر تنجح ، فالمذاكرة سبب فى النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرةُ النجاح ؟ لا ، بل وُجد النجاح أولاً فى بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون منزلتك فى المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخاطر ، ثم أردت أنْ تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف .

إذن : فكل شرط وجواب : الجواب سبب فى الشرط ، والشرط سبب فى الجواب ، الجواب سبب فى الشرط دافعاً له ، والشرط سبب فى الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالنجاح وُجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك فى ﴿أُوْلَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون] فالمعنى : القصد أنْ يسبق فسارع ، سارع فى الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبْق قبل المسارعة ؛ لأن الذهن متهيىء له أولاً وحقائقه واضحة .

إذن : الشرط والجزاء ، والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول تدور بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : هم أهل لهذا العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبتُ منك شيئاً فتقول لى : هذا شىء صعب فأقول لك : وأنت لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بيَّن أنها على قَدْر الوُسْع والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلَّفك إلا بعد علْمه بقدرتك ، وأنك تسع هذا التكليف ، فإياك أنْ تنظر إلى الحكم فتقول : أنا أسعه أو لا أسعه ، لكن انظر إلى التكليف : ما دام ربك قد كلَّفك فاعلم أنه فى وُسْعك ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخفِّف عنك التكليف دون أنْ تطلب أنت ذلك . والأمثلة على تخفيف التكاليف واضحة فى الصلاة والصوم والحج .. إلخ .

والآن نسمع مَنْ يقول : لم تَعُد الطاقة فى هذا العصر تسع هذه التكاليف ، فالزمن تغيّر ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك من هذه الأقوال التى يريد أصحابها التنصّل من شرع الله . ونقول : ما دام التكليف باقياً فالوُسْع بَاقٍ ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بوُسْع خَلْقه وطاقاتهم .

إذن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْع من التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] المراد هنا كتاب أعمالنا[1] الذى سجّل فيه كل شىء قدّمته الأيدى ، لكن : ما الحكمة من تسجيل الأعمال ؟ وهل يُكذِّب العباد ربهم عز وجل فيما سُجِّل عليهم ؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ؛ لذلك سيقول له ربه : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ .. (١٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها : ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] لأن الظلم لا يُتصوّر من الحق - سبحانه وتعالى - فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير فى الخير زيادة عمَّا عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة ، والحق سبحانه هو المعطى ، وهو الغنى الذى لا حاجةَ له إلى أحد ، فلماذا يظلم ؟

كذلك قد يظلم الضعيف ليأخذ ما فى يد غيره ليسدَّ حاجته أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤٦٦٧/٦) أقوالاً أخرى فى المراد بالكتاب فى الآية فقال : « وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شىء ، فهم لا يجوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ .. (٦٢) ﴾ [المؤمنون] القرآن ، فالله أعلم ، وكل محتمل ، والأول أظهر » يقصد أنه كتاب إحصاء أعمال العباد ، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله تعالى .

﴿بَلْ .. (٦٣)﴾ [المؤمنون] حرف يدل على الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات الحكم للكلام بعدها . والغَمْرة كما قلنا : هى جملة الماء الذى يعلو قامة الإنسان حتى يمنع عنه التنفس ويحرمه الهواء ، وهو أول مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

فالإنسان يصبر على الطعام شهراً ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة ، إنما لا يصبر على النَّفَس إلا بمقدار ما يحتويه الصدر من الهواء ، فإنْ كان كانت رئتك سليمة تتسع لأكبر كمية من الهواء ، وتستطيع أنْ تتحمل عدم التنفس لفترة أطول ، أما إن كانت الرئة مُعتلّة ، فإنها لا تتسع لكمية كبيرة ، وسرعان ما ينتهى الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المنافسة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين] ثم استُعملَتْ لكل عمل تُنافس فيه غيرك ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة .

لذلك الخالق - عز وجل - حينما خلق هذه البِنْية الإنسانية جعل لها نظاماً فريداً فى وقودها وغذائها على خلاف صَنْعة البشر ، فلو منعتَ البنزين مثلاً عن السيارة توقفتْ ، أمّا صنعة الخالق - عز وجل - فالجسم يأخذ حاجته من الطعام والماء ، ثم يختزن الباقى لوقت الحاجة ، وقد علم الحق سبحانه شهوتك وحبك للطعام وللشراب ، وأخْذك منهما فوق حاجتك ، فإنْ غاب عنك الطعام تغذَّى جسمك من هذا المخزن الربانى .

لذلك نرى البعض حين يتأخر عنه الطعام يقول : نفسى انسدت عن الأكل ، والحقيقة أنه أكل فعلاً ، وتغذى من مخزون الطعام والشراب فى جسمه .

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُختزن فى صورة واحدة هى الشحم ، الذى يتحول تلقائياً إلى أىِّ عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذَّى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، وهى آخر مخزن للقوت فى جسم الإنسان ؛ لذلك جاء فى قصة زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم]

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدْر ما تتسع له الرئة ، فإذا نفد منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألاّ يُملِّك الهواء لأحد ، فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أمّا الهواء الذى يحتاجه فى كل نفَس ، فقد جعله الله ملْكاً للجميع ، حتى لا يمنعه أحد عن أحد ؛ لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام وللشراب ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمتّ قبل أنْ يرضى عنك .

ونلحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوى القلوب : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ .. (٦٣) ﴾ [المؤمنون] وهذه بلوى أعظم ؛ لأن القلب محلٌّ لحصيلة المدركات التى يأخذها العقل ، ويُميِّز بينها ويختار منها ويُرجّح ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر فى القلب وعلى هَدْيها تسير فى حركة الحياة .

لذلك إنْ كان القلب نفسه فى الغمرة فالمصيبة أشدّ والبلاء أعظم ؛ لأنه مُسْتودع العقائد والمبادىء التى تُنير لك الطريق .

والقلب هو محلُّ نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا .. (١٧٩) ﴾ [الأعراف]

وقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٧) ﴾ [البقرة] لأنهم أحبوا

الكفر واطمأنوا إليه ، ولأنه سبحانه ربٌّ متولٍّ ربوبية الخلق ، يعطيهم ما أرادوا حتى إنْ كان كفراً ؛ لذلك ختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبّوه .

لذلك نقول لأهل المصائب الذين يُصابون فى غالٍ أو عزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة المآتم والسرادقات ، ويقيمون ذكرى الخميس والأربعين وغيرها ، وربما كان الابن عاقاً لوالديه فى حياتهما ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام المآتم وشغل الناس ، وهو كما قال الشاعر :

لاَ أعْرِفنَّك بعْد الموتِ تَنْدبنى   وفِى حَيَاتى مَا بلَّغْتَنى زَادًا

أو الأم التى فقدت وحيدها مثلاً ، فتعيش حزينة مُكدّرة ، وكأنها عشقتْ الحزن وأحبّته ، نحذر هؤلاء وننصح كل حزين أن يُغلق باب الحزن بمسامير الرضا والتسليم ، فالحزن إنْ رأى بابه مُوارباً دخل وظَلّ معك ولازمك .

وسبق أن وضحنا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءً عن عبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة فى هذه المسألة بأبينا إبراهيم - عليه السلام - حين ابتلاه ربه بذبح ولده فى رؤيا رآها ، واعتبرها هو تكليفاً ، ورضى بقدر الله وسلّم لأمره ، ثم أخبر ولده ووحيده بهذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذه على غرّة ، فيتغير قلبه عليه :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات]

(١) تله : ألقاه على وجهه على الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

فبعد أن رضى إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ، وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأنْ بشّره بولد آخر هو إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءتْ فضلاً من الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ؛ وما أحسن ما قال الشاعر[1] فى هذا الموقف :

سَلِّمْ لربك حُكْمه فَلحكْمة يَقْضيه حتّى تستريح وتَغْنَما
واذكُرْ خليلَ الله فِى ذَبْح ابنه إذْ قَالَ خالقُه فلمّا أسْلَما

إذن : إذا كانت القلوب نفسها فى غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد والمبادئ ، وينشأ عن خرابه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك . وقد أخذ القلب هذه الأهمية ؛ لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ، فإنْ فسدَ لا بُدَّ أنْ ينضح على باقى الجوارح ، فتفسد هى الأخرى ، ولو كان القلب صالحاً فلا بُدّ أنْ ينضحَ صلاحه على الجوارح كلها فتصلح ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا قمم المخالفات ونماذج منها ، إنما فى علمه تعالى وفى لوحه المحفوظ أنهم سيفعلون كذا ويفعلون كذا ، وإنْ كانوا هم أنفسهم لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم - عز وجل - يعلم بطلاقة القدرة ما كان وما سيكون .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده الكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم عليَّ بكذا ، ولكنى لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح ؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما فى اختيار العبد ومراده ، مع أن العبد حُرٌّ فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة فى قوله تعالى عن أبى لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد] فقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا .. ۝٣ ﴾ [المسد] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون فى النار ، وكان أبو لهب فى أمة ومَجْمع من القوم الكافرين ، ومنهم مَنْ آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً ؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المغفل) أن يقف على ملأ ويقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل فى الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح ؟ لكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يُردّ ولا يخالفه أحد مهما كان أمره فى يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله فى فِعْله وعلى خَلْقه فى أفعالهم .

فالمعنى : ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۝٦٣ ﴾ [المؤمنون] حكم لا يُرد ولا يُكذَّب ، حتى وإنْ أخبر به صاحبه ؛ لأن علم الله تعالى مستوعبٌ لما كان ولما سيكون ، وكأن الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما فيما يفعله غيرى مِمَّنْ أعطيتُه حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يعنى : بعد أن أشركوا بالله وكفروا به ، وبعد أنْ أصبحتْ قلوبهم فى غمرة وعمىً إذا مسَّهم شىء من العذاب يجأرون ويصرخون ، ومَنْ ذا الذى يطيق لفحة أو رائحة من عذاب الله ؟

ومعنى ﴿ أَخَذْنَا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] كلمة الأخذ لها مجال واسع فى كتاب الله ، والأَخْذ : هو الاستيلاء بعنف على شىء هو لا يحبّ أنْ تستولى عليه ، والأخْذ يُوحى بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] يعنى : أخذاً شديداً يتململ منه فلا يستطيع الفكاك .

وقوله : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود]

ويقول : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

ومعنى : ﴿ مُتْرَفِيهِم .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون] من الترف وهو التنعُّم ؛ لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقى الحياة وكماليات تُسعدها وتُرفِّهها وتُثريها ، فالمتْرَف مَنْ عنده من النعيم فوق الضروريات ، يقال : ترِف الرجل يترَف من باب فَرِح يفرح ، وأترفته النعمة إذا أطغته ، وأترفه الله يعنى : وسّع عليه النعمة وزاده منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغَ والألم أشدَّ .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام] يعنى : من منهج الله ، لم نُضيِّق عليهم إنما : ﴿ فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴿٤٥﴾ [الأنعام]

فهنا تكون النكاية أشدّ ، والحسرة أعظم .

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف أخذهم الله وهم فى ترف من العيش ، حيث تصبُّ عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة الترف والتنعم ؟

أخذهم الله حال ترفهم بالقَحْط والسنين ؛ لذلك لما رآهم النبى ﷺ أترفوا بالنعمة وطغَوْا بها قال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[(١)]

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجدب والقَحْط حتى أكلوا الجيف و (العِلْهز)[(٢)] وهو شعر الذبيحة أو وبرها المخلوط بدمها بعد أنْ جَفَّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

يصرخون ويضجّون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف والفضلات يقول للنبى ﷺ : يا محمد ألستَ رحمةً للعالمين ؟ إذن :

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) العِلْهز : دم يابس يُدَق به أوبار الإبل فى المجاعات ويُؤْكَل . قال ابن شميل :

وإن قِرَى قحطان قِرْف وعِلْهز فأقبح بهذا ويح نفسك من فعل

[لسان العرب ـ مادة : علهز] .

فادْعُ الله أنْ يُفرِّج عنا ، فدعا رسول الله ﷺ ربه حتى فرج عنهم[1] .

أو : يراد بالعذاب هنا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلَّهم الله ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعذِّبون المؤمنين ويقتلونهم ، ويقيمونهم فى حَرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم ، حتى أنزل الله تعالى فى هذه الحالة القاسية التى يعانيها المؤمنون : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فيستقبلون الآية بتعجُّب : حتى يقول عمر : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، فليس هناك أىّ بادرة لنصر المؤمنين ، فلما جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه : صدق الله ، سيُهزم الجمع وقد هُزم .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) ﴾ [المؤمنون] يجأر : يصرخ بصوت عال ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان فى محنة لا تقدر أسبابه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمِع كل مَنْ حوله ، كما يقولون (يجعر) .

والجؤار مثل الخوار يعنى : يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطغاة ، فلماذا لم تظلّوا سادة ؟ لماذا تصرخون الآن ؟ وكان المنتظر منهم فى وقت الشدة أنْ يتماسكوا ، وأن يتجلّدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والفقراء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر :[2]

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعنى الوبر والدم ـ فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٥١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) الشاعر هو : أبو ذؤيب ، خويلد بن خالد الهذلى (توفى ٢٧ هـ) .

وتجلُّدِى للشَّامتينَ أُريهُمُو   أَنِّى لريْبِ الدهْرِ لا أتضعْضَعُ[1]

لكن ، هيهات فقد حاق بهم العذاب ، ولن يخدعوا أنفسهم الآن ، فليس أمامهم إلا الصراخ يطلبون به المغيث والمنجى من المهالك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يرد عليهم الحق سبحانه : ﴿ **لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ..** ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن مَنْ يجأر ينادى مَنْ ينصره وأنتم لن تُنصروا ﴿ **إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [المؤمنون] لا تُنصرون من جهتنا ؛ لأننى أنصر أوليائى ، وأنصر رسلى ، وأنصر مَنْ ينصرنى ، فاقطعوا الظن فى نصرى لكم ؛ لأننى أنا الذى أنزلتُ بكم ما جعلكم تجأرون بسببه ، فكيف أزيله عنكم ؟

وفى موضع آخر يتكلم الحق سبحانه عن أهل الكفر الذين تمالئوا عليه ، وشجّع بعضهم بعضاً على التجرّؤ على القرآن وعلى النبى ﷺ ، ويُصفّقون لمن يخوض فى حقهما : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ**[2] **وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** ﴿٢٢﴾ **من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ** ﴿٢٣﴾ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ﴿٢٤﴾ **مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ** ﴿٢٥﴾ **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) التضعضع : الخضوع والتذلل . وفى الحديث : ما تضعضع امرؤ لآخر يريد به عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه يعنى : خضع وذل . والتجلُّد : إظهار الجلد وهو التصبر والشدة . [لسان العرب ـ مادتا : ضعع ، جلد] .

(٢) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وقال عمر بن الخطاب : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٤] .

إذن : لا تجأروا لأنكم لن تُنصروا منّا ، وكيف ننصركم بجؤاركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتى ؟

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

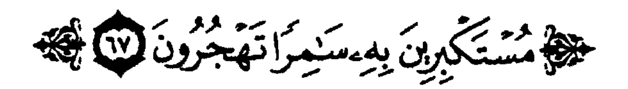
كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تُلْقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صدْق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله فى الآيات حاملة الأحكَام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشى إلى الأمام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدى إلى موضع قدميْه ، إذا به يمشى للخلف على عَقبه ، وكأنهم أُخذوا أَخْذاً غَيَّر عندهم دولاب السير ، لماذا ؟ لأنهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون فى متاهات الحياة على غير هدى ، كمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميْه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه فى قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يميناً أو شمالاً ؛ لأنه لا يرى .

فالمعنى : لا تَلُمْ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أنْ جاءتك وأصبحت بين يديك أغمضتَ عنها عينيك .

وفى موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال]



مادة : كبر تأتى بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كَبِر فلان . يعنى : كان صغيراً ثم كِبر ، وبضم الباء للشىء المعنوى وللقيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ⑤ ﴾ [الكهف] يعنى : عظمت .

ومعنى الاستكبار افتعال الكبر وطلبه ، مثل : استفهم يعنى : طلب الفَهْم ، فى حين هو ليس كبيراً فى ذاته ، فهو محتاج إلى غيره . فالكبير فى ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له فى ذاته مُقوِّمات الحياة وضرورياتها وترفها ، لا يستمدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من غيره ، فلا يصح له أنْ يتكبّر ، فمَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشىء ذاتى فيه من صحة أو مال أو سلطان ... الخ ، وهذه كلها أمور موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغنى قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده ؛ لأنه الواهب للغير ، والمتفضِّل على الخَلْق بما يمكن أنْ يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله سبحانه (المتكبر) ؛ لأنه سبحانه رب الخَلْق أجمعين ، ومن مصلحة الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على خَلْقه ويتكبّر عليهم .

وهكذا يحمى الحق سبحانه خَلْقه من خَلْقه ، فإنْ تكبّر عليك ربك ، وأجرى عليك قدراً ؛ لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه يتكبّر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون ، إنْ فعلوا بك هذا الشىء ، إذن : فصفة الكبرياء لله عز وجل فى صالحك .

ومثَّلْنَا لذلك ، ولله المثل الأعلى : من مصلحة الأسرة ألاّ يكون لها إلا كبير واحد يُرجَع إليه ، ومن أقوال العامة (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لأنه الميزان الذى تستقيم به الأمور ويُسيِّر دفّة الحياة .

وقلنا : إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا ؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول : هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا قوىٌّ وذاك أقوَى ، ولا يقال هذا فى صفته تعالى لأنك لو قُلْت : الله أكبر لكان المعنى أنك شركت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال : الله أكبر إلا فى النداء للصلاة .

إذن : المستكبر : الذى يطلب مؤهلات كبْر وليس لذاتيته شىء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغى له أن يتكبر إلا إذا ملك ذاتيات كبره ، والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك .

ومعنى ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون] الهاء فى (به) ضمير مُبْهم ، يُعرَّف بمرجعه ، كما تقول : جاءنى رجل فأكرمته ، فالذى أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفى الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذى أُرسل إليهم ، والقرآن الذى أُنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن : لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير فى (به) يعود إلى بيت الله الحرام ، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وَضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسيرون فى رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد ، فى وقت انتشر فيه بين القبائل السَّلْب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذى يحجُّه العرب كل عام ، وخدمته وسدانته فى أيدى قريش ؛ لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون] السامر : الجماعة يسمُرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حول بيت الله ليلاً يتحدثون فى حق النبى ﷺ ، يشتمونه ويخوضون فى حقه ، وفى حق القرآن الذى نزل عليه[1] .

وليتهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهُجر ، والهُجْر هو فُحْش الكلام فى محمد ﷺ وفى القرآن .

فأمر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم فى رحاب بيت الله الذى جعل لهم السيادة والمنزلة ؟ كيف يخوضون فى رسول الله الذى جاء ليطهر هذا البيت من الأصنام ورجسها ؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصدق فيه قول الشاعر :

أُعلِّمهُ الرمايةَ كُلَّ يومٍ فلمّا اشْتَدَّ ساعِدُه رَمَانِى
وكَمْ علَّمتُه نَظْمَ القَوافِى فلَمَّا قَالَ قَافيةً هَجَانِى

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حُرْمته ، وجعلوه مكاناً للسَّمَر وللهُجْر وللسَّفَه وللطيْش ، ولكل مَا لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون .. وهكذا .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُنبِّهكم إلى أن ضروريات حياتكم هِبةٌ منه سبحانه وتفضُّل ، فحينما جاءكم أبرهة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردِّه ولا قدرةَ على حماية البيت ، فلو هدمه لضاعتْ هيبتكم

(١) قاله عبد الله بن عباس وغيره ، فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٤٦٧١/٦) .

وسيادتكم بين القبائل ، ولتجرأوا عليكم كما تجرأوا على غيركم ، لكن حمى الله بيته ، ودافع عن حرساته ، حتى إن الفيل نفسه وعى هذا الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه فى أى ناحية أخرى فيسير .

ويُرْوَى أن أحدهم[1] قال للفيل يخاطبه : ابْرك محمود وارجع راشداً ـ يعنى : انفد بجلدك ؛ لأنك فى بلد الله الحرام ، وكما قال الشاعر[2] :

حُبِسَ الفيلُ بالمغَمَّس حَتَّى ... صَارَ يحبُو كَأنَّهُ مَعْقُورُ[3]

وهكذا ردَّهم الله مقهورين مدحورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى لكم السيادة .

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] يعنى : مثل التبن والفُتَات الذى تذروه الرياح .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان بمكة . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة) « ١/ ١٢٥ » قال محققه : الخبر فى سيرة ابن هشام (١/ ٥٩) يستطعمان « الناس » . ونقله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/ ١٧٤) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة .

(٣) المغمس : موضع قريب من مكة . والمعقور : المنحور ، أى كأنهم قطعوا إحدى قوائمه ثم نحروه ، وهو للإبل . [انظر : لسان العرب ـ مادة : عقر]

ثم يقول فى أول قريش : ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] يعنى ما حلَّ بأصحاب الفيل ، فاللام فى (لإيلاف) لام التعليل ، يعنى : حلَّ ما حلَّ بأصحاب الفيل لتألف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف ﴿ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ ﴾[قريش] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمى لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغى عليكم أنْ تعبدوه وحده لا شريك له ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨ ﴾

فى هذه الآية والآيات بعدها يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُوبِّخهم بعدة أمور واحد بعد الآخر .

أولها : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. ۝٦٨ ﴾ [المؤمنون] فالاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذى جاءهم فى القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلَّقوه على الجدار ؟

لذلك لا يُعقل ألاَّ تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بُدَّ أنكم فهمتموه ووعيتْم ما فيه ، بدليل قولكم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقه عما فى ضميره ،

فاعتراضكم ليس على القرآن إنما على محمد ؛ لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة ـ إذن ـ منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم يَدْرِ هؤلاء أن محمداً ﷺ ما جاء ليسلبهم سلطتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة فى سبيل راحتهم وسعادتهم ؟

لقد جاء النبى ﷺ ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريفاً ، بدليل أنه عاش فى مستوى أقلّ منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شراباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرَّم عليهم الزكاة التى أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] يبدو أنكم ألِفْتم العبودية للعظماء وللجبابرة ، ألفتم العبودية لغير الله ، وعَزَّ عليكم أن يحرركم الله من هذه العبودية على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ، ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقُلْ أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[1] .

إذن : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٦٨)﴾ [المؤمنون] توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً ﷺ أن ينزل عليه ، وأن ينال دونهم هذه

---

(١) هذا القول قاله الوليد بن المغيرة ، نقله ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً فى أمر محمد ﷺ ، رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

المكانة ، كما قال سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤)﴾ [النساء]

الأمر الثاني : ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [المؤمنون] يعنى : جاءهم أمر غريب لا عهدَ لهم به ، وهو أن يأتى رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بهما ، إذن : ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم فى الأولى منعهم فى هذه ، إنه الحسد لرسول الله ﷺ ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

الأمر الثالث : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩)﴾

يعنى : أَنزَلَ عليهم رسولٌ من السماء لا يعرفون سيرته وخُلُقه ونسبه ومسلكه قبل أنْ يُبعث ؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سَمَّوْه « الصادق الأمين » وارتضَوْا حكومته بينهم فى مسألة الحجر الأسود ، وكانوا يأتمنونه على ودائعهم ونفائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أو خيانة أو سَقْطة من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة فى قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم : سلوكه وسيرته وخُلُقه ، وإذا لم تُجرِّبوا عليه الكذب مع الخَلْق ، أتتصورون منه أنْ يكذب على الخالق ؟

وهل رسول الله فى أول بعثته لَمَّا أخبر الناس أنه رسول الله جاء

القرآن ليحمل الناس على الإيمان به ؟ لا ، إنما جاء ليتحدى مَنْ لم يؤمن ، أما مَنْ آمن بداية ، بمجرد أنْ قال محمد : أنا رسول الله قال : صدقت ، وحيثية التصديق ما جُرِّبَ عليه فى الماضى ، وما عُلِم من صدقه ، وأنه لم يكذب أبداً ؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإنْ قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشكّ أحد منهم فى صِدْقه .

لذلك النبى ﷺ لما قال أبو بكر فى مسألة الإسراء والمعراج : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، يحملها رسول الله تقديراً لأبى بكر ويقول : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسَىْ رهان » يعنى : فى الخُلُق الطيب والسلوك السَّوىّ « فسبقتُه للنبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى هو لاتبعتُه » .

ولما نزل جبريل - عليه السلام - على سيدنا رسول الله ﷺ فى أول الوحى فأجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة - رضى الله عنها - وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عَمَّا حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذى كان ينزل على موسى وليتنى أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال ﷺ : « أوَمُخرِجِىّ هم ؟ » قال : « ما جاء أحد بمثل

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٩٨/١) باختصار « أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر فأنكروا عليه ذلك وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

مَا جئت به إلا عُودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً »[١] .

ومع ذلك يظل رسول الله ﷺ خائفاً قلقاً أن يكون هذا شيئاً من الشيطان ، فتُطمئنه السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله ، لذلك تقول له : « إنك لتصلُ الرحم ، وتُكسب المعدوم ، وتحمل الكَلَّ[٢] ، وتعين على نوائب[٣] الدهر ، والله لن يَخذلك الله أبداً »[٤] .

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة فى الإسلام ؛ لأنها اجتهدتْ واستنبطتْ من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلاً على صدْقه بعد البعثة ؛ لذلك كانت أول مَنْ سُمِّيت بأم المؤمنين ، حتى قالَ بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ ؛ لأنه فى هذه السِّن كان فى حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس صغيرة تُدلِّله ، وقد قامت خديجة - رضى الله عنها - فعلاً بدور الأم لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره فى أشدِّ الأوقات وأحرجها .

كما نلحظ فى الآية : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [المؤمنون] فأضاف الرسول إليهم يعنى : رسول لهم ، أما فى الإضافة إلى الله تعالى : رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى باختلاف الإضافة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) الكل : هو مَنْ لا يستقل بأمره قال تعالى : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل] والكل هو العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٣) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب - مادة : نوب] .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والمسألة الرابعة فى توبيخ الله لهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : جنون ، والجنون أنْ تتعطل الآلة العقلية التى تزن الحركات على وفق النفع والضر ، فتفعل الخير النافع ، وتترك الشر الضارّ . ولننظر : أىّ خصلة من خصال الجنون فى محمد ﷺ .

ودَعْكَ من قضية الدين والإله إنما خُذْ خُلقه ، والخُلق أمر يتفق عليه الجميع ويحمدونه ، حتى وإنْ كانوا ضد صفته ، فالكذاب يحب الصادق ، ويعترف أن الصدق شرف وكرامة ، والبخيل يحب الكريم ، والغضوب يحب الحليم ، ألاَ ترى الكاذب يزاول كذبه على الناس ، لكن لا يحب مَنْ يكذب عليه ؟

ألاَ ترى شاهد الزور ينقذ غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحتقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور ترتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، ومَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره .

إذن : فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشىء ، وما دام لا يُتَّهم فى خُلقه فلا يُتهم كذلك فى عقله ؛ لأن العقل هو ميزان الخُلق وأساسه .

لذلك يقول ربه - عز وجل - فى حقِّه :

﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ

لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] فخلُقك العظيم أكبر دليل على أنك لستَ مجنوناً .

إذن : محمد برىء من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فهذا عيبه فى نظرهم ؛ لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق فى الخير الذى يأتيه ، فإنْ كان فى شىء لا ينتفع منه فهو شرٌّ ؛ لذلك إنْ أردتَ أنْ تحكم على خَصْلة فاحكم عليها وهى عليك ، لا وهى لك ، فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخُذْ المسائل على أنها لك وعليك .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما قيّد حركتك فى النظر إلى محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقُلْ : منعنى متعة النظر .. الخ ، لكن انظر إلى أنه قيّد عينيك وأنت واحد ، وقيَّد عيون الآخرين عن محارمك وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] وطبيعى أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطغيانهم ، يكرهون الحق الذى جاء ليعدل الميزان ، ويُقوِّم المعْوج فى حركة الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغى أن تكون معيار تصديق له لا تكذيب به ، ينبغى أن نقول : طالما أن أهل الباطل يكرهون هذا فلا بُدَّ أنه على الحق وإلاّ ما كرهوه .

---

(١) غير ممنون ، أى : غير مقطوع أى دائم . ويحتمل انه غير مُكدَّر بالمنِّ والتقريع والفخر به ، ولا يتعارض المعنيان . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٠] .

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

إذن : فالمسائل لا تسير على هَوَى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق ؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون ، وكلُّ صانع يغَارُ على صَنْعته ، وهذا مُشاهد حتى فى صنعة البشر ، ولك أنْ تتصوّر ماذا يحدث لو أفسدتَ على صانعٍ ما صنعه .

وعدالة الأشياء أن تسير على وَفْق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع ؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار ، فالإنسان لو سار فى حركة حياته على وَفْق هواه لأخذ مَا ليس له ، ولَقبل الرشوة ، ومال إلى الفسْق والانحراف ؛ لأنه فى الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر إلى العاقبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوتة ، ونسى تبعة ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون] ولك أن تقول : نعم ، اتباع الأهواء يُفسد الأرض ، ويُفسد حركة الحياة فيها ، لكن كيف يُفسد السماء ؟ وهل لأحد قدرة عليها ؟

ونقول : ألم يكُنْ من أمنيات هؤلاء : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء]

إذن : من أهوائهم أنْ تتهدّم السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ، وأىّ فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعتَ أهواءهم لفسدَتْ السموات والأرض ، ليس هذا وفقط بل ﴿ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون] حيث سيتعدّى فسادهم ليشمل كل ما فى الوجود .

لذلك يقيد النبى ﷺ هذه الأهواء فى قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] لأنه ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]

وقد توقف بعض المستشرقين مُعترضاً على هذه الآية : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [النجم] يقولون : يعنى كلامه كله صحيح ، فلماذا يُعدِّل له ربه بعض الأحكام ؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدّل حين نطق به كان ينطق عن هوى .

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوَى أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله ﷺ لم يكُنْ يعرف فى هذه المسائل حُكْماً وانصرف عنه ، إنما نطق وحكم على مقتضى ما فهم فى أمر لم ينزل فيه من الله شيء ، ثم نزل الحكم من الله ليُعدِّل اجتهاد رسوله .

إذن : لم يكُنْ لرسول الله هَوَىً ينطق بمقتضاه ، وفى تعديل الحق سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على صدْقه ﷺ وأمانته فى البلاغ عن ربه ، وإلاَّ فلم يكُنْ أحد ليعلم هذا التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصّباً لنفسه ، أو لدفْع الخطأ عنه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ① ﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ④③ ﴾ [التوبة]

وكان بوسع رسول الله أن يكتم هذه الآيات التى تعاتبه وتُعَدُّ مأخذاً عليه ، لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، لذلك يقول عنه ربه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ④④ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ④⑤ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] ④⑥ ﴾ [الحاقة]

ثم يقول تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ⑦① ﴾ [المؤمنون] و (بل) تفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات كلام جديد بعدها ، والذكْر هنا يعنى : الشرف والصِّيت والمكانة العالية ، كما جاء فى قوله تعالى عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ④④ ﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ①⓪ ﴾ [الأنبياء] فكان يجب عليهم أن يحتضنوا هذا القرآن ، ويرفعوه فوق رؤوسهم ، ففيه مجدهم وشرفهم وعِزَّتهم ، والعرب بدون القرآن لا ذكْرَ لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع الماء ومواضع الكلأ ، كانوا بَدْواً تنتشر فيما بينهم الحروب والغارات وقَطْع الطريق ، كان الواحد منهم يسرق ليُكرم ضيفه بما سرق .

وهذه من الأمور العجيبة فى عادات العرب فى الجاهلية ، فلم يكن

---

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا قطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، والمعنى : أى أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أنْ ترى حب الغارة والاعتداء مع الشهامة والكرم فى طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعنُّ له ، وما يخطر بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تمدحَنَّ ابْنَ عبَّادٍ[١] وإنْ هطلَتْ كَفَّاهُ بالجُود حتَّى أشبَه الدِّيمَا[٢]
فَإنَّها خطرَاتٌ مِن وَسَاوِسِهِ يُعْطى ويمنَع لاَ بُخْلاً ولاَ كرَمَا

ومن أشهر قصائد الشعر العربى فى الكرم هذه القصيدة التى تأصَّل فيها هذا الخُلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يهمُّ بذبح ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لقِرَاه[٣] .

ويقول فيها الشاعر :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البطن مُرْمِلٍ ببيداءَ لم يَعْرف بها ساكنٌ رَسْما[٤]
أَخِي جَفْوةٍ فيه من الأُنْسِ وَحْشَةٌ يرى البُؤْس فِيهَا مِنْ شراسته نُعْمى
رَأَى شبحاً وَسْط الظّلام فَرَاعَه فلما رأى ضَيْفاً تشمَّر واهْتما[٥]
وقَالَ هَيَّا ربَّاه ضَيْفٌ ولا قِرَى !! بحقِّك لاَ تحرمْه تالليلةَ اللّحْمَا

(١) هو : إسماعيل بن عباد أبو القاسم الطالقانى ، وزير غلب عليه الأدب ، استوزره مؤيد الدولة ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه ، ولد فى الطالقان (من أعمال قزوين) (عام ٣٢٦هـ) وإليها نسبته ، توفى بالرى (طهران) عام (٣٨٥ هـ) ونقل إلى أصبهان فدفن فيها . [الأعلام للزركلى ١/٣١٦] .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . وهو المطر الدائم . ويقال : دامت السماء تديم : مطرت ديمة . [لسان العرب ـ مادة : ديم] .

(٣) القِرَى : طعام الأضياف .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسْم : الأثر .

(٥) راعه : أخافه وأفزعه .

وأفـرد فـى شِعْب عَجُـوزاً إزاءَهَا ثَلاثَــةِ أَشْـباحٍ تَخَالهـموا بُهْـمَا

حُفَاةً عُراةً مَا اغتذَواْ خُبْــزَ ملَّــة ولاَ عَرَفُوا للبُرِّ مُذْ خُلقـوا طعْمًا[١]

فَقَــالَ ابنُــه لَــمَّا رآهُ بحــيْرة أيَا أبْت اذْبحْـنى ويـسِّر لَهُم طُعْما

ولاَ تَعتذرْ بالعُدْم علـى الذى طَرَا يظـنُّ لَنَــا مَــالاً فيُـوسـعُنا ذمّـا

فـروَّى قليـلاً ثُـمَّ أحجــمَ بُرْهـةً وَإنْ هُـوَ لـم يذبـح فَتَاهُ فَقَـد همَّا

فبيْنَا هُمَا عَنَّـتْ على البُـعْد عَـانَـةٌ قَـد انتظـمتْ من خَلْف مسْحلها نَظْما[٢]

عطَاشَاً تريد الماءَ فانْسَابَ نحوهَا علَـى أنَّـه منْـها إلـىَ دَمـها أظْـما

فَأمهلَـها حـتَّى تـروَّتْ عِطاشُـها وأرسَــل فيــها من كنَانته سَـهْما

فَخرَّت نَحُوصٌ ذَات جحش قَــدْ اكتنزَتْ لَحْماً وقـد طُبِّقَتْ شـحْما[٣]

فَيَا بشْـرَهُ إذْ جرَّهَـا نَحْـو قومه ويَا بشْـرهُم لما رأوا كلْمها يَدْمَى[٤]

وباتَ أبُوهـم مـن بَشَـاشـته أباً لَضَيْفِهمـوا والأم مـنْ بشْـرها أُمَّـا

لقد تأصلتْ خَصْلَة الكرم فى العربى ، حتى فى الأطفال الصغار ، فهو وإنْ كان فقيـراً لكن لا يحب أن يُعرف عنه الفقر ، يحب أن يظهر فى صـورة الغنى الكـريم المـعطاء ، وإنْ ناقض ذلك صـفـات أخـرى ذميمة فيه .

والشاهد أنهم جماعة تناقـضتْ خصالهم ، وقـد عاشوا فى أمـية تامة فـلم يعالجـوا حضارة ، وهـذه حُسِبت لـهم بعد ظهـور الإسلام

---

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .

(٢) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .

(٣) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .

(٤) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

وبعثة النبى ﷺ من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أنْ يأتوا بهذه المعانى والأساليب العالية التى تحكم العالم كله ؟ ولو كانوا أهلَ علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه قفزة حضارية .

ولو كان رسول الله ﷺ قارئاً لقالوا : قرأ لفلان وفلان ، كما حكي عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فذكْر العرب وشرفهم ومجدهم وكرامتهم فى القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما أعرضوا عنه ﴿ فَهُم عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

أى : عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(الخَرْج) : ما يخرج منك طواعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رغماً عنك ، والزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فالخراج أبلغ من الخَرْج . والمراد بقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَير .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [المؤمنون] إنْ كنتَ تريد خَرْجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خُذْه من ربك ، فما عندهم ليس خَرْجاً بل خراج ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيرٌ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

فلا تأخذ الرزق إلا من يد الخير والبركة ؛ لأن الحق سبحانه لا

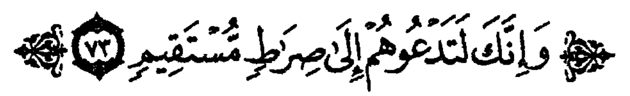
يمنُّ على خَلْقه برزق يرزقهم به ، فهو سبحانه قد استدعاهم إلى الحياة ؛ لذلك تكفّل سبحانه بأرزاقهم ، كما لو دعوتَ صديقاً إلى طعام فإنك تُعِدُّ له ما يكفى عشرة ، فما بالك حينما يُعِدُّ لك ربك عز وجل ؟

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾ [المؤمنون] وهذه أحدثتْ إشكالاً عند البعض ؛ لأن الحق سبحانه جعل لخَلْقه شراكة فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خير الرازقين ؛ لأنه يرزق الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنتَ ترزق غيرك مثلاً طعاماً فهو سبحانه أصل هذا الطعام ومصدره .

هو سبحانه خالق التربة ، وخالق الماء ، وخالق الهواء ، وخالق البذرة ، وما عليك إلا أنْ أعملتَ عقلك ، واستخدمتَ الطاقات التى منحك الله إياها ، فأخرجتَ هذا الطعام ، فلو أنك جئْتَ لأهلك بحاجيات المطبخ ولوازم المعيشة طوال الشهر من دقيق وسمن وأرز وسكر .. إلخ وقامت زوجتُك بإعداد الطعام أتقول : إن الزوجة هى التى جاءت بالطعام ؟

لذلك يقول العلماء وأهل المعرفة : نَزِّهوا ألسنتكم عن قول : فلان رازق ، ودَعُوها لقول الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو خالق الرزق ، وواجد أصوله ، وما أنت إلا مُنَاول للغير .

وتلحظ أنه تعالى أضاف الخَراج إلى الربوبية التى تفيد الرعاية والعناية والتربية ، فما دام الخراجُ خراجَ ربك يا محمد ، فهو خراج كثير وعطاء لا ينفد .



الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذى لا عوجَ فيه ولا أمتاً[1] ، فكيف إذن يتأبون عليك ويقفون فى طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم ؟ وإن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أوضحناه منْ أنه يجب عليك أن تنظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أنْ تنظر إلى ما أخذه منك ، فالشرع حين يأخذ منك وأنت غنى يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إنْ تركتَهم وهم صغار .

فالشرع - إذن - يُؤمِّن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا ؛ لأنك فى مجتمع إيمانى لن يتخلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إنْ تيتَّموا ، فالمجتمع الإيمانى إنْ مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء . أما إنْ ضاع اليتيم فى مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويُغرى ضعاف الإيمان أنْ يقولوا : ما الحكمة فى أن يأخذ أباهم ويتركهم عالة لا يتكفل بهم أحد ؟

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ الصِّرَاطِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون] هو الطريق المستقيم الذى يُؤدِّى إلى الغاية بأقلّ مجهود ، وفى أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية . والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصِّل إليها ،

---

(١) الأمت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه] أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواءً ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض أى أنها مستوية تماماً راسياً وأفقياً . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

فالطريق من القاهرة إلى الإسكندرية غير الطريق بين القرى والنُّجوع .

ومعنى : ﴿ لَنَاكِبُونَ ۝٧٤ ﴾ [المؤمنون] يعنى : منحرفون عن الطريق ، ولهم حَظٌّ فى الاعوجاج وعدم الاستقامة ؛ لذلك يقول لك مَنْ يريد الصدق (تعال دوغرى) يعنى : من الطريق المستقيم الذى لا اعوجاجَ فيه ولا مراوغةَ .

لكن ، ما الذى جعلهم يتنكّبون الطريق المستقيم الذى يُنظِّم لهم حركة الحياة ، ويجعلها تتساند لا تتعاند ، ويعود مجهود الفرد على الباقين ؟ لماذا يحرمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق ؟

قالوا : لأنهم مكذبون بالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله ؛ لأنهم سيئولون إلى الله أيلولةً ، تعطى المحسن جزاءه وتعطى المسىء جزاءه . فالذى أفسد هؤلاء أنهم اتبعوا أهواءهم ، وظنوا أن الدنيا هى الغاية وهى نهاية المطاف ، وغفلوا عن الآخرة ، وأنها دار النعيم الحقيقى الذى لا يفوتُك ولا تفوته .

كما قال عنها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٦٤ ﴾ [العنكبوت] يعنى : الحياة الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ ﴾

يعنى : لو حدث هذا لعادوا إلى ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ۝١٢ ﴾ [يونس]

ولَيْتَه اكتفى عند هذا الحدِّ ، إنما يتعدَّى هذا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. (٨) ﴾ [الزمر] يقول كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص] يعنى : هذا بمجهودى وتعبى ، وقد كلمت فلاناً ، وفعلت كذا وكذا .

لذلك كان طبيعياً أن يقول له ربه : ما دُمْتَ قد أوتيتَهُ على علم عندك ، فاحفظه بعلم عندك قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

فأين الآن علْمك ؟ وأىُّ علم هذا الذى لا يستطيع أن يحتفظ بما أتى به ؟ ومعلوم أن استنباط الشىء أصعب من حفْظه وصيانته .

ومعنى ﴿ لَّلَجُّوا .. (٧٥) ﴾ [المؤمنون] تمادوا ﴿ فِى طُغْيَانِهِمْ .. (٧٥) ﴾ [المؤمنون] والطغيان : مجاوزة الحدِّ ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شىء فى الوجود حَدّاً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإن اتبعتَ هذا الحدّ الذى رسمه الله لك استقمتَ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع ، ولو طغى الشىء أفسد حركة الحياة ، حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شىء حىٍّ ، لو طغى يُغرق ويُدمّر بعد أنْ كان سر الحياة حال اعتداله . ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ[1] (١١) ﴾ [الحاقة]

ويقال لمن جاوز الحدَّ : طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فإنْ تجاوز هذه أيضاً نقول : طاغوت .

ثم تأتى نتيجة التمادى فى الطغيان ﴿ يَعْمَهُونَ (٧٥) ﴾ [المؤمنون] يعنى : يتحيرون ويَعْمَوْن عن الرُّشْد والصواب ، فلا يُميّزون بين خير وشر .

---

(١) الجارية : السفينة . جرت السفينة جرياً : سارت [لسان العرب ـ مادة : جرا] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

استكان فلان لا تقال إلا لمَنْ كان مُتحركاً حركةً شريرة ، ثم هدأ وسكن ، نقول : فلان (انكَنّ) أو استكان وأصلها (كوْن) فالمعنى : طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذى كان عليه ، أو حالاً غير الحال الذى كان عليه أولاً ، فقبل أنْ يستكين ويخضع كان لا بُدَّ مُتمرِّداً على ربه .

والوجود نوعان : وجود أولى مطلق ، ووجود ثَان بعد الوجود الأولى ، كما نقول مثلاً : وُلد زيد يعنى وُجد زيد وجوداً أولياً ، إنما على أيِّ هيئة وُجد ؟ جميلاً ، قبيحاً .. هذه تحتاج إلى وجود آخر ، تقول : كان زيدٌ هكذا فعل وفاعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الأول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثانى وهو الاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن الوجود الأول .

فكان الأولى هى كان التامة التى وردتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .. ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : وُجِد ذو عُسْرة ،

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وخلَّى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلْهز . قيل : وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر ، فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، فنزل قوله ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المؤمنون] أورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧٧) والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٩) .

ولا تحتاج فى هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمنّى فلان على الله أنْ يُوجَد له ولد ، فكان محمد ، يعنى : وُجِد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر ؛ لأن (كان) فعْل يدل على زمان الماضى ، والفعل لا بُدَّ أنْ يدل على زمن وحدث ؛ لذلك لا بُدَّ لها من الخبر الذى يعطى الحدث تقول : كان زيد مجتهداً ، فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكأنك قلتَ : زيد مجتهد .

ومعنى ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ .. (٧٦)﴾ [المؤمنون] أن خضوعهم واستكانتهم لم تكُنْ لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخْذ أوامره بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا فى حال الرحمة وكَشْف الضر ، ولا فى حال الأَخْذ والعذاب ، وكان عليهم أن يعلموا أن الله غيَّر حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يُغيِّروا هم أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾ [المؤمنون] الضراعة : هى الدعاء والذلّة والخضوع لمن أخذ بيدك فى شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣)﴾ [الأنعام] يعنى : لجئوا إلى الله وتوجَّهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾

لقد فشلتْ معهم كل المحاولات ، فما أجدَتْ معهم الرحمة واستمروا على غَلْوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن أخذهم الله به ، إذن : لم يَبْقَ لهم حجة ولا أملٌ فى النجاة ، ففتح الله

عليهم ﴿ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧) ﴾ [المؤمنون] يعنى : أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مُغلَق تفاجئهم ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾ [المؤمنون] آيسون من النجاة مُتحسِّرون على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يقول : خلقتُ عبادى من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلتُ لهم منهجاً ينظم حركة حياتهم ويصُون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعته ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرف غايتها التى خلقها من أجلها ، فالذى صنع الثلاجة مثلاً هل صنعها أولاً ثم قال لنا : انظروا فى أىٍّ شىء تفيدكم هذه الآلة ؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدّد مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، ولله المثل الأعلى .

والذى خلق وحَدَّد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذى يحمى صنعته من الفساد، ويجعلها تؤدى مهمتها على أكمل وجه ، فإنْ خالفت قانون الصيانة الذى وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعطّل عن أداء مهمتك التى خلقت لها ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

لذلك أمركم إن اختلفتم فى شىء أنْ تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة : إذا رأيتَ خللاً فى الكون أو فساداً

فى ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عـورة من العورات قد ظهرتْ فاعلم أنْ حُكْماً لله قد عُطِّل .

فمثـلاً إنْ رأيتَ فقيراً جـائعاً عارياً فإما أنه قـادر على العمل لكنه قعـد عن السعى وخالف قـوله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⑮﴾ [الملك] أو : أن القادرين العاملين حـرموه حقَّه الذى جعله الله له فى أمـوالهم ، وخالفوا قـوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲﴾ [الذاريات]

لذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالـى ـ يُجرى على عباده من المقادير ما يحفظ لهم توازن الحـياة ويسدُّ حاجة المـحتاجين ، كمـا نرى مثلاً أحـد الأثرياء يتـرك بلده ، وينتـقل إلى بلد آخـر يضع فـيهـا أمـواله وثرواته ، وليس هناك سبب لهذه النقلة إلا أنهـا خاطر سلَّطه الله عليه ليحـفظ به توزيع المال فى المجـتمع ، ولو حسـبتهـا لوجدتَ أن هذا المكان زادت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد آخر قلَّت فيه الأموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يتركك ربك ، بل عـرض لك الآيات التى تلفتك إليه ، وتُحنِّنك إلى التعرُّف عليه ، وهى إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة الله تعالى ، أو معـجزات تثبت صدْق الأنبـياء فى البلاغ عن الله ؛ لأن الله تعـالى لا يخاطب عـبـاده كل واحد بمـفـرده ، إنما يرسل رسـولاً ليُبلِّغهم ثم يُؤيِّده بالمعجزة الدالة على صدْقه فى البلاغ .

فحـين تنظر فى آيات الكون وتستـدل بها على وجود خـالق قادر لكنك لا تعرف مَنْ هو هذا الخالق يأتى الرسـول ليقول لك : إنه الله ، وقد ضـربنا لذلك مـثلاً ـ ولله المـثل الأعلى : هَبْ أن أحداً دَقَّ البـاب ونحن جلوس بالداخل فـما الذى يحـدث ؟ نتفق نحن جـميعـاً على أن

طارقاً بالباب . لكن مَنْ هو ؟ لا أحد يعلم .

فالاتفاق هنا فى التعقُّل ، وأن هناك قوةً خلف الباب تدقّه ، لكن مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أنْ تقول بالظن : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن ننتظر البلاغ منه لنعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أنْ تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تأتى الآيات التى تحمل منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا .

الشاهد : أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لنراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها ونتأملها ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

السمع والبصر من الحواس التى سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أى : أن هناك حواسَّ أخرى لم يكتشفوها ، وفعلاً اكتشفها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التى تميز بها الثقل ، وحاسة البين التى تميز بها الغليظ من الرقيق فى الثياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرّف عليها بالحواسِّ الخمس المعروفة .

وعُمْدة الحواس : السمع والبصر ؛ لأنه إذا جاءنى رسول يُبلِّغنى عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإنْ كنتَ مؤمناً بإله فقد اكتفيتَ بحاسة السمع ، وإنْ كنتَ غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصَّنْعة على الصانع ، وبالخلْقة على الخالق ، وتقف على ما فى كوْن الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسموعات والمرئيات إلى قضايا ومبادىء عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيتَ النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكوَّنت لديك قضية عقلية مُؤدّاها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى فى الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشطة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته وألمه .

فإذا رآه بعد ذلك يقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكوَّنَتْ لديه نتيجة تجربة استقرتْ فى فؤاده ، وأخذها مبدأً يسير عليه فى كل حياته ، وهكذا من المحسَّات ومن تجارب الحياة تتكوَّن لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد .

إذن : من وسائل الإدراك تتكوَّن المبادىء والقضايا التى يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهى إلى قضية ومبدأ يستقر فى القلب ونُسمِّيها عقيدة يعنى : شىء معقود عليه لا ينحلّ .

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس تجده يُرتِّبها دائماً هذا الترتيب : السمع والبصر والفؤاد لأنها عُمْدة الحواس ، فالشمُّ مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لنرى آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد مما يدلُّ على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتى واحد منها قبل الآخر ، كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صدْق هذا الترتيب ، فأوّل أداة تؤدى مهمتها فى الإنسان هى الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر

توجد القضايا التى يعمل فيها العقل .

إذن : فهذا ترتيب خَلْقى وتكويني . كما أن السمع وهو أول حاسّة تؤدى مهمتها فى الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذى يصاحب الإنسان فى كل أطواره ، فالأذن تسمع مثلاً حتى فى حالة النوم على خلاف العين ؛ ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء ، لذلك تظل تؤدى مهمتها حتى فى حال النوم .

كما أن العين لا ترى فى الظلام ولها غطاء طبيعى ومغاليق تحجب الرؤية ، وليست الأذن كذلك ، فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الآذان ، أما المرئىّ فقد يوجد معك فى نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك ، إذن : فالمسموع واحد والمرائى متعددة ، لذلك قال سبحانه :

﴿السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون]

فليس لك خيار فى السمع ، لكن لك خيار فى الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدُّد الأبصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدُّد الأسماع .

لذلك من إعجازات البيان القرآنى فى قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم فى الكهفليناموا ولا تزعجهم الأصوات فى هذه الصحراء الدويّة ، ولو بقى لهم السمع كشأن الخَلْق جميعاً لما استقر لهم قَرَار طوال هذه الفترة الطويلة ، ولأفزعتهم الأصوات .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]

كذلك من آيات الإعجاز فى القرآن الكريم أن جميع الآيات التى ذكرتْ السمع والبصر ذكرتْه بهذا الترتيب : السمع والأبصار ، إلا فى آية واحدة فى موقف القيامة قالوا : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ..﴿١٢﴾﴾ [السجدة]

فقدَّم البصر على السمع ؛ لأن فى القيامة تفجؤهم المرائى أولاً قبل أنْ تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى المعجز .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا عُذْر لك عندى فقد أعطيتُك سمعاً لتسمع البلاغ عنى من الرسول ، وأعطيتُك عَيْناً لتلتفت إلى آيات الكون ، وأعطيتُك فؤاداً تفكر به ، وتنتهى إلى حصيلة إيمانية تدلُّك على وجود الخالق عز وجل .

إذن : ما أخذتُك على غِرَّة ، ولا خدعتُك فى شىء ، إنما خلقتُك من عدم ، وأمددتُك من عُدم ، ورتبتُ لك منافذ الإدراك ترتيباً منطقياً تكوينياً ، فأىُّ عذر لك بعد ذلك .. وإياكم بعد هذا كله أنْ تشغلكم الأهواء ، وتصْرفكم عن البلاغ الذى جاءكم على لسان رسولنا .

والمتأمل فى تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات ومعجزات للخالق - عز وجل - ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدُّم العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [المؤمنون] لأن هذه نِعَم وآلاء وآيات لله ، كان ينبغى أن تشكر حَقَّ الشكر .

البعض يقول فى معنى ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [المؤمنون] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشُّكْر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك - عز وجل - يريد شكراً دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فساعة ترى الأعمى الذى

حُرِم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله ، تقولها هكذا بالفطرة ؛ لأنك تعيش وتتقلب فى نعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرِم منها .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تدوم لك النعمة فاعقلها بذكْر الله المنعم قُلْ عند النعمة ، أو عند رؤية ما يعجبك فى أهل أو مال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ألاَ ترى أن الله تعالى جعل الحسد لينبهنا : إنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعمَ ؛ لأنه وحده القادر على حفْظها وصيانتها ، كما نشترى الآن آلة ، ونتفق مع صانعها على صيانتها صيانةً دورية مقابل أجر معين .

كذلك إنْ قُلْتَ عند النعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فلن ترى فيها سوءً أبداً ، لأنك أيقظتَ بـ « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » قانونَ صيانتها ، وجعلتَ حفظها إلى مَنْ صنعها . ولا يُصاب الإنسان فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعِم وترك الشُّكْر عليها .

وأذكر أنه كان فى قريتنا رجل من أهل الفهم عن الله ، وكان يملك ثلث فدان يزرعه المزروعات التقليدية ، وفى أحد الأعوام زرعه قطناً ، فجاءت عليه الدودة وكادت تهلكه ، فكلَّمه والدى فى مسألة الدودة هذه فقال له : يا عم متولى لا تقلق فأنا أؤدى صيانتها يعنى : أُخرِج منها الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ ذَرَأَكُمْ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون] بثكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء

القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العَنَت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله فى بلادهم ، رأيناهم فى اليمن بعد أن أغرقها سيل العرم ، وكانت تُسمَّى « اليمن السعيد » ورأيناهم فى السعودية وفى الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله - سبحانه وتعالى - هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ؛ لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرِم منه المنعّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق - عز وجل - نشر خيراته فى كل أنحاء الأرض بالتساوى ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى ، وفى يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خَيْرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات - إذن - مطمورة فى أنحاء الأرض ، لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن : فبَثُّ الخليقة ونشْرُها فى أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) ﴾ [المؤمنون] يعنى : لا تفهموا أنكم بنشركم فى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فعْلان لا بُدَّ أن ينشآ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق - عز وجل - يُوجِد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجرى حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقتْ الموت فى كل الآيات ، إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] وعلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادةً تُنشئ الحركة فى كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذى تفعله إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدرى أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أى شىء .

إذن : بمجرد إرادتك تنفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا فى حقِّه - سبحانه وتعالى - ونكذب أنه يقول للشىء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشىء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشىء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدَّم الحق سبحانه الموتَ فى هذه الآية : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] ؛ لأن الحياة ستُورث الإنسانَ غروراً فى سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه - عز وجل - أن يُنبهه : تذكّر أننى أميتُ ؛ ليستقبل الحياة ومعها نقيضها ، فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفات لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يميت شيئاً ؛ لأنها صفات ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، ولله المثل الأعلى : الشاعر حين يقول قصيدة قالها لأنه شاعر ولا نقول : إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل : إذا أطلقتَ رصاصة على شخص أردتَهُ قتيلاً فقد خلقتَ الموت . نقول : الحمد لله أنك لم تدَّع الإحياء واكتفيتَ بالموت ، لكن فَرْق بين الموت والقتل ، القتل نَقْض للبِنْية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً دون نَقْض للبنية .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والنمرود الذى حَاجَّ إبراهيم - عليه السلام - فى ربه أمر بقتل واحد وتَرْك الآخر ، وادَّعى أنه أحيا هذا ، وأمات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حَقٍّ لأمرَ بإحياء هذا الذى قتله ؛ لذلك قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه .

إذن : هَدْم البِنْية يتبعه خروج الروح ؛ لأن للروح مواصفات

خاصة ، بحيث لا تحل إلا فى بِنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بلمبة الكهرباء ، فقوة الكهرباء كامنة فى الأسلاك لا نرى نورها إلا إذا وضعنا اللمبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضىء إلا إذا توفرتْ لها هذه الصفات ، فإنْ كُسِرَت ينطفىء نورها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] الليل يحل بغياب الشمس وحلول الظُّلْمة التى تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئى ، ثم جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقرر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئىّ على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشىء إنْ كان فى الظلام .

وظُلْمة الليل تنبهنا إلى أهمية الضوء الذى لا بُدَّ منه لنهتدى إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إنْ سار فى الظلام ؛ لأنه إمَّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو بأقوى منه فيؤلمه ويؤذيه .

إذن : لا بُدَّ من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسَّعْى فى مناكب الأرض ، وكذلك لا بُدَّ من الظُّلْمة التى تمنع الإشعاع عن الجسم ، فيستريح من عناء العمل ، وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدى كل منهما وظيفته فى الكون ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [الليل] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل ؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التى خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء

الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد فى حركة الحياة ، فالتلميذ ينام فى الدرس ، والعامل ينام ويُقصِّر فى أداء عمله .

والنبى ﷺ يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله : « ... أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يهدأ إلا فى الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾ [النبأ]

ومن دقَّة الأداء القرآنى أن يراعى هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضى طَبيعة أعمالهم السَّهَر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخابز وغيرهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً ؛ لذلك عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيغلقوا النوافذ وينامو فى مكان هادئ ؛ ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن : الليل والنهار ليسا ضدّيْن ، إنما هما خلْقان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكر والأنثى ، يُكمل كل منهما الآخر ، لا كما يدَّعى البعض أنهما ضدان متقابلان ؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلَّى ، قال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة فى حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظُّلْمة والطول والقصَر وفى اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) من حديث جابر ابن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

فحين يكون عندك لَيْل فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر]

وينتج عن هذا تعدُّد المشارق والمغارب بتعدُّد الأماكن بحيث كل مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مَشْرق ، لدرجة أنهم قالوا : ينشأ ليل ونهار فى كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذِكْر الله على مدى الوقت كله ، بحيث لا ينتهى الأذان ، ولا تنتهى الصلاة فى الكون لحظة واحدة ، فأنت تصلى المغرب ، وغيرك يصلى العشاء .. وهكذا . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون مذكوراً فى كل الكون بجميع أوقات الصلاة فى كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن وفيك كل الزمن . يعنى : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ، لكن عند غيرى .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالحج مثلاً ، وربط العبادات كلها بالزمن الهجرى ، فالصيف والشتاء يدوران فى الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجرى والميلادى ، وبذلك مَنْ لم يناسبه الحج فى الصيف حَجَّ فى الشتاء ؛ لأن اختلاف التوقيت القمرى يُلون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور فى العام كله ؛ لأن السابع والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثانى ، ومرة يوافق الثالث ، وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خلْفة ، كما قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

فنحن نرى الليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، لكن احكم القضية فى كل أطوار زمنها ، فما دام الحق - سبحانه وتعالى - جعل الليل والنهار خلْفة ، فلا بُدَّ أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وُجِد الليل أولاً ثم وُجِد النهار ، فلا يكون الليل خلْفة ؛ لأنه لم يسبقه شىء ، فهذا يعنى أنهما خُلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث يجتمع فيها الليل والنهار فى وقت واحد ، فالذى واجه الشمس كان نهاراً ، والذى واجه الظلمة كان ليلاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾ [المؤمنون] لأن هذه المسائل كان يجب أن تعقلوها خاصة ، وقد كانت اختلافات الأوقات مَبْنية على التعقل ، أما الآن فهى مَبْنية على النقل ، حيث تقاربت المسافات ، وصِرْنا نعرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس فى الماضى ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى بعد أن التقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرينا من ينكر ذلك . ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق قرآنُنا إلى هذا القول ؟ ولماذا نعطى الآخرين فكرة أن ديننا يغفل هذه المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات ؟

ولو تأملتَ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد] لوجدت فيه الدليل القاطع على صدْق هذه النظرية ؛ لأن الأرض الممدودة هى التى لا تنتهى إلى حافة ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت

الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى الموضع الذى منه بدأت ، ولو كانت الأرض على أى شكل آخر غير الكروى مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا فى الماضى الآلات التى تُوضِّح هذه الحقيقة وتُظهرها .

إذن : الحق سبحانه فى قوله : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ [المؤمنون] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول فى المسائل الكونية ؛ لأنها ستوفر علينا الكثير فى الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمل الإنسان عقله ويتفنّن مثلاً فى ارتكاب الجرائم فَيُرتب لها ويُخطط ؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيُوقعه فى مَزْلَق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصِّل إليه ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة القاضى أو المحقق الذى يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لقد استخدمتَ عقلك فيما لا ينبغى ، وسخَّرْته لشهوات نفسك ، فلا بُدَّ أن أوقعك فى مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإنْ سترتها عليك مرة فإياك أنْ تتمادى ، أو تظنّ أنك أفلتَّ بعقلك وترتيبك وإلاَّ أخذتُك ولو بجريمة لم تفعلها ؛ لأنك لا تستطيع أن تُرتِّب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو فُضح إنسان بأمر هو منه برىء ، ولحقه الأذى والضرر بسبب هذه الإدانة الكاذبة ، فتأتى عدالة السماء فيستر الله عليه فضيحة فعلها جزاءً لما قد أصابه فى الأولى ، وهذه مسألة لا يفعلها إلا رب .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يُنبِّه العقل ويثيره : تفكّر ، تدبّر ، تعقّل ، ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه

سبحانه واثق من صَنْعته وإبداعه لكونه ؛ لذلك يثير العقول للبحث وللتأمل فى هذه الصنعة .

وهذه المسألة نلاحظها فيمَنْ يعرض صَنْعته من البشر ، فالذى يتقن صَنْعته يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصنعة الرديئة التى يلفّها لك صانعها ، ويصرفك عن تأملها حتى لا تكشف عيبها .

فحين ينبهك ربك إلى التأمل فى صَنْعته فعليك أنْ تدرك المغزى من هذه الإثارة لتصل إلى مراده تعالى لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

أى : لم يتعظوا بكل هذه الآيات ، بل قالوا مثلما قال الأولون :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقيهم من الأولين ، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .

ولذلك قال قائلهم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون فى الدنيا ؟ لذلك تقولون : وُعِدْنا بهذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات منّا كثيرون ولم يعودوا ولم يُبعَثُوا ، فَمَنْ قال لكم إنكم ستموتون اليَوم وتُبعثون غداً ؟

البعث لا يكون إلا بعد أن يموت جميع الخَلْق ، ثم يُبعثوا كلهم مرة واحدة .

إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .

وكلمة ﴿وُعِدْنَا .. (٨٣)﴾ [المؤمنون] يعنى بالبعث ، والوعد عادة يكون بالخير، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء فى قول الشاعر :

وإنِّى إذَا أَوْعدتُه أَوْ وَعدتُه لَمخلِفُ إيعَادِى ومُنجِزُ موْعِدِى

يعنى : هو رجل كريم يترك الشر الذى توعّد به ، ويفعل الخير الذى وعد به ، وإن قال العلماء : قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفار بالبعث وما يتبعه من عذاب وعقاب يُعَدُّ وَعْداً ؟ قالوا : نعم يعد هذا الشر وهذا العذاب الذى ينتظر وَعْداً بالخير لأنه يُنبههم ويلفتهم إلى خطورته حتى لا يقعوا فيه إذن : هو خير لهم الآن حيث يُحذِّرهم كما تحذر ولدك من الرسوب إنْ أهمل فى دروسه .

ومن ذلك أيضاً فى هذه المسألة ما أشرنا إليه من تكرار قوله تعالى : ﴿فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] فى سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعد ذِكْر نعم الله على سبيل التوبيخ لمَنْ أنكر هذه النعم أو كذَّب بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذا التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكر هذه الآية حتى بعد النقم أيضاً ، كما فى قوله تعالى :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

وهل فى النار والشُّواظ نعمة ؟ نقول : نعم فيها نعمة ؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع فى هذا المصير وتحذير لك فى وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم : ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾ [المؤمنون] ﴿إِنْ هَـٰذَا.. (٨٣)﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هذا . وأساطير : جمع أسطورة مثل : أعاجيب وأعجوبة ، وهناك مَنْ يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهى جَمْع للجمع . وسواء أكانت جَمْع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف ؛ لأن الشىء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصلَ له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلَكَ أن تقول أساطير إنما البعث الذى تقولون عنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾ [المؤمنون] لم يأت وقته بعد ، فلم يمت جميع الخَلْق حتى يُبعثوا ، فقد أخطأتم التوقيت وظننتم أنكم فى الدنيا تموتون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت فى سعة الدنيا .

إذن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة ؛ لذلك يوجه إليهم هذه الأسئلة التقريرية التى تقيم عليهم الحجة :

﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤)﴾

ويأتى فى السؤال بإن الشرطية الدالة على الشك فى كونهم يعلمون .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فما دُمْتم أقررتم بأن الأرض ومَنْ فيها لله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : ما الذى صرفكم عن مالك الأرض وخالقها ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

نلحظ أنهم لم يجادلوا فى هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هى التى نراها ، مما يدل على أنها أمر غير منكور عندهم ، ولا بُدَّ أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، وإلا كان بوُسْعهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماءً واحدة . إذن : لم يجادلوا فى هذا الموضوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العرش مخلوق عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذى قال فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [هود]

والعرش لم يَرَهُ أحد ، إنما أخبر عنه ربه الذى خلقه ، فقال : لى كذا ولى كذا ، ويكفى أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفى هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نَرَ العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشرى فى السماع من الموجودين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضاً ، ففى قصة سليمان وملكة سبأ قال الهدهد : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] لأن العرش رمزية لاستقرار الملْك واستتباب الأمر للْملك الذى لا ينازعه فى مُلْكه أحد ، ولا يناوشه عليه عدو ؛ لذلك أول ما قال سليمان ـ عليه السلام ـ فى أمرها قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] وكأنه يريد أن يسلب منها أولاً رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار فى الملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

فما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تعترفون بأن لله مُلْكَ السموات والأرض ، وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله ؟ لماذا تتمردون على منهجه ؟ إن هذا الكون كله بما فيه خُلِق لخدمتك ، أفلا يلفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابْن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[1] يعنى : لا تُلْهك النعمة عن المنعم . وعلى العبد أن ينظر أولاً إلى خالقه ومالكه ، فيؤدى حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .

ومعنى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون] الاتقاء : أن تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، وسبق أن قُلْنا : من عجيب آيات القرآن أن تقول مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) ، والمعنى لا تعارضَ فيه كما يظنه البعض ، بل المعنى واحد ؛ لأن النار جُنْد

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » .

من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على التمكّن من الشيء ، كما تقول : هذا الأمر في يدي يعني في مُكْنتي وتصرفي ، أقلبه كيف أشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] مادة ملك منها مِلْك ، ومنها مُلْك ، ومنها ملكوت .

المِلْك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو مِلْك ، أَمّا مُلْك فيعني أنْ تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما المَلكوت فالأشياء المخلوقة التي لا تقع عليها حواسُّك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما في الكون ، بل إن في نفسه وذاته أشياءً لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى المُلْك الظاهر المحسّ ؛ لأنه لا يرى منه إلا على قَدْر مَدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا المُلك الذي لا تراه في دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحجوبة التي لا يراها أحد ، أو على الأشياء التي يراه واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمَّق فى عبادة الله وفى طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿مِّن لَّدُنَّا .. ﴿٦٧﴾﴾ [النساء]

ألا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة] يعنى : يؤدى ما لله بدقة وعلى الوجه الأكمل ؛ لذلك يأتمنه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]

فلما أحسن إبراهيمُ ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه ربه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. ﴿٧٥﴾﴾[الأنعام]

لأنه أحسن فى الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما لو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن : تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذى عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق فى عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدنيّ دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو مُعلِّماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون]

يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعنى : استغاث به فأغاثه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذى يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار : وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوى الذى يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ فى رحلته إلى الطائف وبعد أنْ فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل فى حمى كافر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يجير مَن استجار به ، ويغيث مَن استغاثه لكن ﴿لا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] لأن الذى يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له فى القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمَنْ ذَا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟!

لذلك يقول سبحانه فى مسألة ابن نوح : ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود] فالله - عز وجل - يجير على كل شىء ، ومن أصبح وأمسى فى جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها : فالله تعالى بيده وفى قبضته سبحانه كل شىء ، والأمر كله إليه ، فإياك أنْ تظن أنك تفلت من قبضته بالنعمة التى أعطاك ؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

وهنا أيضاً يقول سبحانه : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] إنْ كان عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ (١)

ففى هذه أيضاً يقولون « لله » ؛ لأنه واقع ملموس لا يُنكَر ، وطالما أن الأمر كذلك ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون] كيف تسحرون أو أسُحِرتم عن هذا الواقع وصُرِفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل ؟

هذه قضايا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة فى الوجود الأعلى ، وبوضوح البينات فى إعجاز البلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات فى آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتى الكلام منهم وبإقرارهم هم على أنفسهم ؛ ليكون حجة وشهادة حَقٍّ عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة ؛ لذلك سألهم : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا .. (٨٤) ﴾ [المؤمنون]

﴿ وقُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) ﴾ [المؤمنون]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

وهم يقولون فى هذا كله (لله) إذن : فماذا بقى لكم ؟ ما الذى منعكم أن تتقوا الذى تؤمنون بأنه المالك للأرض وللسماء وبيده كل شىء ؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعنى كلمة (الله) التى تنطقون بها ؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة ؛ لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها فى لغة البشر ، فاللغة عادة ألفاظ توضع لمعانٍ

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧٩) : « أى : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده . أو : كيف يخيل إليكم أن لا تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع » .

تدل عليهـا ، فالمعنى يُوجَد أولاً ، ثم نضـع له اللفظ الدالّ عـليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا بُدَّ أنكم تعـرفون مدلوله ، وهو قـضيـة لغوية انتـهيـتم منها ، وإلا فـالأمر العـدمى لا اسم له . فالتليفزيون مثلاً : ما اسمه قبل أن يخترع ؟ لم يكن له اسم ؛ لأنه لم يكُنْ له معنى ، فلما وُجِد وُضِع له الاسم .

وحيث دارت الألسنة بكلمة الله فمعـنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسـألة ـ إذن ـ حجة عليكم .

لذلك عرض الحق ـ سـبحانه وتـعالى ـ هذه القضـايا فى صـورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكر شخص جميلك فيه ، فإنْ قلتَ له على سبيل الإخـبار : لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخـبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أمـا حـيـن تقـول له : ألم أُقـدِّم لـك كـذا وكـذا ؟ على سـبـيل الاستفـهام ، فإنه لا يملك إلا الاعـتراف ، وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى مَا لا تؤديه الشـهادة أو البينة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يعنى : دعـونى أخـبـركم عن أمـرهم ، ولـمـاذا أنكروا الحق ولم ينطقوا به ، إنهم يـنكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أنْ يُثبـتوا أن ما هم عليه أمر طبيعى ، لمـاذا ؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن البـاطـل ؛ لذلك يقفـون فى وجه الرسـالة التى جاءت لتـعديل المـيزان والقضـاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكذيبها وصَرْف الناس عنها ليظلوا ينتفعون هم بالباطل .

لذلك تأمل : لماذا يُكذِّب الناس ؟ يُكذِّبون لأنهم ينتفعون من الكذب ، ويتعبهم الصدق ، ويُضيِّق عليهم الخناق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

يا ليت الأمر وقف بهم عند مجرد عدم الإيمان بالله ، إنما تعداه إلى أن وصفوا الله تعالى بما لا يليق من الصفات ، وما دام أن الله تعالى ينفى عن نفسه تعالى اتخاذ الولد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون] فلا بد أنهم قالوا : اتخذ الله ولداً ، فترقوا فى فجورهم وطغيانهم ، وتجرأوا حتى على مقام العزة .

ونقول أولاً : ما الولد ؟ الولد ما ينجبه الإنسان من ذكر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقولون : عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن الملائكة : بنات الله ، وقد قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعنى أنه قد مرت فترة لم يتخذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسأل : ما الذى زاد فى مُلْك الله بوجود الولد ؟ هل أصبحت السموات ثمانية ؟ هل زاد فى الكون شمس أخرى أو قمر ؟ الكون كما خلقه الله تعالى ، وجعل فيه

ضروررياته وأصـوله وفروعه لم يـزد فيه شيء . إذن : فـاتخاذ الولد عَبَثٌ لم يحدث منه شيء .

ويقـولون : اتخذ الله الولد ليُـؤْنس خَلْقه بوجـود ولده وشيء من رائحته بين الخلق ، قالوا هذا فى مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقـائه بينكم ؟ لقد أقام المسيح فى الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يُرْفع ، فكيف يحرم من هذا الأنس مَنْ سبقوا ميلاده عليه السلام ؟ وكيف يُحْرم منه مَنْ أتوا بعده ؟

أليس فى هذا مـا يتعارض وعـدالة الربوبية ؛ لأن الخَلْق جـميـعاً خَلْق الله ، وهم عنده سواء ؟

ومنهم مَنْ يقول : إنه جاء ليرفع الخطيـئة ، لكن الخطيئة ما زالت فى الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن : فكلها حُجَج واهية .

ولو ناقشنا هذه المـسألة مناقشـةً منطقيةً فلسـفيةً : لماذا يتـخذ الإنسانُ الولَد ؟ يتخذ الإنسانُ الولدَ لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فيريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكْر جيلاً من بعده ، فإنْ جاء للولد ولد ضمن جيلين ؛ لذلك يقولون « أعزّ من الولْد ولْد الولد » . لكن أى ذِكْر هذا الذى يتمسَّكون به ؟ إن الذكر الحقيقى ما تخلفه من بعدك من عَمل صالح يسبقك عند الله .

والحق ـ سبحـانه وتعالى ـ لا يحتاج إلى ذِكْـر من بعده تعالى ؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن ممنوعة فى حقِّه تَعالى .

وقـد يُتخـذ الولد ليكون سنداً وعَـوْناً لأبيه حـين يكبر وتضـعف قواه ؛ لذلك يقـولون : خير الزواج الزواج المبكر ؛ لأنه يسـاعدك على إنجـاب أب يعولك فـى طفولة شـيـخوخـتك ؛ لأنك تنجب طفـلاً وأنت

صغيـر ، فيعاصـرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُـرَّة عينك على خـلاف مَنْ ينـجب على كـبَـر ؛ لـذلك قـال : أب يعـولك فـى طفـولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك فى هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً ممـتنعة فى حقه تعالى ؛ لأنه سبـحانه القوى ، الذى لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة .

مـسألة أخـرى : أن الإنسان يحـب الولد ؛ لأنه بَعْضٌ منه ، وهو سبب فى وجوده ، فيـحب أن يكون له ولد من صُلْبه ، وهذا فرع من حُـبِّه للـتملُّك ، فـالإنسـان أول ما يـحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعهـا ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حـيوانات يشرب لبنهـا ويستفيد منهـا ، ثم إنْ تَمَّ له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرَّج من حب الجماد إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضـاً لا تجوز فى حقه تعالى ، فـإنْ أحببتَ الولد ليكون جزءاً منك ومن صُلْبك تعـتز به وببُنوته ، فالخَلْق جميعـاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك ؟

إذن : كلها حـجج ومسائل باطلـة ؛ لذلك رَدَّ الله عليهم ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ** .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون] وأتى بمنْ الدالة على العـموم ، يعنى : ما اتخذ الله شـيئاً من بداية مَا يُقال لهَ ولد ، ولو كان حـتى مُتبنًّى ، كما تقـول : ليس عندى مال ، فتنفى أن يكون عندك مـال يُعْتد به أو ذو قيمـة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنيـهات أو قروش . فإنْ قلت : ما عندى من مال ، فقـد نفيتَ أنْ يكون عندك أقلّ ما يُقَال له مال .

ونردّ بهـذه المسـألة على مَنْ يقـول أن (من) هنا زائدة ؛ لأن كلام اللهَ دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة فى كلام البشر ، والحق سبحانه مُنزَّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقى بنا الحق سبحانه فى الردِّ عليهم فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : معبود بحق أو بغير حق ؛ لذلك سمّى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه فى العبادة ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

يعنى : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لَفَسدت السماء والأرض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة مع الله لَفسدتَا أيضاً ؛ لأَن إلا هنا ليست استثنائية ، إنما هى اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إعرابها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدُّد الآلهة لو تأملتها لَبانَ لك بطلانها ، فإنْ كان مع الله آلهة لاقتسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغنى قطاع من الكون عن الآخر ؟ أتستغنى الأرض عن السماء ؟ إذن : سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذى أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء ؟ لا بُدَّ أنه أخذ الأرض بقُوَّته ، وترك السماء لعجزه ، ولا يصلح إلهاً مَنْ وُصف بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخَلْق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] يعنى : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لَفَسدتْ الأمور ، كما رأينا فى دنيا البشر أن يحاول أحد

الملوك أنْ يستقلّ بقطاع من الأرض لا حَقَّ له فيه ، ورأينا ما أحدثه من فساد فى الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] وهى صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فليس هذا كلامنا ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الآلهة بهذه الشهادة ؟ إنْ علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عَجْز ، وإن لم يدروا فَهُم غافلون نائمون ، ففى كلتا الحالتين لا يصحّ أن يكونوا آلهة .

وفى موضع آخر يردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً .. (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى فى هذه الحالة ﴿ لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا يبحثون عن الإله الذى أخذ منهم الكون ، وتعدَّى على سلطانهم ، إما ليجابهوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدَّعون أنهم آلهة من دون الله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء] يعنى : عيسى والعزير والملائكة الذين قلتم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله ، بل يعتزون بهذه العبودية ،

ويُغضبهم ويسوؤهم أن نقول عنهم آلهة ، أو نعطيهم من التقديس أكبر مما يستحقون ؛ ذلك لأن ولاءهم وعصبيتهم لله تعالى أكبر من ولائهم وعصبيتهم لأنفسهم .

لذلك ، فإن هذه الأشياء التى يتخذونها آلهة من دون الله هى أول مَنْ يلعنهم ، فالأحجار التى عبدوها من دون الله - مع أن كلمة العبادة هنا خطأ ونقولها تجاوزاً ؛ لأن العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ، وانتهاؤه بنهيه ، والأحجار ليس لها أوامر وليس لها نَوَاه - هذه الأحجار أعبد منهم لله ، وأعرف منهم بالله ؛ لذلك تكرههم الحجارة وتلعنهم ، وتتحول عليهم فى القيامة ناراً تَحْرقهم .

اقرأ هذا الحوار الذى يتنافس فيه غار حراء الذى شهد بداية الوحى وأَنس فيه رسول الله ﷺ بأول آيات القرآن ، وغار ثور الذى احتمى فيه رسول الله عند الهجرة ، وكلاهما أحجار ، يقول الشاعر[1] :

كَمْ حَسَدْنَا حِراءَ حِينَ تَرى ... الرُّوحَ أميناً يغْذُوكَ بالأنْوارِ

فَحِراءُ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بهما اشْفع لدولة الأحجارِ

عَبدُونا ونَحْن أَعْبَدُ لله ... منَ القائمين بالأسْحَارِ

تَخذُوا صَمْتنَا علينا دليلاً ... فغدَوْنا لهم وَقُودَ النارِ

قد تجنَّوا جَهْلاً كما قد تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارِى

للمُغَالِى جزاؤه والمغَالَى ... فيه تُنجيه رحمةُ الغفارِ

لذلك يقول تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦)﴾ [المائدة]

(١) من شعر فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

فيقول عيسى : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أنْ يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبى ﷺ حينما هُزم الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان، لماذا ؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإنْ كانوا كافرين به ، أما الفُرْس فكانوا مَجُوساً يعبدون النار ؛ لذلك يُطمئنه ربه بقوله : ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

فإنْ كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون بربِّ محمد ، فالعصبية - إذن - لله أكبر من العصبية للرسول المبلِّغ عن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون] يصفون بمعنى : يكذبون ، لكن عبَّر عنه بالوصف كأن المعنى : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال فى موضع آخر : ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢)﴾ [النحل] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وَصْف له ؛ لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع .

كما لو سألت : ما الحماقة ؟ فأقول لك : انظر إلى تصرفات فلان ، يعنى : هى الوصف الصادق للحماقة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مَبْلَغاً يُجسِّم لك المعنى الذى تريده .

ومعنى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] تنزه ، وهى مصدر وُجِد قبل أنْ يُوجَد المسيح ، فهى صفة لله تعالى أزلية ، حيث ثبت تنزيه الله قبل أن يخلق الخَلْق ، فلما خلق الله السماء والأرض سبَّحت لله : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١)﴾ [الحديد] ولم ينقطع التسبيح بعد ذلك ، قال الحق سبحانه : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة]

وما دام الكل يُسبِّح لله ، وما زال مُسبِّحاً ، فسبِّح أنت يا محمد : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

فكيف يكون الكون كله مُسبِّحاً ، ولا تُسبِّح أنت ، وأنت سيد هذا الكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية :

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾

العلم : إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وواقعة ، لكن لا تستطيع أن تُدلِّل عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ، فهذا تقليد كما يُقلِّد الولدُ أباه أو مُعلمه ، فهو يُقلِّد غيره فى هذه المسألة إلى أنْ يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ، فليس الجهل كما يظن البعض ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أن تجزم بقضية مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل أشقّ وأتعب لأهل الدعوة وللمعلمين من الخالى الذهن الذى لا يعرف شيئاً ، ليست لديه قضية بدايةً ، فهذا ينتظر منك أن تُعلِّمه ، أمّا الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرِج من ذِهْنه القضية

الخاطئة أولاً ، ثم تضع مكانها الصواب .

والغيب : المراد به الغيب المطلق يعنى : ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيْب مُقيد ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما ؛ لأن هذه الأشياء كانت غَيْباً عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنَا وصارت مشهداً ؛ لذلك قال تعالى :
﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فأثبت الإحاطة للناس لكن بشرط مشيئته تعالى ، فإنْ شاء أطلعهم على الغيب ، وأوصلهم إلى معرفته حين يأتى أجل ميلاده وظهوره .

إذن : المعلوم لغيرك وغَيْب عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات تُوصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك ، والذى قال الله تعالى عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

والشهادة : يعنى المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمنْ باب أَوْلَى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا ؟ قالوا : المعنى : يعلم الغيب الذى غيِّب عنى ، ويعلم الشهادة لغيرى .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غيْب مستتر عنا ، وهناك كوْن ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد - سبحانه وتعالى - أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة .

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجتهد فى أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجِّمين وأمثالهم ، وهو لا يدرى أن الغيب من أعظم نِعَم الله على خَلْقه ، فالغيب هو علة

إعمار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أغيار ، كثير التقلُّب ، ولو علم كل منا وكُشِف له ما عند أخيه لتقاطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون : لو تكاشفتم ما تدافنتم . يعنى : لو كُشِف لك عما فى قلب أخيك لَضننْتَ عليه حتى بدفنه بعد موته .

إذن : فجَعْل هذه المسائل غَيْباً مستوراً يُحنِّن القلوب ، ويثرى الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو علمتَ لواحد سيئة ، وعرفتَ موقفه العدائى منك لكرهتَ حتى الخير الذى يأتيك من ناحيته ، ولتحرك قلبك نحوه بالحقد والغل ، وما انتفعتَ بما فيه من حسنات .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غيْب الآخرين : إنْ أردتَ أن تعرف غَيْب غيرك ، فاسمح له أن يعرف غَيْبك ، ولن تسمح له بذلك ، إذن : فدَعْ الأمر كما أراده الله ، ولا تبحث عن غَيْب الآخرين حتى تستقيمَ دفّة الحياة .

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ، ففى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئت أجبناك وأجبنا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عفوى »[1] .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُصفِّى نفوس الخَلْق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى (٣/١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية عنك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) ﴾ [المؤمنون] لأن ما تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غَيْباً ولا شهادة ؛ لذلك لا ينفعك إنْ عبدتَه ، ولا يضرك إنْ لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) ﴾

﴿ قُل .. (٩٣) ﴾ [المؤمنون] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ رَّبِّ .. (٩٣) ﴾ [المؤمنون] منادى حُذفَتْ منه أداة النداء يعنى : يا رب ﴿ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى : من العذاب ﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) ﴾ [المؤمنون] أى : إن قدَّرتَ أن تعذبهم فى حياتى فلا تُعذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم فى أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من قومه المكذِّبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون»[1] ويقول : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول :

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد ابن عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهد قومى فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء ، وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/٤٨١] . وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠) .

لا إله إلا الله » .

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف ؛ ذلك لأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول : لا ؛ لأنه لم يقُلْ هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكُنْ رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وَحْى من الله لا بُدَّ أن يُبلِّغه ، وأن يقولها كما قالها الله ؛ لأن مدلولها رحمة به فى ألاَّ يرى مَنْ يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥) ﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذى دعا به رسول الله يدفع عنه أىَّ خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : ﴿ إِمَّا تُرِيَنِّى .. (٩٣) ﴾ [المؤمنون] عبارة عن (إنْ) و (مَا) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال : قُلْ ساعةَ أن ينزل بهم العذاب : ربِّ لا تجعلنى فى القوم الظالمين .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً .

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾

أى : أننا قادرون على أن نُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذابَ الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك - حتى الكافر منها - بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتى على الكافرين فلا يُبقِى منهم أحداً ، ويمنعِ أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهَبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم فى بدر مثلاً ، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علِم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، ألاَ ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ٢٧﴾ [نوح]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْيٍ من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التى لا يعلمها إلا المكوِّن الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلُون فى الإسلام بلاءً حَسَناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن لله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبى جهل يُظهر شجاعة نادرة فى موقعة اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه فى سبيل الله : أهذه ميتة تُرضِى عنى الله ورسوله ؟ هذا فى يوم

الخندمة(١) الذى قال فيه الشاعر(٢) :

إنَّك لَوْ شَاهَدت يَوْمَ الخنْدَمه
إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عكْرمَه
ولحقتْنَا بالسُّيوف المسْلمه
يَفْلقْنَ كُلَّ سَاعد وجُمْجُمَه
ضَرْباً فَلاَ تُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَه
لَهُمْ نَهِيتٌ(٣) حَوْلَهُ وحَمْحَمَه
لَمْ تنْطقى باللَّوْمِ أدْنى كلمَه(٤)

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما ما نعرف جميعاً .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ ادْفَعْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على المدافعة يعنى : أمامك خصم

---

(١) قال ابن الأثير : هو جبل معروف عند مكة . قال ابن برِّى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد ، فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

(٢) جاء فى لسان العرب : أن هذا الرجز نسبه ابن السيد البطليوسى فى المثلث للراعش الهذلى ، وذكر ابن برى أنه حماس بن قيس بن خالد الكنانى . وقيل : إن هذا الرجز لهريم ابن الحطيم .

(٣) النهيت : الصياح . وقيل : هو الصوت من الصدر عند المشقة . [لسان العرب ـ مادة : نهت] .

(٤) أورد ابن منظور هذه الأبيات فى [لسان العرب ـ مادة : خندم] من قول الراعش الهذلى لامرأته وكانت لامته على انهزامه فقال هذه الأبيات . وكان قد قال قبل ذلك :

إنْ يُقبلُوا اليَوْمَ فَمَا بى علَّهْ
هَذَا سلاحٌ كَاملٌ وَ أَلَّهْ
وذُو غِرارينِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

يهاجمك ، يريد أن يؤذيك ، وعليك أن تدفعه عنك ، لكن دَفْع بالتى هى أحسن أى : بالطريقة أو الحال التى هى أحسن ، فإنْ أخذك بالشدة فقابلْه باللين ، فهذه هى الطريقة التى تجمع الناس على دعوتك وتؤلِّفهم من حولك .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فإنْ أردتَ أن تعطفهم نحوك فادفع بالتى هى أحسن ، ومن ذلك الموقف الذى حدث من رسول الله يوم الفتح ، يوم أنْ مكّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : يا معشر قريش ، ما تظنون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابْنُ أخ كريم ، قال :« اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ونلحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم ، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحدَّثوه بما يُحنِّن قلبه ، ولقّنوه ما ينتفعون هم به : أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مثلاً : أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله .

وقصة فضالة[2] الذى كان يبغض رسول الله ، حتى قال قبل الفتح : والله ما أحد أبغض إلىَّ من محمد ، وقد زاد غيظه من رسول

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى (الإصابة ت ٦٩٨٨) .

الله حينمـا رآه يدخل مكة ويُحطِّم الأصنام ، فأراد أنْ يشقَّ الصـفوف إليه ليقتله ، وبعدها قال : « فـو الله ، ما وَضعتُ يدى عليه حتى كان أحب خلْق الله إلىَّ »[1] .

لكن ماذا ندفع ؟ ندفع (السيـئة) . ونلحظ هنا أن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ يدعونا أن ندفع السيئة بالتى هى أحسن ، لا بالحسن ؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقى بك فى هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن .

وفى موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرُّف الإيمانى : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] ولو تأملتَ معنى هذه الآية لوجدتَ أن المجازاة من الله ، وليست ممَّنْ عاملْتَه هذه المعاملة ؛ لأن الله تعالـى يقول : ﴿ كَأَنَّهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً .

ذلك لأنك حـين تدفع بالـتى هى أحـسن يخـجل منك صـاحـبك ، ويندم على إسـاءته لك ، ويحاول أنْ يُعـوِّضك عنها فـيمـا بعد ، وألاَّ يعود إلى مثلهـا مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى ولياً حـميماً ، إنما هو ولى وحميم ؛ لأنه كان سبـباً فى أنْ يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك .

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصـرى وسبَّه فى أحد المجالس ، وكان فى وقت رُطَـب البلح أرسل الحسن إليـه طبقاً مـن الرُّطَب وقال

(١) ذكر ابن عبد البر فى كتاب الدرر فى السير له أن النبى ﷺ مـر به يوم الفتح وهو عازم على الفتـك به فقال له : مـا كنت تحدث به نفـسك ؟ قال : لا شىء كنت أذكـر الله تعالى . فضـحك رسول الله ﷺ وقـال : أستغـفر الله لك . ثم وضع يده على صـدره . قال : فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صـدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلىَّ منه . ذكره ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (ترجمة ٦٩٨٨) .

لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُلْ له : لم يجد سيدي أثمن من هذا يهديه إليك ، وقد بلغه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهي بلا شك أعظم من هديتي تلك[1] .

إذن : من الغباء أن نتناول الآخرين بالهَمْز واللمز والطعن والغيبة ؛ فإنك بهذا الفعل كأنك أهديتَ لعدوك حسناتك ، وأعطيتَ أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألاَ ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الولد ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظُلْمه ولا يقابله بالمثل ، ساعتها يحنو الأب على ولده ، ويزداد عطفاً عليه ، ويحرص على ترضيته ، كذلك يعامل الحق - تبارك وتعالى - العباد فيما بينهم من معاملات - ولله المثل الأعلى . لذلك قلنا : لو علم الظالم ما أعده الله للمظلوم من الجزاء لَضنَّ عليه بالظلم ؛ لأنه سيظلمه من ناحية ، ويُرضيه الله من ناحية أخرى .

ويقال : إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفِّس فيه الملك عن نفسه ، فإنْ غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبُّه أمام الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن ينصرف الرجل أخذه على انفراد وأعطاه كيساً من المال ، وفي أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال ليقضي أمراً عنده ، فحاول أنْ يتمحّك ليصل إلى الملك ، ثم قال له : ألستَ في حاجة لأنْ تشتمني اليوم ؟

فمسألتنا بهذا الشكل ، إذن : ما عليك إلا أنْ تدفع بالتي هي

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام .

أحسن ، فإنْ صادفتَ من صاحبك مودة وصفاءً ، وإلا فجزاءُ الله لك أوسع ، وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر[1] حين عبَّر عن هذا المعنى :

يا مَنْ تُضَايِقه الفِعَال مِنَ التى ومِنَ الذى

ادْفَعْ فدَيْتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذى

يعنى : إن أردتَ الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ؛ فاعمل بالتى هى أحسن .

ثم يقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) ﴾[المؤمنون] معناه : أنت يا محمد تأخذ بحقك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصيه عليهم ، وقد أعددنا لهم الجزاء المناسب ، فدَعْ هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُنزِّه ذات رسوله ﷺ من انفعالات الغضب ، وألاّ ينشغل حتى بمجرد الانفعال ؛ لأنه حين يتعرّض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبْعِك الحسنْ وخُلُقك الجميل ، فكأنه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فالله تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه : دَعْكَ منهم ، وفوِّض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أى : بما يكذبون فى حقك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) ﴾

لماذا جاءتْ الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة ؟ قالوا : لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويُظهِر لك أنه معك ، وأنه

---

(١) الشيخ رحمه الله وعفا عنه .

يَغَار عليك ، فيحرضك عليهم ويُغريك بهم ، ويدفعك إلى الانتقام منهم والتسلُّط عليهم .

وهمزات : جمع هَمْزة ، وهى النزْغة أو النخسة يثير بها الشيطان الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

يعنى : إنْ دخل عليك الشيطان بهَمْزه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحَيْطة معه ، فقُلْ : أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور ، وإن لم يهمزوا لى ، فأنا لا أريدهم فى مَحْضرى ، ولا أريد أن أجالسهم .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) ﴾

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويُوقن أنه ميّت تتكشف له الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

فيتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ، والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يروْنَ منهم إشارات تدلّ على أنهم يروْنَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حَسْب حاله وخاتمته .

وأذكر حين مات أبى ، وكان على صدرى ساعتها أنه قال لى : يا أمين - وهذا اسمى فى بلدى - كيف تبنى كل هذه القصور ولا تخبرنى بها ؟

والجنود الذين صاحوا فى المعركة : هُبِّى يا رياح الجنة . لا بُدَّ

أنهم رأوها وشَمُّوا رائحتها ، وإلا ما الذى جعلهم يتلهّفون للموت ، ويشتاقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه .

ومن هؤلاء الصحابى الجليل الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهداء عند الله ، وكان فى يده تمرات أو فى فمه يمضغها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة[1] .

كأنه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مَضْغ هذه التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقينُ هؤلاء الرجال فى الله وفى رسول الله .

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ .. ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون] هكذا بصيغة المفرد ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون] جاء بالجمع على سبيل التعظيم ، ولم يقل : ربِّ ارجعنى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]

فهنا الحق - تبارك وتعالى - يُعظِّم ذاته ، لكن هذا يُعظِّم الله الآن ، وهو فى حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو فى سَعَة الدنيا وبحبوحة العيش .

أو : أنه كرر الطلب : أرجعنى أرجعنى أرجعنى ، فجمعها الله تعالى . أو : أنه استغاث بالله فقال : ربِّ ثم خاطب الملائكة : ارجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع ؟

---

(١) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قُتلْت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾

أى : أننى تركتُ كثيراً من أعمال الخير ، فلعلِّى إنْ رجعتُ بعد أنْ عاينتُ الحقيقة أستدرك ما فاتنى من الصالحات ، أو لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركتُ ، لأننى ضننْتُ بمالى وبمجهودى وفَضْلى على الناس ، وكنزْتُ المال الكثير ، وتركتُه خلفى ثم أُحاسب أنا عليه ، فإنْ عُدت قدمته وأنفقته فيما يدخر لى ليوم القيامة .

ثم تأتى الإجابة : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ١٠٠﴾ [المؤمنون] أى : قوله : ارجعون لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فالله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا ؛ لذلك نفاها بقوله (كلا) التى ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد فى سورة الفجر :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ١٦﴾ [الفجر]

فيرد الحق سبحانه : (كلا) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغِنَى وكثرة العَرَض دليل كرامة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدى فيه حَقَّ الله وحَقَّ العباد ، ولا يعينك على أداء ما فُرِض عليك صار المال وبالاً عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى المال إنْ دخلتَ فى قوله تعالى : ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٧﴾ [الفجر] ؟ ساعتها سيكون مالك حُجَّة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر إهانةٌ ، فإنْ سلب الله منك المال الذى يُطغيك فقد أكرمك ، وإنْ كنت لا تدرى بهذا الإكرام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى : كيف يتمنونَ الرجوع وبينهم وبينه برزَخ يمنعهم العودة إلى الدنيا ؛ لذلك تُسمَّى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفى موضع آخر يُصوِّر الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] أى : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإنْ كانت هذه قضية عقلية ففى واقعهم ما يثبت صدْق هذه القضية ، واقرأ فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] فأخذ نعمة الله وتقلَّب فيها ، ثم تنصَّل من طاعة الله .

ويقول تعالى فى هذا المعنى أيضاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

إذن : المسألة اضطرارات ، كلما اضطروا دَعَوا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذوا من واقع حياتهم ما يدل على صِدْق حكمى عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ : هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإنْ كان هذا الحاجز من صناعته ـ سبحانه وتعالى ـ فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا ؟

قالوا : نعم يلتقيان ، ولا يبغى أحدهما على الآخر ؛ لأن المسألة ليست سدّاً أو بناءً هندسياً ، إنما برزخ خاصٌّ لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التى خرقتْ النواميس ، فجعلتْ الماءَ السائلَ جبلاً ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم ، طلاقة القدرة التى فجرت الحجر عيوناً .

إذن : المسألة ليست (ميكانيكا) كما يظن البعض . والبرزخ بين الماء المالح والماء العَذْب آية من آيات الله شاخصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أنْ نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

قالوا : لأن اللفظ الواحد يُطلق فى اللغة وله معَان عدَّة واللفظ واحد ؛ لذلك يُسمُّونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْن تطلَق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتُقال للذهب وللفضة ، وللرجل البارز فى قومه ، والسياق هو الذى يُحدِّد المعنى المراد ؛ لذلك على السامع أن تكون عنده يقظة ليردّ اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة (النجم) فتعنى الكوكب فى السماء ، وتعنى كذلك مَا لا ساقَ له من النبات ، وهو العُشْب الذى ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) مرج البحرين . أى : أرسلهما أو أطلقهما يجريان وهما يلتقيان عند مصبّ النهر . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

أُرَاعى النجْمَ فى سَيْرِى إليكُمْ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِىَ

فكلمة (وراء) تُطلَق ويُراد بها معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعيِّنها السياق ، فتأتى وراء بمعنى (بَعْد) كما فى قوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود] وتأتى بمعنى (غَيْر) كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى (أمام) كما فى قوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ (١٦)﴾ [إبراهيم]

فقوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون] أى : من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾

الصُّور : البُوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء فى أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالأب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة . والنسب هو أول لُحمة فى الكون تربط بين الناس فى مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضرورى الذى يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَب وقرابة وأهل .

فحين ينفى الحق - سبحانه وتعالى - النسب يقول : ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ .. (١٠١)﴾ [المؤمنون] فليس النفى لوجود النسب ، فإذا نُفخ فى الصور منعت البُنوَّة من الأبوة ، أو الأبوة من البنوة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر فى دفع الشر ، فالنفى هنا لهذه المنفعة فى هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أن يُوجد قوى وضعيف ، فالقوى يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أمّا فى هذا الموقف فالكل ضعيف .

كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر]

لذلك حينما حدَّثَ رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبت السيدة عائشة ، واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد[1] .

إذن : النفى لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .

وإنْ كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى فى الدنيا عن ذوى قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً فى قصة نوح - عليه السلام - وولده ، وخاطبه

---

(١) عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ : يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ قال : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٩٠) والنسائى فى سننه (٤/ ١١٤) . والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٦٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ربه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود] فامتنع النسب حتى فى الدنيا ، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة - خاصة عند الأنبياء - بنوة عمل واتباع .

وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزُّون بالإسلام ، لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة ، وهما الرابطة القوية التى تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

قرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير[(١)] - رضوان الله عليه - وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة ، فلما أُشرب قلبه الإيمان زهد فى كل هذا النعيم ، وحُرم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم »[(٢)] .

وفى المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز[(٣)] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسَر[(٤)] فقال له مصعب : اشدد على

(١) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ، وبعثه ﷺ إلى المدينة يُعلِّم مسلميها الفقه ويقرئهم القرآن ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية ، وكان مصعب رقيق البشرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، توفى فى غزوة أحد . [صفة الصفوة ١/٢٠٥ ، ٢٠٦] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطّق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) إسناده حسن .

(٣) هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير . له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر (ترجمة ٧٥٣ الكنى) .

(٤) اسمه كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبد المطلب . كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣] . وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٥/٣٠٧) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة » . وقال (٧/٢١٨) « بفتحتين » .

أسيرك - يعنى : إياك أن يفلت منك - فإن أُمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك .

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

وفى غزوة أحد استُشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفنونه فيه إلا ثوباً قَصيراً ، إنْ غطى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطّى رجْلَيْه انكشفت رأسه ، فقال النبى ﷺ : « غطوا رأسه ، واجعلوا على رِجْلَيْه من الإذخر »[١] .

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهِر براءتها ، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك وتظل هى على الإيمان ، ولَما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تجىء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشى ملك الحبشة ليعقد له عليها[٢] .

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهِّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نَحَّتْهُ جانباً ، ومنعتْه أن يجلس - وهو كافر - على فراش رسول الله ،

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦) ، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الأرت رضى الله عنه .

(٢) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/٣١) : « بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوّجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعمائة دينار وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل : وكّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها ، وذلك سنة سبع من الهجرة » .

فقال: أَضَنَّا بالفراش عليَّ ؟ فقالت : نعم[1] .

إذن : نَفْع الأنساب يمتنع فى الدنيا قبل امتناعه فى الآخرة ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تفضّل بأن أبقى مطلوبات النسب فى الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ؛ لأنه سبحانه وَسِع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيت الكافر فى شدة وقدرت أن تُعينه فأعنْه .

واقرأ فى هذا قوله تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ⑮﴾ [لقمان]

فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حَقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما .

ويُرْوَى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ㊲﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أن يُدخله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتركه ينصرف ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم وسِعْتُهُ عبدى وهو كافر بى ، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة ؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له فى شأنه ، فقال الرجل : نِعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله .

---

(١) أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/٣٣) « أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية لقد أصابك بعدى شر » ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد فى فتح مكة .

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب ، فيـرونَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجـودك ، وهو الأب أو الأم ، فـالنســب وإن كـان مـيـلاد شـيء من شيء ، أو تفرُّع شـيء من شـيء ، فـهناك نسب أعلى ، لا لمَنْ أوجدك بســبب ، وإنما لمن أوجـدك بلا سبب الوجـود الأول ، فكان عليك أن تراعى هـذا النسب أولاً الذى أوجــدك من عــدم ، وإنْ أثبت حــقــاً للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك . فكيف بالموجد الأعلى ؟

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون] سأل : تقـتضى سائلاً ومسئولاً ، أمّا الفـعل (تساءل) فيدل على المفاعلة يعنى : كل منهما سائل مرة ، ومسئول أخرى ، كـما تقول : شارك محمد عمرًا ، وقاتل .. الخ .

وقد اعتــرض على هذه الآية بعض المستشرقـين الذين يحبون أن يتوركوا على كـتاب الله ، قائلين : إن المسلمـين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقديس يمنعهم ويحجب عقـولهم عن تعقُّل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء] ؟

يقول هؤلاء : إن القـرآن نفى التساؤل فى هذه الآية ، وأثبـته فى قوله تـعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور] فى الحوار بين الكفار .

وهناك تساؤل بين المـؤمنين والكافرين : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر]

ومـرة يكون التسـاؤل بين المـؤمنين بعضـهم وبعض : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور]

إذن : كـيف بـعـد ذلك ينفى التـسـاؤل ؟ ويقـول : ﴿ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهذا التضارب الذى يرونْه تضـارب ظاهرى ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تسمع عن شىء وبين أن تُفـاجأ به وأنت غير مؤمـن ، لقد قالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

فحين فُـوجئوا بالنفخ فى الصُّـور ، وداهمتهم القيامـة التى كانوا يُكذِّبون بها بُـهتوا ودُهشُـوا ، وخرست ألسنتهـم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة ، ثم يتدرجون من هذه الحـالة إلى أن يأخـذوه أمراً واقـعـاً لا مَفـرَّ منه ، فـيبـدأون بالكلام ويسأل بعضـهم بعضاً عَمَّا هم فيه وعَمَّا نزل بهم .

إذن : فالسؤال له زمن ، ونَفْى السؤال له زمن ؛ لذلك يقولون فى مثل هذه المسألة أن الجهة مُنفكَّة ، فإذا رأيتَ شيئاً واحداً أُثبتَ مرة ، ونُفى أخـرى من قائل واحد مـنسوب إلى الحكمـة وعدم التـضارب ، فاعلَم أن الجهة مُنفكّة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراق وقفوه أيضاً فى سؤال أهل المـعاصى ، حـيث يقول تعـالى فى إثبات سـؤالهم : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] ويقول فى نفى سؤالهم ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن] فكيف يثبت الفعل وينفـيه ، والفاعل واحد ؟

وهذا الاعتـراض منهم ناشىء عن عدم فَـهْم للغة القـرآن والملَـكة العـربية ، أو لأنهم يريدون مـجـرد الاستـدراك على كتـاب الله وإثارة الشكوك حـوله . لكـن رُبَّ ضـارَّة نافـعـة ، فـقـد حـرّكت شكوكـهم ومآخذهم علماء المسلمـين للتصدِّى لهم ، وللرد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمـثلنا كمثل الذى يستـعد لملاقـاة المرض بالطُّعْم المناسب الذى يعطى للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسـيدنا عـمـر - رضى الله عنه - وكـان القـرآن ينطق على وَفْق ما يريد ، يرى الناس يُقـبِّلون الحجر الأسود ، فـتوقع أن يتكلم الناس فى هذه المـسألة ، وكيف أن الدين يـنهاهم عن عبـادة الأصنام وهى حجارة ويأمـرهم بتقبيل الحجر ، وكـان رضى الله عنه يُقبّله ويقول : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يُقبّلك ما قبّلتك »[1] .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجـرية لا عبادةَ لها عندنا ، لكن عندنا النبى ﷺ وهو مُشرِّع لنا وواجب عليـنا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على مَنْ أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكـلم عمر فى غـلاء المهـور وكان مُلْهـماً يوافق قـولُه قولَ القرآن الكريم ، وقفتْ له امرأة وراجعـته وقالت له : اخطأتَ يا عمر ، كيف تنهى عن الغلاء فى المهور ، والله تعالى يقول : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٠)﴾ [النساء]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٩٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٧٠) من حديث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . قـال الطبرى : « إنمـا قال ذلك عـمر لأن الناس كانوا حـديثى عهد بعـبادة الأصنام فخشى عمـر أن يظن الجهال أن استلام الحـجر من باب تعظيم بعض الأحجار كـما كانت العرب تفـعل فى الجاهلية فأراد عـمر أن يعلم الناس أن استـلامه اتباع لفعل رسـول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده فى الأوثان» أورده ابن حجر فى الفتح (٣/٤٦٣) .

فأجاز أن يكون المهر قنطاراً من ذهب ، عندها قال عمر بجلالة قدره : « أصابت امرأة وأخطأ عمر »[١] ليبين أنه لا كبيرَ أمام شرع الله .

إذن : هذه مسائل مرسومة ولها أصل ، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسأل فى أمور ديننا .

نعود إلى مسألة سؤال أهل المعصية ، حيث نفاه القرآن مرة وأثبته أخرى . ونقول : جاء القرآن بأسلوب العرب وطريقتهم ، والسؤال فى الأسلوب العربى إما سؤال ممَّنْ يجهل ويريد المعرفة ، كما يسأل التلميذ مُعلِّمه ، أو يسأل العالم الجاهل لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما يريد .

فإذا نفى الله تعالى السؤال ، فلا تظنوا أنه يسألكم ليعرف منكم ، إنما يسألكم لتقروا ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : إثبات السؤال له معنى ، ونَفْيه له معنى ، فإذا نفى فقد نفى سؤال العلم من جهتهم ، وإذا أثبت فقد أثبت سؤال الإقرار من جهتهم ؛ لتكون الحجة ألزم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال : التلميذ المهمل الذى يتظاهر أمام أبيه بالمذاكرة ، فيفتح كتابه ويهزّ رأسه كأنه يقرأ ، فإذا ما سأله والده لم يجده حصَّل شيئاً ، فيقول له : ذاكرت وما ذاكرت .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/٤٦٧) بلفظ « امرأة أصابت ورجل أخطأ » أخرجه الزبير بن بكار . قال ابن كثير : فيه انقطاع . وأورده أيضاً بنحوه وعزاه لأبى يعلى . قال ابن كثير : إسناده جيد قوى .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [الأنفال] هكذا نَفْى وإثبات فى آية واحدة لفاعل واحد ، لأن رسول الله ﷺ أخذ فعلاً حَفْنة من الحصى ورَمَى بها نحو الأعداء(١) ، لكن هل فى قدرته أن يُوصّل هذه الحفنة إلى أعين الأعداء جميعاً ؟ فالعمل والرمى للرسول ، والنتيجة والغاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ (١٠٣) ﴾

ثَقُلَتْ وخفَّتْ هنا للحسنات. يعنى: كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة .

ويمكن أن نقول : ثقلت موازينه بالسيئات يعنى : كَثُرَتْ الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة فى الأمر الحسنات .

والميزان يقوم على كفَّتين فى أحدهما الموزون ، وفى الأخرى الموزون به ، وللوزن ثلاث صور عقلية : أن يخفّ الموزون ، أو يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين : خفت

---

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : « رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٩٤) .

موازينه ، وثقلت موازينه ، كمـا جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

أما حالة التساوى فقد جاءت لها إشارة رمزية فى سورة الأعراف :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف]

فمَنْ غلبت حسناته ذهب إلى الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته ذهب إلى النار ؛ وبقى أهل الأعراف بين الجنة والنار ؛ لأنهم تساوت عندهم كفَّتا الميزان ، فلا هو من أهل الجنة ، ولا هو من أهل النار ، فهم على الأعراف ، وهو السُّور بين الجنة والنار ينظرون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء .

ثم يقول تعالى فى شأنهم : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف] ؛ لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، وعفوه سبق عقابه .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدل على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجِرْم يعطى ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق فى كل عمل له كتلة ، فحسنةٌ كذا بكذا ، والمراد من الميزان دقَّة الفَصْل والحساب .

ونلحظ فى الآية : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .. (١٠٢) ﴾ [المؤمنون] بالجمع ولم يقل : ميزانه ، لماذا ؟ قالوا : لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللمال ميزان ، وللحج ميزان .. إلخ ثم تُجمع له كل هذه الموازين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [المؤمنون] لأنهم أخذوا لها القليل العاجل ، وفوَّتوا عليها الكثير الآجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية ؛ لأن الدنيا

أجلها محدود ؛ والزمن فيها مظنون، والخير فيها على قَدْر إمكانات أهلها .

أما الآخرة فزمنها مُتيقّن ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على قَدْر إمكانات المنعم عزَّ وجلَّ ، فلو قارنتَ هذا بذاك لتبيّن لك مدى ما خَسِروا ، لذلك تكون النتيجة أنهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تُبشّع الجزاء فى جهنم ، وتُصوِّر أهوالها ، وذلك رحمة بنا لنرتدع من قريب ، ونعمل جاهدين على أن ننجى أنفسنا من هذا المصير ، وننفر من هذه العاقبة البشعة ، كما يقول الشرع بداية : سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدى الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة القصاص : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

وقد هُوجم القصَاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفى أن قُتل واحد من المجتمع ، فكيف نقتل الآخر ؟ والقرآن لم يضع القصَاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقى القاتل والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيُقتل قصاصاً يمتنع ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبَّروا عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى فى تبشيع جهنم :

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾

اللفح : أن تمسَّ النار بحرارتها الشىء فتشويه ، ومثله النَّفْح[1]

---

(١) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنى واحد إلا أن النفح أعظم تأثيراً منه . قال أبو منصور : ومما يؤيد قوله قوله تعالى : ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. (٤٦)﴾ [الأنبياء] [لسان العرب ـ مادة : لفح] .

﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾ [المؤمنون] كلمة « كالح » نقولها حتى فى العامية : فلان كالح الوجه . يعنى : تغيّر وجهه تغيُّراً ينكر لا تستريح له ، وضربوا للوجه الكالح مثالاً برأس الخروف المشوية التى غيَّرت النار ملامحها ، فأصبحت مُشوَّهة كالحة تلتصق الشَّفَة العليا بجبهته ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه فى شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبحانه خطاباً يُلقى اللوم عليه ويُحملهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذرهم ، وأرسل إليهم رسولاً يحمل منهجاً يبين ثواب الطائع وعقاب العاصى ، ونبَّههم إلى كل شىء ، ومع ذلك عصَوْا وكذَّبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وَفْق ما أمر الله . إذن : فهُم المقصرون .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) ﴾

يعنى : أنتم السبب فيما أنتم فيه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النارَ يخاطبهم ربهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ .. (٧١) ﴾ [الزمر]

فالآية تثبت أنهم هم المذنبون أمام نفوسهم : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] فلم نفاجئهم بعقوبة على شىء لم نُبصِّرهم به ، إنما أرسلنا إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم ويُبشِّرهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قبل أن يقع نعمة من النعم ، كما قلنا فى سورة الرحمن عن قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] وهل النار

والشواظ نعمة ؟ نعم نعمة ؛ لأننا نحذرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زِلْتَ فى سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك .

والآيات - كما قلنا - تُطلَق على الآيات الكونية التى تلفت الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذى أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطلَق على المعجزات التى تثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتُطلَق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات تُتْلَى عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كذَّبْتم ، ومعنى ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٠٥) ﴾ [المؤمنون] أننا نبهناكم إليها ، ولفتْنَا أنظاركم إلى تأملها ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾

﴿ شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أى : الشقاوة[1] وهى الألم الذى يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانباً ، يقولون : فلان شقى يعنى مُضيَّق عليه ومُتعَب فى كل أمور حياته ، لا يرى راحة فى شىء منها .

وكأنهم بقولهم : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] يريدون أن يُبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقون بها عند الله تعالى ، يقولون : يا ربَ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل ، فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .

ونقول لهم : لقد كتب الله عليكم أزلاً ؛ لأنه سبحانه علم أنكم ستختارون هذا .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٦٨٧/٦) : « قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصماً « شقاوتنا » » .

فوصفوا أنفسهم بالظلم ، كما قال سبحانه عنهم فى آية أخرى :
﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

﴿ اخْسَئُوا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] كلمة بليغة فى الزجر تعنى : السكوت مع الذلّة والهوان ؛ لذلك يقولونها للكلاب ، وقد تقول لصاحبك : اسكت على سبيل التكريم له ، كما لو حدَّثك عن فضلك عليه ، وأنك قدَّمْتَ له كذا وكذا فتقول له : اسكت اسكت ، تريد له العزة ، وألاَّ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .

والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمُّل الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك] يعنى : ضعيف عن تحمُّل الضوء .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : مطرودون مُبْعدون عن سُمو الإنسانية وعزّتها ؛ لذلك نرى القردة مفضوحى السَّوْءة ، خفيفى الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .

إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة ، إنما كونوا على هيئة القردة ؛ لذلك نراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العرْض وانكشاف العورة .

إذن : المعنى ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] اسكتوا سكوتاً بذلّة وهوَان ، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن الأرت[1]، وكانوا يقولون هذا الكلام، وهو كلام طيب لا يرد، بل يجب أن يُسمع، وأن يُحتذَى به، ويُؤخَذ قدوة.

﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

تكلمنا عن هذه المسألة فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[2] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

إذن: اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محلَّ سخرية واستهزاء، وبالغوا فى ذلك، حتى لم يَعُدْ لهم شُغل غير هذا، وحتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكّر والتأمل فلم يَبْقَ عندهم طاقة فكرية

---

(١) قاله مجاهد فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٤٦٨٨/٦).

(٢) فكهين: أى يغتابون الناس ويتناولون منهم ويتندرون بهم، والفكه: الذى يُحدِّث أصحابه ويضحكهم. [لسان العرب ـ مادة: فكه]

تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى : ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي .. (١١٠)﴾ [المؤمنون] أى : شغلكم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمَنْ خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقّف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، ويُضحكوا أهلهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾ [المؤمنون] وفى الآية الأخرى : ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة فى كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندّرون بهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوّضهم الله تكريماً ونعيماً ، وهذه مسألة يجب ألاَّ يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإنْ كان الساخر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالمكرِّم لك ربك بقدرة لا حدودَ لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أذاهم ، ولذة النعيم الذى تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢)﴾

لبث : مكث وأقام ، فالمعنى : ما عدد السنين التى ظللتموها فى الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال ؟

قالوا : لأن الذى شغلكم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، ونعيماً باقياً هو الدنيا التى صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها

- وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا فى الدنيا - فهل يُقارن بما أُعِدَّ للمؤمنين فى الآخرة من النعيم المقيم الذى لا يفوتهم ولا يفوتونه ؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا فى ساعتها ، فيكون لبثهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من أيام آدم فيكون لبثهم طويلاً ، إذن : فاللبث فى الأرض مقول بالتشكيك كما يقولون ، لكن هل يدرك الأموات المدة التى لبثوها فى الأرض ؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن؛ لأن إدراك الزمن إنما يتأتَّى بمشاهدة الأحداث ، فالميت لا يشعر بالزمن ؛ لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالنائم لا يدرى المدة التى نامها ، وكُلُّ مَنْ سُئِلَ هذا السؤال قال ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

قالها العُزَير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع النائم تحديد ذلك بدقة ؛ لأن الزمن ابْنُ الحدث ، فإنِ انعدم الحدث انعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عمَّنْ ماتوا حتى من أيام آدم عليه السلام : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً فى الإجابة على هذا السؤال :

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾

أى : أصحاب العدِّ الذين يمكنهم العدُّ والحساب ؛ لأننا لم نكن فى وعينا لنعُد كما لبثنا ، والمراد بالعادِّين هم الملائكة الذين يعدُّون الأيام ويحسبونها(١).

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٩٠) فى معنى (العادِّين) قولين :
- الحُسَّاب الذين يعرفون ذلك . قاله قتادة .
- الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا . قاله مجاهد .

﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

إنْ : بمعنى ما ، يعنى : ما لبثتم إلا قليلاً ، فمهما قدَّرْتم من طول الحياة حتى مَنْ مات منذ أيام آدم عليه السلام ، فسيكون قليلاً بالمقارنة بالزمن الذى ينتظركم فى الجزاء الأخروى ، فما لبثتموه فى الدنيا لا يُقَاس بعذاب الآخرة الممتد الباقى ، هذا ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون] تعلمون طول ما تصيرون إليه من العذاب الخالد المقيم .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(حسبتم) ظننتم يعنى : ماذا كنتم تظنون فى خَلْقنا لكم ؟ كما قال فى موضع آخر : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت] وكلمة ﴿عَبَثًا .. ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون] العَبَث هو الفعل الذى لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيم تعبث ؟ لمن يفعل فِعْلاً لا جدوى منه ، وغير العبث نقول : الجد ونقول : اللعب واللهو ، كلها أفعال فى حركات الحياة . لكن الجد : هو أن تعمل العمل لغاية مرسومة .

أما اللعب فهو أن تعمل عملاً هو فى واقع الأمر لا غايةَ له الآن إلا دُرْبتك أنت على الحركة وشُغْل ملكاتك حتى لا تتوجه إلى فساد شئ أو الإضرار بشئ ، كما تشترى لولدك لعبة يلهو بها ، وينشغل بها عن الأشياء القيِّمة فى المنزل ، والتى إنْ لعب بها حطّمها ، فأنت

تصرف حركاته إلى شيء لتمنعه عن أشياء ضارة ، أو تُعلِّمه باللعب شيئاً يفيده فيما بعد ، كالسباحة أو ركوب الخيل .

واللهو كاللعب فى أنه يكون لغاية قد تأتى بعد ، أو لغاية تنفى ضرراً ، إلا أن اللعب حين تزاوله لا يشغلك عن مطلوب ، أما اللهو فهو الذى يشغلك عن مطلوب ، فمثلاً الطفل دون السابعة يلعب فى أوقات الصلاة ، فيُسمّى فعله لعباً ، فإنْ كان فى العاشرة يُسمَّى فعْله لَهْواً ؛ لأنه شغله عن الصلاة ، وهى واجبة عليه .

واللعب يُدربك على أشياء قد تحتاجها وقت الجد فتكون سهلة عليك ، أما العبث فلا فائدةَ منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا** .. (١١٥) ﴾ [المؤمنون] فنفى أن يكون الخَلْق عبثاً بلا غاية ؛ لأن الله تعالى خلق الخَلْق لغاية مرسومة ، ووضع لهم منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخَلْق إلا الخالق .

كما قلنا سابقاً : إن الصانع الذى صنع هذا الميكروفون لم يصنعه ثم طلب منا أن نبحث له عن مهمة ، إنما قبْل أنْ يصنعه حدد له مهمته والغاية منه ، وهى أن ينقل الصوت لمسافات بعيدة ، إذن : فالغاية مرسومة بدايةً وقبل العمل .

فالذى يحدد الغاية هو الصانع المبدع للشىء ، وهو أيضاً الذى يحدد صلاح الصنعة لغايتها ، ويحدد قانون صيانتها لتؤدى مهمتها على أكمل وجه ، وأنت أيها الإنسان صنعة الله فَدَعْهُ يحدد لك غايتك ، ويضع لك منهج حياتك وقانون صيانتك ، بافعل كذا ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا يأتى من أن الصنعة تريد أن تأخذ حق الصانع فى تحديد الغاية ، وفى تحديد المنهج ، وقانون الصيانة ، وليس من مهمتها ذلك ، والخالق حينما يحدد لك الغاية يضع لك المنهج الذى

يُعينك على غـايتك ، إنما أنت : متى تستطيع أن تدرك الأشـياء لتضع غاية أو تضع قانون الصيانة ؟

إنك لا يمكن أن تبلغ هذا الـمبلغ قـبل سنٍّ العـشرين على أحـسن تقـدير ، فـمَنْ – إذن – يضع لك غـايتك وقانـون صيـانتك قـبل هذه السنِّ ؟ لا أحدَ غير خالقك عز وجل ، ولن يستقيم الحال إلا إذا تركنا الصَّنْعة للصانع غايةً ومنهجاً وصيانة .

وكيف تظن أن الله تعالى خلقك عَبثاً ، وهو الذى استدعاك للوجود وأعدَّ لك مُقوِّمـات حياتك وضروريـاتها ، وحثَّك بإعـمال عقلك فى هذه المقومات لتستطيع أن تُرفِّه بالطاقـة والقدرة المخلوقة لله تعالى لتُسعِدَ نفسك وتُرفِّه حياتك .

وقـد كنا فى الماضى نجلـس على ضوء المـسرجـة ، والآن على أضواء النيون والكريستال ، ومهمـا ترفهت حياتك وتوفرت لك وسـائل الراحة فـلا تنْسَ أنها عطَاء من الله فى المادة وفى الطاقـة وفى العقل المفكر ، كلها مخلوقة لله عَز وجل ، لا تملك أنت منها شيئاً ، بدليل أن الله إذا سلبك العقل لَصِرت مجنوناً ، ولو سلبك الطاقة والقدرة لصرتَ ضَعيفاً لا تستطيع مجـرد التنفس ، فهذه نِعَمٌ موهوبة لك ليست ذاتية فيك .

إذن : عليك أن تـتـأمل فى خـالقك عـز وجل ، ومـا وهبك من مقـومات الحياة ، لتـعلم أن هذا الخَلْق لا يمكن أن يكون عبـثاً ، ولابد أن له غاية رسمـها الخالق سبحـانه ، وأنت فى ذاتك تحاول أن تضع لك غاية فى جزئية ما من الغاية الكبرى التى خلقك الله لها .

ألاَ ترى الولد الصغيـر كيف تعتنى به وتُعلِّمه وتنفـق عليه مرحلة بعد الأخرى ، حتى يصل إلى الجامعة ، وتتعلق أنت بأمل كبير فى أن

يكون لولدك هذا مكانة فى المجتمع ومنزلة بين الناس ؟ هذه العملية فى حد ذاتها غاية ، لكن بعد أن يحصل على الوظيفة المرموقة والمكانة والمنزلة ينتهى الأمر بالموت .

إذن : لا بُدَّ من وجود غاية أخرى أعظم من هذه ، غاية لا يدركها الفناء ، وليس لها بعد ، هذه الغاية الكبرى هى لقاء الله وملاقاة الجزاء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وعلينا أن نأخذ كل مسائل الحياة وجزئياتها فى ضوء هذه الحقيقة ، أننا لم نُخلَق عَبثاً ، بل لغاية مرادة لله ، ولها أسباب توصل إليها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] (تُرجَعون) يعنى : رَغْماً عنكم ، ودون إرادتكم ، كأن شيئاً ما يسوقهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] يعنى : يُدفعون إليها ، ويُضربون على أقفائهم ، ويُساقون سَوْقَ الدواب .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾

﴿ فَتَعَالَى .. (١١٦) ﴾ [المؤمنون] تنزَّه وتقدَّس ، وكلمة العلو تعنى علو المنزلة . نقول : علا فلان على فلان ، أما حين نقول : تعالى الله ، فالمراد العلو الأعلى ، وإن وهب علواً للغير فهو عُلو الدانى ، وعلو المتغير ، بدليل أنه تعالى يُعليك ، وإنْ شاء سلبك ، فالعلو ليس ذاتياً فيك .

وكلمة الملك نعرفها فيمَنْ يملك قطعة من الأرض بمَنْ فيها ويحكم وله رعية ، ومن هذه المادة : المالك . ويُطلَق على أيٍّ مالك لأيِّ شيء ، ولو لم يكن لديه إلا الثوب الذى يلبسه فهو مالك ، أما : الملك فهو مَنْ يملك الذين يملكون ، فله ملك على المالكين ، وهذا الملك لم يأخذ مُلْكه بذاته ، إنما بإيتاء الله له .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فلو كان مُلْك هؤلاء الملوك ذاتياً ما نُزِع منهم ، ألاَ ترى الملك من ملوك الدنيا يقوى ويستتب له الأمر ، ويكون له صولجان وبَطْش وفَتْك .. إلخ ، ومع كل هذا لا يستطيع الاحتفاظ بملكه ؟ وفى لحظة ينهار هذا الملْك ولو على يد جندى من جنوده ، بل وربما تلفظه بلاده ، ولا تقبل حتى أنْ يُدفن بها ، وتتطوع له بعض الدول ، وتقبل أنْ تُوارى رفاته بأرضها ، فأىُّ ملك هذا ؟

وهذه آية من الآيات نراها فى كل عصر - وكأنها قائمة - دليلاً على صدق الآية : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] إذن : إنْ ملكك الله فاعلم أنه مُلْك موهوب ، مهما استتب لك فلا تضمن بقاءه ؛ لأنَّ الله تعالى ملَّكك لغاية ، ولا يملك الغاية إلا هو سبحانه .

لذلك كان الحق - سبحانه وتعالى - ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] يعنى : الذى لا يزحزحه أحد عن مُلْكه ، أو يسلبه منه ، وهو الذى يتصرّف فى مُلْكه كيف يشاء لا ينازعه فيه أحد ، وإنْ أعطى من باطن مُلْكه تعالى مُلْكاً لأحد ، فيظل فى يده سبحانه زمام هذا الملْك ، إنْ شاءَ بسطه ، وإنْ شاء سلبه ونزعه . فهو وحده الملك

الحق ، أما غيره فملْكهم موهوب مسلوب ، وإنْ ملَّك سبحانه أناساً أمْرَ أناس فى الدنيا يأتى يوم القيامة فيقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ..(١٦)﴾ [غافر]

وتلحظ أن كلمة ﴿تُؤْتِى الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] سهلة على خلاف ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] ، ففى النزع دليل على المشقة والمعاناة ؛ لأن صاحب الملْك يحاول أن يتمسك به ويتشبَّث وينازع ، لكن أينازع الله ؟

فقوله سبحانه : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] المراد : تعالى عن أن يكون خلْقكم عبثاً ، وتعالى عن أنْ تشردوا من قبضته ، أو تخرجوا عن نفوذه ، أو تستقلُّوا بخلْقكم عن سيطرته ، وتعالى أن تُفلتوا من عقابه أو تمتنعوا عنه ؛ لأنه لا إله غيره : ﴿لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى يحكم فى إطار : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

فإذا قال لك شيئاً فاعلم أنه لا إله غيره يعارضه .

والعرش : رمز لاستتباب الأمر للمالك ؛ لأنه ينشغل بتدبير مُلْكه والقَضاء على المناوئين له وتأديب أعدائه ، فإذا ما استتبَّ له ذلك جلس على عرشه ، إذن : الجلوس على العرش يعنى استقرارَ الأمور واستتباب أمر الملك ؛ لذلك فإن الحق سبحانه بعد أن خلق الخَلْق استوى على العرش .

والعرش يفيد أيضاً السيطرة والتحكم ، وعَرْش الله عرش كريم ؛

لأنه تعالى عليك لا ليُذلّك ويهينك ، وإنما تعالى عليك ليعاليك إليه ويعطيك من فضله . كما سبق أنْ قُلْنا : إن من مصلحتنا أن يكون الله تعالى مُتكبِّراً ، ومن عظمة الحق سبحانه أن يكون له الكبرياء ، فساعة يعلم الجميع أن الكبرياء لله وحده لا يتكبر أحد على أحد .

يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية]

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) يعنى : ليعيش فى ظله ، فالحق - تبارك وتعالى - يتعالى لصالح خَلْقه .

ومن ذلك ما قُلْناه فى مسألة العبودية ، وأنها مكروهة ثقيلة إنْ كانت للبشر ؛ لأن السيد يأخذ خير عبده ، إنما هى محبوبة إنْ كانت لله تعالى ؛ لأن العبودية لله يأخذ العبد خير ربه .

فإنْ كانت عروش الدنيا للسيطرة والتحكُّم فى مصائر الناس وامتصاص دمائهم وأَخْذ خيراتهم ، فعرش ربك عَرْش كريم ، والكريم فى كل شىء أشرف غاياته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان]

وحين يوصينا بالوالدين ، يقول سبحانه : ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

فالعرش الكريم أشرف غايات المُلْك ؛ لأن المُلْك ليس تسلُّطاً وقَهْراً ، إنما هو مُلْك لصالح الناس ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الحياة وزَّع فيها أسباب الفضل ، ولكنه جعل فيها القوىّ القادر ، وجعل فيها الضعيف العاجز ، ثم أمر القوى أنْ يأخذ بيد الضعيف ،

وأنْ يعوله ، فالكرم استطراق نفع القوى للضعيف ، فكل خَصْلة من خصال الخير توصف بالكرم .

إذن : إياك أن تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعُلو والجبروت ؛ لأنه عرش كريم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

﴿ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : يعبد مع الله ، والعبادة طاعة المعبود فى أمره ونَهْيه ، لكن كيف تدعو إلهاً ، لا ينفعك ولا يضرُّك ، ولا برهانَ عندك على ألوهيته ؟ لذلك هدده سبحانه وتوعّده بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : ربه الحق ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ أن تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون] وتنتهى بقوله : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : بنقيض ما بدأتْ به ، وعليك أنت أنْ تتأمل ما بين هذين القوسين ، وما دامت المسألة مسألة إيمان يفلح أهله ، وكفر لا يفلح أهله ، فتمسَّكوا بربكم ، والتزموا منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) .

وإنْ غلبتكم النفس على شىء من الذنوب فتذكَّروا :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

إنْ هفوتم هفوة فإياكم أن تنسُوا هذه الحقيقة ، والجئوا إلى ربكم فإنه غفار شرع لكم التوبة لتتوبوا ، والاستغفار لتستغفروا ، وهو سبحانه أرحم بكم من الوالدة بولدها ، وهو خير الراحمين .

والمعنى ﴿اغْفِرْ .. (١١٨)﴾ [المؤمنون] أى : الذنوب السابقة الماضية ﴿وَارْحَمْ .. (١١٨)﴾ [المؤمنون] أى : ارحمنا أن نقع فى الذنوب فيما بعد ، واعصمنا فى مستقبل حياتنا من الزلل . إذن : تمسَّك بربك وبمنهج ربك فى كل حال ، لا يصرفك عنه صارف .


سُورَةُ النُّورِ

سورة النور[1]

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ﴾

اسمها سورة (النور)[2]، وإذا استقرأنا موضوع المُسمَّى أو المُعْنون له بسورة (النور) تجد النور شائعاً فى كل أعطافها - لا أقول آياتها ولا أقول كلماتها - ولكن النور شائع فى كل حروفها ، لماذا ؟

قالوا : لأن النور من الألفاظ التى يدل عليها نطقها ويعرفها أكثر من أىّ تعريف آخر ، فالناس تعرف النور بمجرد نُطْق هذه الكلمة ، والنور لا يُعرَّف إلا بحقيقة ما يؤديه ، وهو ما تتضح به المرئيات ، وتتجلى به الكائنات ، فلولا هذا النور ما كنا نرى شيئاً .

إذن : يُعرف النور بخاصيته ، وهو الذى يجعل لك قدرة على أن

---

(١) سورة النور ، هى السورة رقم ٢٤ فى ترتيب المصحف الشريف ، وتقع فى الجزء الثامن عشر من المصحف ، وهى سورة مدنية بالإجماع ، قاله القرطبى فى تفسيره (٤٦٩٣/٦) ، نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج ، وهى السورة رقم ١٧ فى ترتيب النزول بالمدينة ، راجع « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى (٢٧/١) . وعدد آياتها ٦٤ آية .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤٦٩٣/٦) : « مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علِّموا نساءكم سورة النور » .

ترى المرئيات ، بدليل أنها إنْ كانت فى ظلمة لا تراها . إذن : فالنور لا يُرَى ، ولكن نرى به الأشياء ، فالله تعالى نور السموات والأرض يُنوِّرهما لنا ، لكن لا نراه سبحانه .

لكن ، هل كل الأشياء مرائى ؟ أليس منها المسموع والمشموم والمتذوّق ؟ قالوا : نعم ، لكن الدليل الأول على كل هذه وفعل الحوادث هى المرئيات ؟ لأن كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً ، ثم حين تسمع ، وحين تشم ، وحين تلمس ، وحين تميز الثقيل من الخفيف ، أو القريب من البعيد . فهذا كله فرع ما يوجد فيك ، بعد ما تؤمن أن الله الذى أوجدك هو الذى أوجد لك كل شىء ، فإذا ما نظرت إلى النور وجدتَ النور أمراً حسياً ترى به الأشياء .

وكانوا فى الماضى يعتقدون أن الإنسان يبصر الأشياء بشعاع يخرج من العين ، فيسقط على الشىء فتراه ، إلى أن جاء العالم الإسلامى الحسن بن الهيثم ، وأبطل هذه النظرية وقال : إن الشعاع يأتى من المرئى إلى العين فتراه ، وليس العكس ، واستدل على ذلك بأن الشىء إنْ كان فى الظلام لا نراه ، ونحن فى النور ، فلو أن الشعاع يخرج منك لرأيته .

وفى ضوء هذه النظرية فهمنا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] فهى مُبْصِرة ؛ لأن الشعاع يأتى من هناك ، فكأنها هى التى ترى .

لكن ، ما نَفْع هذا النور الحسىّ للإنسان الخليفة فى الأرض ؟ أنت حين ترى الأشياء تتعامل معها تعاملاً يعطيك خيرها ويكفّ عنك شرها ، ولو لم ترَ الأشياء ما أمكنك التعامل معها ، وإلا فكيف تسير فى مكان مظلم فيه ما يؤذيك مثل الثعابين أو زجاج متكسر ؟

إذن : لا تستطيع أن تهتدى إلى مواضع قدمك ، وتأخذ خير الأشياء ، وتتجنب شرها إلا بالنور الحسىِّ ، كذلك إنْ سِرْت فى ظُلْمة وعلى غير هُدىً ، فلا بُدَّ أن تصطدم بأقوى منك فيحطمك ، أو بأضعف منك فتحطمه .

لذلك سمَّى الحق - تبارك وتعالى - المنهج الذى يهديك فى دروب الحياة نوراً .

والناس حين لا يوجد النور الربانى الإلهى يصنعون لأنفسهم أنواراً على قَدْر إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المسرجة ولمبة الجاز ، وكان الناس يتفاوتون حتى فى هذه - حتى عصر الكهرباء والفلوروسنت والنيون وخلافه من وسائل الإضاءة التى يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً ، هذا فى الليل ، فإذا ما أشرقتْ الشمس أطفأ الجميع أنوارهم ومصابيحهم ، لماذا ؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يتميز فيه أحد عن أحد .

وكذلك النور المعنوى نور المنهج الذى يهديك إنْ كان لله فيه توجيه ، فأطفىء مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضىء بنورٍ ونورُ ربك موجود ، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نور ربك ، فكما أخذتَ نور الله الحسىّ فألغيتَ به كل الأنوار ، فخُذْ نور الله فى القيم ، خُذْ نُور الله فى الأخلاق وفى المعاملات وفى السلوك يغنيك هذا عن أىِّ نور من أنوار البشر ومناهجهم .

ألاَ ترى النمرود كيف بُهتَ حينما قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - جدله وألجأه إلى الحجة التى لا يستطيع الفكاك منها ، حين قال له : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والحق - تبارك وتعالى - يفيض من أنواره وصفات كماله على خَلْقه الذين جعلهم خلفاء له سبحانه فى الأرض ، فقال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] والخليفة فى الأرض ليس جيلاً واحداً خلقه الله واستخلفه فى الأرض إلى قيام الساعة ، إنما الخليفة أجيال وأنسال تتوالى ، يموت واحد ويُولَد آخر فى حلقات موصولة الأنسال لا الذوات .

والخليفة لا ينجح فى خلافته إلا إذا سار فيها على وَفْق مراد مَن استخلفه ، وآفة الناس فى خلافتهم لله فى الأرض أنْ يعتبروا أنفسهم أُصَلاء لا خلفاء ، فالخليفة فى ذهْنه دائماً هذه الخلافة ؛ لذلك يلتفت إلى الأصل ، وينظر ماذا يريد منه مَن استخلفه .

والحق - تبارك وتعالى - جعل له خليفة فى الأرض لتظهر عليه سمات قدرته تعالى وصفات كماله ، فالله تعالى قادر ، الله عالم ، الله حكيم ، الله غنىّ ، الله رحيم ، الله غفور .. الخ وهو سبحانه يعطى من صفاته ويفيض منها على خَلْقه وخليفته فى أرضه بعضاً من هذه الصفات ، فيعطيك من قدرته قدرة ، ومن رحمته رحمةً ، ومن غنائه غنىً ، لكن تظل الصفة فى يده تعالى إنْ شاء سلبها ، ألاَ ترى القوى قد يصير ضعيفاً ، والغنى قد يصير فقيراً ؟

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليست ذاتية فينا ، وأن هذه الهبات ليست أصلاً عندنا ، إنما هى فَيْض من فيض الله وهبةٌ من هباته سبحانه ، لذلك علينا أن نستعملها وَفْق مراده تعالى ، فإنْ أعطاك ربُّك القدرة فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك ، أعطاك العلم لتنشره على الناس ، أعطاك الغنى لترعى حق الفقير .

إذن : ما دام أن الله تعالى أفاض عليك من صفات الكمال واحتفظ

هو سبحانه بملكية هذه الصفات ، فإنْ شاء سلبها منك ، فعليك أن تستغل الفرصة وتنتهز وجود هذه الخَصْلة عندك ، فتُثمِّرها فيما أراده الله منك قبل أنْ تُسلَب ، حتى إذا سُلبَتْ منك نالتك من غيرك .

فتصدَّق وأنت غنى لتنال صدقة الآخرين إنْ أصابك الفقر ، وأكرم اليتيم لتجد مَنْ يُكرم يتيمك من بعدك ، فإنْ قابلتَ أحداث الحياة بهذه النظرة اطمأنَّ قلبك ، وأمنْتَ من حوادث الزمن ، واستقبلتَ الأحداث بالرضا ، وكيف تهتم وأنت فى مجتمع يرعاك كما رعيته ، ويحملك كما حملته ، ويتعاون معك كما تعاونتَ معه ؟

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** (٩) ﴾ [النساء]

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد من خليفته فى أرضه أن يكون جماعاً لصفات الكمال التى تسعد الخَلْقَ بآثار الخالق فيهم ، وهذه هى الخلافة الحقة .

وسورة النور جاءت لتحمل نور المعنويات ، نور القيم ، نور التعامل ، نور الأخلاق ، نور الإدارة والتصرف ، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أنْ يضعوا لأنفسهم قوانين أخرىَ ؛ لأنه كما قال سبحانه : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** (٤٠) ﴾ [النور] فلو لم تكُنْ هذه الشمس ما استطاع أحد أنْ يصنع لنفسه نوراً أبداً .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد لخليفته فى أرضه أن يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً ؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية ، وأول هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاء سليماً فى وضح النهار ؛ لينتج عن هذا اللقاء نَسْل طاهر جدير

بخلافة الله فى أرضه ؛ لذلك أول ما تكلم الحق سبحانه فى هذه السورة تكلَّم عن مسألة الزنى .

والعجيب أن تأتى هذه السورة بعد سورة (المؤمنون) التى قال الله فى أولها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ [المؤمنون] ثم ذكر من هؤلاء المؤمنين المفلحين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ ﴾ [المؤمنون] وهنا قال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ۝٢ ﴾ [النور] فجاء بالمقابل للذين هم لفروجهم حافظون .

نفهم من هذا أنه لا يلتقى رجل وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ؛ لأنه عز وجلَّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه ، وهو خالق ذرّاته ، ويعلم كيف تنسجم هذه الذرات بعضها البعض ، وهو سبحانه خالق ملكات النفس ، ويعلم كيف تتعايش هذه الملكات ولا تتنافر .

إذن : طبيعى إنْ أردتَ أن تنشىء خليفة فى الكون على غير مراد الله وعلى غير مواصفات الحق ، لا بُدَّ أنْ يضطرب الكون وتتصارع فيه ملَكات النفس ، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إنْ جاء فى الظلام ؟ ساعتها تظهر أمراض النسل من وأْد الأولاد وقتلهم حتى فى بطون الأمهات ، وقد يتشكّك الرجل فى ولده ، فيبغضه ويهمله ويتركه للتشرد.

إذن : لن تستقيم هذه المسألة إلا حين يأتى الخليفة وَفْق مواصفات ربه ، وأنْ يلتقى الزوجان على ما شرع الله فى وضح النهار ، لا أن يندس كل منهما على الآخر فى ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أن يشكَّ فى نِسْبة ولده إليه ، وأن تعتصره هذه الفكرة ، فيهمل ولده وفلذة كبده ، وينفق هنا

وهناك ويحرمه على خلاف النسْل الطاهر ، حيث يتلهف الأب لولده ، ويجوع ليشبع ، ويتعرّى ليلبس .

فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين فى أُبوة صحيحة شرعية وأمومة صحيحة شرعية اجتمعا على نور الله .

ولك أنْ تُجرى مقارنة بين امرأة حملتْ سفاحاً وأخرى حملتْ حَمْلاً شرعياً طاهراً ، ستجد الأولى تحمله على مضض وكُرْه ، وتودّ أنْ تتخلَّص منه وهو جنين فى بطنها ، فإنْ تحاملتْ على نفسها إلى حين ولادته تخلَّصتْ منه فى ليلتها ولو بإلقائه على قارعة الطريق .

أما صاحبة الحمل الشرعى فتتلهف على الولد ، وإنْ تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء ، فإنْ أكرمها الله بالحمل طارت به فرحاً وفخراً ، وحافظت عليه فى مَشْيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع ، فتتحمل آلامه راضيةً ثم تحتضنه وتُرضِعه وتعيش حياتها فى خدمته ورعايته .

فالله يريد أن يأتى خليفته فى أرضه من إخصاب طاهر على أعيُنِ الناس جميعاً وفى نور الله المعنوى ، يريد للزوج أن يأتى من الباب فى ضوء هذا النور ، لا أن يتلصص فى الظلام من باب الخدم .

لذلك يتوعد الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أن يُفسد شرف الخلافة التى يريدها الله طاهرة ، ويُدنِّس النسل ، ويُوغِر الصدور بالأحقاد والعداوات ، ويزرع الشك فى نفوس الخلْق ، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله .

وانظر إلى الإيدز الذى يهدد المجتمعات الآن ، وهو ناتج عن

الالتقاء غير الشرعى ، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعدّاهما إلى الغير ، إذن : من صالح المجتمع كله أن نقيم حدَّ الزنا حتى لا يستشرى هذا الداء .

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شَرْع الله فى مسألة الحدود حين تقضى برَجْم الزانى المحْصَن حتى الموت ، ألاَ يعلم هؤلاء أننا نُضحِّى بواحد لنحفظ سلامة الملايين فى صحة وعافية ؟ ألاَ يروْنَ ما يحدث مثلاً فى وباء الطاعون الذى أعجز العلماء حتى الآن ، ولم يجدوا له علاجاً ، وكيف أن الشرع أمرنا إنْ نزل الطاعون بأرض ألاَّ نذهب إليها ، وأمر مَنْ فيها ألاَّ يخرجوا منها ، لماذا ؟ لنحصر هذا الوباء حتى لا يستشرى بين الناس .

كذلك الحال فى مسألة الزنا ؛ لأن الزانى لا يقتصر شرُّه عليه وحده ، إنما يتعدّى شرُّه إلى المجتمع كله ، مع مراعاة أن الشرع فرَّق بين الزانى المحصن وغير المحصن ، وكذلك الزانية ، ففى حالة الإحصان تتعدد الماءات فى المكان الواحد ، لذلك سُئلنا فى سان فرانسيسكو : لماذا أبحتم تعدُّد الزوجات ، ولم تبيحوا تعدُّد الأزواج ؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة : لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال ؟

قلت : اسألوهم ، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً - يعنى بيوت للدعارة - قالوا : نعم فى بعض الولايات ، قلت : فبماذا احتطتم لصحة المجتمع وسلامته ؟ قالوا : نُجرِى عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع ، قلت : وهل هذا الكشف الدورى يستوعب الجميع ؟ أم أنه مجرد (ششن) وعينات عشوائية .

إذن : من الممكن أن يتسرّب المرض بين هؤلاء الشباب ، وهَبْ

أنك أجريتَ على إحداهن الكشف يوم الأحد مثلاً ، وفى يوم الاثنين جاءها المرض ، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أنْ يأتى الأحد القادم ؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء .

ثم أتُجرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات ؟ وهل اكتشفتم بينهم مثل هذه الأمراض ؟ قالوا : لا لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين . قلت : إذن كان عليكم أنْ تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات ، وأنها تأتى من تعدُّد ماءات الرجال فى المكان الواحد ؛ لأن لكل ماء سياله وله ميكروبات تتصارع ، إن اجتمعت فى المكان الواحد فينشأ منها المرض .

لكن حين يكون للزوجة زوج واحد ، فلن نرى مثل هذه الداءات فى المجتمع ، ومن هنا يأتى دور الوازع الدينى ، فإن فُقد الوازع الدينى فلا بُدَّ من الوازع الحسىّ ليزجر مثل هؤلاء ويُوقفهم عند حدود الله رَغْماً عنهم ، حتى وإنْ لم يكونوا يؤمنون بها .

إذن : هذه أقضية ومشاكل وداءات حدثتْ للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور ، وبقدر ما انتهكوا من حُرُمات الله ، وانظر مثلاً لمن يُضطرّ للسفر إلى مثل هذه البلاد ، كم يكون حَذِراً مُفزَّعاً حين يقيم مثلاً فى فندق ، فيأخذ أدواته الشخصية ، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره ، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه .. الخ كل هذه الاحتياطات .

فالشرع حين يأمر بقتل الزانى أو الزانية إنما فعل ذلك ليسْلَمَ المجتمع بأسْره ، وكثيراً ما نواجه مثل هذه الاعتراضات من أصحاب الرحمة الحمقاء والشعارات الجوفاء ، أهُمْ أرحم بالخَلْق من الخالق ؟ ألاَ يروْن للزلزال أو لحوادث السيارات والطائرات التى تحصد الآلاف

منَ الأرواح ؟ فلماذا هذه الضجة حين نبتر العضو المريض من المجتمع ؟

قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] السورة : مأخوذة من سور البيت ، وهى طائفة من نجوم القرآن أو آياته محوطة ببداية ونهاية ، تحمل أحكاماً وقد تكون طويلة كسورة البقرة ، أو قصيرة كالإخلاص والكوثر ، فليس للسورة كمية مخصوصة ؛ لأنها توقيفية .

﴿ أَنزَلْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] نفهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى مَنْ هو أدنى منه ، كما يكتب الموظف مثلاً يريد التظلُّم لرئيسه : أرفع إليك كذا وكذا ، فيقول الأعلى : وأنا أنزلت القرار الفلانى ، فالأدنى يرفع للأعلى ، والأعلى يُنزل للأدنى .

لذلك يقول تعالى : (أنزلنا) حتى للشيء الذى لا ينزل من السماء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ㉕ ﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان مصدره الأرض ، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه .

﴿ وَفَرَضْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] الشيء المفروض يعنى الواجب أن يُعمل ؛ لأن المشرِّع قاله وحكم به وقدَّره ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] أى : نصف ما قدَّرتم ، إذن : كل شيء له حُكْم فى الشرع ، فإن الله تعالى مُقدِّره تقديراً حكيماً على قَدْره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ① ﴾ [النور] الآيات الواضحات ، وتُطلق الآيات - كما قلنا - على الآيات الكونية التى تلفت أنظارنا إلى قدرة الله وبديع صُنْعه ، وتُطلق على المعجزات التى تثبت صِدْق الرسل ، وتُطلق على آيات القرآن الحاملة للأحكام .

وفى هذه السـورة كـثـيـر من الأحكام إلى أن قـال فـيـهـا الحق سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] وقال : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فطالما أنكم أخذتُم نور الدنيا ، وأقررتُم أنه الأحـسن ، وأنه إذا ظهـر ألغى جـمـيع أنواركم ، فـكذلك خـذوا نور التشريع واعملوا به واعلموا أنه نور على نور .

إذن : لديكم من الله نوران : نور حسى ونور معنوى .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ﴾ [النور] بعد أنْ قال سبحانه أنزلت كذا وكذا أراد أنْ يُلهب المـشاعـر لتُستـقبل آياتـه الاستقـبال الحـسن ، وتُطبَّق أحكامه التطبيق الأمثل يقول : أنزلتُ إليكم كـذا لعلكم تذكرون ، ففيها حَثٌّ وإلهابٌ لنستفيد بتشريع الحق للخلْق .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن أول قضية فيما فرضه على عباده :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾

قلنا : إن الحق سبـحانه تناول هذه المسـألة حرصاً على سـلامة النشء ، وطهـارة هذا الإنسان الذى جـعله الله خليفـة له فى الأرض ، وحين نتـأمل السيـاق القرآنى فى هذه الآية نجد أن كـلمة الزانى تدل على كُلٍّ من الأنثى والذكر ، ففى اللغة الاسم الموصول : الذى للمفرد المذكـر ، والتى للمـفردة المؤنثـة ، واللذان للمثـنى المذكر ، والـلتان للمثنى المؤنث ، والذين لجمع الذكور ، واللائى لجمع الإناث .

لكن هناك أسماء تدل على كل هذه الصـيغ مثل : مَنْ ، ما ، ال .

تقول : جاء مَنْ أكرمنى ، وجاءت من أكرمتنى ، وجاء من أكرمونى .

فكذلك (ال) فى (الزانى) تدل على المؤنث وعلى المذكر ، لكن الحق سبحانه ذكرهما صراحةً ليُزيلَ ما قد يحدث عند البعض من خلاف : أيهما السبب فى هذه الجريمة ، هذا الخلاف الذى وقع فيه حتى الأئمة والفقهاء ، فهناك مَنْ يقول : الزانى واطئ وفاعل ، والمرأة موطوءة ، فالفعل للرجل لا للمرأة ، فهو وحده الذى يتحمل هذه التبعة .

لذلك الإمام الشافعى رضى الله عنه يحكى أن رجلاً ذهب للنبى ﷺ وقال : يا رسول الله وطئت امرأتى فى رمضان . فقال له النبى ﷺ : « كَفِّر » (١)

وأخذ الشافعى من هذا الحديث أن الكفارة إنما تكون على الرجل دون المرأة ، وإلا لقال له الرسول : كَفِّرا .

لكن يجب أن نفرق بين وطىء وجامع : الوَطْءُ فعل الرجل حتى وإن كانت الزوجة كارهة رافضة ، أمَّا الجماع فهو حال الرضا والقبول من الطرفين ، وفى هذه الحالة تكون الكفارة عليهما معاً ؛ لذلك صرَّح الحق تبارك وتعالى بالزانى والزانية ليزيل هذه الشُّبهة وهذا الخلاف .

وأرى فى هذه المسألة أن الذى استفتى رسولَ الله هو الرجلُ ، ولو كانت المرأة لقال لها أيضاً : كفِّرى ، فالحكم خاصٌّ بمن استفتى .

والمتأمل فى آيات الحدود يجد مثلاً فى حَدِّ السرقة قوله تعالى

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : احترقت قال رسول الله ﷺ : لم ؟ قال : وطئت امرأتى فى رمضان نهاراً . قال : « تصدق . تصدق » قال : ما عندى شيء . فأمره أن يجلس ، فجاءه عرقان فيهما طعام . فأمره رسول الله ﷺ أن يتصدّق به . أخرجه مسلم فى صحيحه (١١١٢) .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨) ﴾ [المائدة] فبدأ بالمذكر ، أما في حَدِّ الزنا فقال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. (٢) ﴾ [النور] فبدأ بالمؤنث ، لماذا الاختلاف في التعبير القرآني ؟

قالوا : لأن دور المرأة في مسألة الزنا أعظم ومدخلها أوسع ، فهي التي تغري الرجل وتثيره وتهيج عواطفه ؛ لذلك أمر الحق - تبارك وتعالى - الرجال بغَضِّ البصر وأمر النساء بعدم إبداء الزينة ، ذلك ليسُدَّ نوافذ هذه الجريمة ويمنع أسبابها .

أما في حالة السرقة فعادةً يكون عبْءُ النفقة ومُؤْنة الحياة على كاهل الرجل ، فهو المكلف بها ؛ لذلك يسرق الرجل ، أمَّا المرأة فالعادة أنها في البيت تستقبل ، وليس من مهمتها توفير تكاليف الحياة ، لكن لا مانعَ مع ذلك أن تسرق المرأة أيضاً ؛ لذلك بدأ في السرقة بالرجل .

إذن : بمقارنة آيات القرآن تجد الكلام موزوناً دقيقاً غاية الدقة ، لكل كلمة ولكل حرف عطاؤه ، فهو كلام رب حكيم ، ولو كانت المسألة مجرد تقنين عادى ما التفتَ إلى مثل هذه المسائل .

ثم يأتي الحد الرادع لهذه الجريمة ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. (٢) ﴾ [النور] اجلدوا : أمر ، لكن لمن ؟ لم يقُل أيها الحاكم أو القاضي ؛ لأن الأمر هنا للأمة كلها ، فأمر إقامة الحدود منوط بالأمة كلها ، لكن أتنهض الأمة بأسْرها وتعدّدها بفعل واحد في كل مكان ؟

قالوا : الأمة مثل النائب العام للوالي ، عليه أن يختار مَنْ يراه أهلاً للولاية لينفذ له ما يريد ، ومَنْ ولَّى قاضياً فقد قضى ، وما دام الأمر كذلك فإياك أنْ تُولِّى القضاء مَنْ لا يصلح للقضاء ؛ لأن التبعة - إذن - ستكون عليك إنْ ظلم أو جار ، فالواو والألف في

﴿فَاجْلِدُوا..(٢)﴾ [النور] تدل على معانٍ كبيرة ، فالأمة فى مجموعها لا تستطيع أن تجلد كل زانٍ أو زانية ، لكن حين تولى إمامها بالبيعة ، وحين تختاره ليقيم حدود الله ، فكأنها هى التى أقامتْ الحدود وهى التى نفذت .

لذلك النبى ﷺ يقول : « مَنْ ولّى أحداً أمراً وفى الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »(١)

لماذا ؟ لأنك حين تُولِّى أمور الناس مَنْ لا يصلح لها فى وجود مَنْ يصلح إنما تُشيع الفساد فى المجتمع ، ولا تظن أنك تستطيع أن تخفى شيئاً عن أعيُن الناس ، فلهم من الوعى والانتباه ما يُفرِّقون به بين الكفء وغيره ، وإنْ سكتوا وتغافلوا فإنهم يتساءلون من ورائك : لماذا ولّى هذا ، وترك مَنْ هو أكفأ منه ، لابُدَّ أن له مؤهلات أخرى ، دخل بها من الباب الخلفى ، ولماذا لا نفعل مثله ؟ عندها تسود الفوضى وتضيع الحقوق وينتشر الإحباط والتكاسل والخمول ، ويحدث خلل فى المجتمع وتتعطل المصالح .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نلوم الوالى حين يختار مَنْ لا يصلح قبل أن نلوم أنفسنا أولاً ، فنحن الذين اخترناه ودلَّسْنَا فى البيعة له ، فسلّطه الله علينا ليُدلِّس هو أيضاً فى اختياره ، أمّا لو أدى كل منا واجبه فى اختيار مَنْ يصلح ما وصل إلى مراتب القيادة مَنْ يدلس على الناس ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويتقرب الإنسان للولاية بالعمل وبالجد والإخلاص والأمانة والصدق والتفانى فى خدمة المجتمع .

---

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١) .

ومن رحمة الله تعالى بالخَلْق أنْ يقذف الإخلاص وحُبّ العمل ويزرع الرحمة بالخلق فى بعض القلوب ؛ لذلك ترى فى كل مصلحة أو فى كل مكتب موظفاً متواضعاً يحبّ الناس ويحرص على قضاء مصالحهم ، تراه يرتدى نظارة سميكة يرى من خلالها بصعوبة ، وهو دائماً مُنكبٌّ على الأوراق والملفات ، ويقصده الخَلْق لقضاء مصالحهم : يا فلان أفندى ، أعطنى كذا ، واكتب لى كذا ، وقد وسَّع الله صَدْره للناس فلا يرد أحداً .

هذه المسائل كلها نفهمها من الواو والألف فى ﴿فَاجْلِدُوا .. ②﴾ [النور] أما الجَلْد فهو الضرب ، نقول : جلَده : يعنى ضرب جِلْدَه ، ورأسه : يعنى ضرب رأسه ، وظهَره : ضرب ظهره . والجلد ضَرْبٌ بكيفية خاصة ، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً ؛ لأن الضربة حسب قوتها وحسب الآلة المستخدمة فى الضرب ، فمن الضرب ما يكسر العظم ولا يقطع الجلد ، ومنه ما يقطع الجلد ولا يكسر العظم ، ومنه ما يؤلم دون هذا أو ذاك .

ثم يقول سبحانه :﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ .. ②﴾ [النور] تحذير من الرحمة الحمقاء ، الرحمة فى غير محلها ، وعلى حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيَقْسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرحَمُ

فالرأفة لا تكون فى حدود الله ، ارأفوا بهم فى مسائلكم الخاصة فيما بينكم ، وعجيب أن تدعوا الرأفة فى مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس ، وتنتهكون حرماتهم ، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب ، فأين الرأفة إذن ؟

إذن : لا مجالَ للرحمة وللرأفَة فى حدود الله ، فلسنا أرحم بالخَلْق

من الخالق ، وما وُضِعَتْ الحدود حباً فى تعذيب الناس ، إنما وُضِعَتْ وشُدِّد عليها لتمنع الوَقوع فى الجريمة التى تستوجب الحد ، فقَطْعَ يد واحدة تمنع قَطْع آلاف الأيدى .

والذين يتهمون الإسلام بالقسوة والبشاعة فى تطبيق الحدود أنَسُوا ما فعلوه فى هيروشيما ، وما زالت آثاره حتى الآن ؟ أنسوا الحروب التى يشعلونها فى أنحاء العالم ، والتى تحصد آلاف الأرواح ؟ أهى الرحمة الحمقاء التى لا معنى لها ؟ أم هى الكراهية لحدود الله ؟

ونذكر فى الماضى أنه كان يخرج مع فوج الحجيج قوة حماية وحراسة من الجيش ، تحمى الحجيج من قطاع الطرق ، وكانوا يُسَمُّون بعثة الحج هذه (المحمل) ، فلما أقامت السعودية حكم الله وطبَّقَتْ الحدود أمَّنَتْ الطرق ، واستغنى الناس عن هذه الحراسات مع اتساعها وتشعُّب طرقها ووعورتها بين الجبال والوديان والصحارى الشاسعة التى لا يمكن أن تحكمها أو تحرسها عَيْن بشر ، لا بُدَّ لها من تقنين الخالق عزوجل .

ومع ذلك حين أحْصَوا الأيدى التى قُطِعَتْ وجدوها قليلة جداً ، وأغلبها من خارج المملكة - وأذكر أننى قلتَ مرة فى خطبة عرفة : ارجعوا إلى حكامكم وقولوا لهم : اقطعوا يد السارق ، فالذى لا يقطع يد السارق فى نيته أن يسرق ؛ لذلك يخاف على يده ، فحين تذكر له مسألة قَطْع يد السارق ترتجف يده . والذين يعارضون حدود الله هم أنفسهم يسيرون على مبدأ أن هلاك الثُّلث جائز لإصلاح الثلثين ، لكن تقف حدود الله غُصَّة فى حلوقهم .

والجلْد مائة جلدة يخصّ الزانى غير المحْصَن يعنى غير المتزوج ، أمَّا المتزوج فله حكم آخر لم يأْت فى كتاب الله ، إنما أتى فى سنة

رسول الله ﷺ ؛ ذلك لأن القرآن الكريم ليس كتابَ منهج فقط ، إنما كتابَ منهج ومعجزة ومعه أصول ، من هذه الأصول أنه قال فى آية من آياته : إننا وكلنا رسول الله فى أنْ يُشرِّع للناس .

والحكم الذى يؤخذ من القول عُرْضة لأن نتمحك فيه ونقف أمامه نُقلِّب ألفاظه أو نؤوله ، أمّا إنْ أُخذ الحكم من فعل المشرع ، فليس فيه شكٌّ أو تمحُّك ، وليس قابلاً للتأويل لأنه فعل ، وقد فعل الرسول ورجم الزانى والزانية المحصنين فى قصة ماعز والغامدية ، لأنه مفوض من الله .

ولا بد أن نفرق بين الحدَّيْن ، ففى حَدِّ الأمة إنْ زنت يقول تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] البعض فَهِم من الآية أنها تشمل حدَّىْ الرَّجْم والجَلْد ، فقالوا : فى الجلد يمكن أن تجلد خمسين جلدة ، لكن كيف نجزئ الرجم ؟ وما دام الرجم لا يُجَزَّأ فليس عليها رجم .

ولو تأمل هؤلاء نصَّ الآية لخرجوا من هذا الخلاف ، فالحق سبحانه وتعالى لم يقل ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. (٢٥)﴾ [النساء] وسكت ، إنما قال ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] فخصَّ بذلك حدَّ الجلد ؛ لأن العذاب إيلام حَىٍّ ، أمَّا الرجم فهو إزهاق حياة ، فهما متقابلان .

ألاَ ترى قول القرآن فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١)﴾ [النمل] فالعذاب غير الذبح .

إذن : تجزئة الحد فى الجَلْد فقط ، أمّا الرَّجم فلا يُجزَّأ ، فإنْ زنتِ الأَمَة المحصنة رُجِمَتْ .

وقوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢)﴾ [النور] هذا كلام مُوجِع ، وإهاجة لجماعة المؤمنين ، فهذا هو الحكم ، وهذا هو الحدُّ قد شرعه الله ، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب فطبِّقوا شَرْع الله ، وإلاَّ فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكُّ فى صِدْق هذا الإيمان .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يهيجنا ويثيرنا على أهل هذه الجريمة ، لنأخذ على أيديهم ونُخوِّفهم بما شرع الله من الحدود .

فالمعنى : إنْ كنتم تؤمنون بالله إلهاً حكيماً مشرعاً ، خلق خَلْقاً ، ويريد أن يحمى خَلْقه ويُطهره ليكون أهلاً لخلافته فى الأرض الخلافة الحقة ، فاتركوا الخالق يتصرف فى كونه وفى خَلْقه على مراده عَزَّ وجلَّ ، فالخَلْق ليس خَلْقكم لتتدخلوا فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور] فالأمر لا يقف عند حدِّ التعذيب والجلْد ، إنما لا بُدَّ أن يشهد هذا العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلها أربعة لماذا ؟ قالوا : لأن النفس قد تتحمّل الإهانة إنْ كانت سِراً لا يطَّلع عليها أحد ، فلا يؤلمه أنْ تُعذِّبه أشدَّ العذاب بينك وبينه ، إنما لا يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحدِّ إهانة لصاحبه ، وهى أيضاً زَجْر للمشاهد ، ونموذج عمليٌّ رادع .

لذلك يقولون : الحدود زواجر وجوابر ، زواجر لمن شاهدها أى : تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحدَّ ، وجوابر لصاحب الحد تجبر ذنبه وتُسقِط عنه عقوبة الآخرة ، فلا يمكن أن يستوى مَنْ أقر

وأقيم عليه الحدُ بمَنْ لم يقر ، ولأن الزنا لم يثبت بشهود أبداً ، وإنما بإقـــرار ، وهذا دليل علـى أن الحكم صـــحيح فـى ذِهْنه ، ويرى أن فضوح الدنيـا وعذابها أهونُ من فضوح الآخرة وعذابـــها ، إلا لما أقر على نفسه .

فالمسألة يقين وإيمان ثابت بالقيامة وبالبعث والحساب ، والعقوبة اليـوم أهون ، وإنْ كـان الزنا يثبـت بالشهـود فلربمـا دلَّسُـوا ، لذلك النبى ﷺ كان يأتيه الرجل مُقراً بالزنا فيقول له : « لعلك قبَّلْتَ ، لعلك غمزْتَ ، لعلك لمسْت »[1] يعنى : لم تصل إلى الحد الذى يسمى زنا ، يريد رسول الله ﷺ أن يدرأ الحدَّ بالشبهة .[2]

ولهـذا المبدأ الإسلامى السـمح إنْ أخـذتَ الزانى وذهبت ترجمـه فآلمـه الحجـر فحـاول الفرار يأمرنا الشـرع ألاَّ نتبـعه وألاَّ نلاحـقه ، لماذا ؟ لأنه اعتبر أن فراره من الحد كأنه رجوع عن الإقرار .[3]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (١/٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٢٥) عن ابن عباس قال : لما أتى ماعز بن مالك النبى ﷺ قال له : لعلك قبَّلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول الله . قال : أنِكْتها ؟ - لا يكنى - قال : فعند ذلك أمر برجمه » .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطىء فى العفو خير له من أن يخطىء فى العقوبة » أخرجه الترمذى فى سننه (١٤٢٤) ، والحاكم فى مستدركه (٤/٣٨٤) ، والدارقطنى فى سننه (٣/٨٤) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/٤٥٠) والترمذى فى سننه (١٤٢٨) أن ماعزاً لما وجد مسّ الحجارة يشتد فر ، حتى مر برجل معه لحى جمل (عظم حنكه) فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « هلا تركتموه » قال الترمذى : هذا حديث حسن .

يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى أحد الزوجين على الآخر ، والزانى فيه خِسَّة ، فلا يليق به إلا خسيسة مثله يعنى : زانية ، أو أخس وهى المُشركة ؛ لأن الشرك أخسُّ من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهى من الله ، أمّا الشرك فهو كفر بالله ؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية . وما نقوله فى زواج الزانى نقوله فى زواج الزانية ﴿ وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور]

وهنا يعترض البعض : كيف إنْ كانت الزانية مسلمة : أينكحها مشرك ؟ قالوا : التقابل هنا غرضه التهويل والتفظيع فقط لا الإباحة ؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً أبداً ، فالآية توبيخ لها :

---

(١) **سبب نزول الآية :** ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات ، منها :
- أخرج أحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ فى امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها . فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية . وأخرجه كذلك الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠) .
- أخرج الترمذى فى سننه (٣١٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه قال لرسول الله ﷺ : أنكح عناقاً ، أنكح عناقاً ؟ فامسك رسول الله ﷺ فلم يرد علىّ شيئاً حتى نزلت الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » .

يا خسيسة ، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخسّ .

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة ؛ لأن التى زنتْ تدور بين أمرين : إما أنها أقبلتْ على الزنا وهى تعلم أنه مُحرَّم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردَّت حكم الزنا واعترضت عليه فتكون مشركة ، وفى هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [النور] فهذا سبب طُهْر الأنسال أن يُحرِّم الله تعالى الزنا ، فيأتى الخليفة طاهر النسل والعنصر ، محضوناً بأب وأم ، مضموماً بدفء العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء ؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ ﴾

الرمى : قذف شىء بشىء ، والمحصنات : جمع مُحْصنة من الإحصان ، وهو الحفظ ، ومنه قولنا : فلان عنده حصانة برلمانية مثلاً . يعنى : تكفّل القانون بحفظه ؛ لذلك إنْ أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً ، ومنه أيضاً كلمة الحصن وهو الشىء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله .

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. ۝٨٠ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الدروع التى تحمى الإنسان وتحفظه فى الحرب .

والمحصنات : تُطلَق على المتزوجة ، لأنها حصَّنَتْ نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على الحرة ، لأنهم فى الماضى كانت الإماء هُنَّ اللائى يدعين لمسألة البغاء ، إنما لا تقدم عليها الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة هنداً[1] التى نُسيِّدها الآن بعد إسلامها ، وهى التى لاكتْ كبد سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن ؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله . لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ ينهى النساء عن الزنا قالت : أو تزنى حُرَّة[2] ؟ لأن الزنا انتشر قبل الإسلام بين البغايا من الإماء ، حتى كانت لهن رايات يرفعْنها على بيوتهن ليُعرفْنَ بها .

والمعنى : يرمون المحصنات بما ينافى الإحصان ، والمراد الزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ④﴾ [النور] وهذا يُسمَّى حدَّ القذف ، أن ترمى حُرّة بالزنا وتتهمها بها ، ففى هذه الحالة عليك أنْ تأتى بأربعة شهداء يشهدون على ما رميْتها به ، فإن لم تفعل يُقام عليك أنت حَدُّ القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهى الأمر عند الجلْد ، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً .

﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا .. ④﴾ [النور] لماذا ؟ لأنه لم يَعُدْ أهلاً لها ؛ لأنه فاسق ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④﴾ [النور] والفاسق لا شهادةَ له ، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حَدَّ الجلْد ، ثم

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بن أبى سفيان ، وهى زوجة أبى سفيان بن حرب ، وهى التى لاكت كبد حمزة عم رسول الله ﷺ فى غزوة أحد بعد أن قتله وحشى بتدبير منها .

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣٥٣/٤) فى تفسير آية ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ .. ⑫﴾ [الممتحنة] وفيه أنها قالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : « لا والله ما تزنى الحرة » .

أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته ، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق ، فهو فى مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوِّل له نفسه الخوْضَ فى أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات ؛ لذلك عبَّر عن القَذْف بالرمى ؛ لأنه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة ، أو مجرد ذكرها والحديث عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

اختلف العلماء فى معنى الاستثناء هنا : أهو استثناء من الفِسْق ؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة ؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة منَّة وتكرُّم من الحق - تبارك وتعالى - لأنه لو لم تشرع التوبة كان مَنْ يقع فى معصية مرة ، ولا تُقبل منه توبة يتجرأ على المعصية ويكثر منها ، ولم لا ؟ فلا دافعَ له للإقلاع .

إذن : حين يشرع الله التوبة إنما يحمى المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم ، وفقدوا الأمل فى النجاة . فمشروعية التوبة كَرَم ، وقبولها كرم آخر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** .. ۝١١٨ ﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَصْلَحُوا** .. ۝٥ ﴾ [النور] تدل على أن مَنْ وقعتْ منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة ، وقد ورد فى الحديث الشريف :

« وأتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها ....»[١] لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم فى ناحية ما ، حينما يكبرون ويُحبّون التوبة تراهم شغوفين بحُبِّ الخير وعمل الطاعات ، يريدون أن يُكفِّروا بها ما سبق من السيئات ، على خلاف مَنْ حافظ على نفسه ، ونأى بها عن المعاصى ، فتراه بارداً من ناحيتها يفعل الخير على قَدْر طاقته .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُحذِّر عباده : يا عبادى احذروا : مَنْ أخذ منى شيئاً خلْسة أو ترك لى حكماً ، أو تجرأ علىَّ بمعصية سيتعب فيما بعد ، ويلاقى الأمَّرْين ؛ لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتُجهده لأغفرها له ، وسيحتاج لكثير من الحسنات وأفعال الخير ليجبر بها تقصيره فى حَقِّ ربه .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٣ ، ١٥٨) والترمذى فى سننه (١٩٨٧) والدارمى فى سننه (٢/٣٢٣) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال قال ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . واللفظ للترمذى .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ④﴾ [النور] قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : ألا تسمعوا يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا : يا رسول الله إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فكره رسول الله ما جاء به واشتد عليه فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجاً . فنزلت آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ .. ⑥﴾ [النور] فقال رسول الله ﷺ : أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً . فقال : قد كنت أرجو ذاك من ربى . وذكر باقى الحديث . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠ ، ١٨١) .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق - تبارك وتعالى - عن الذين يرمون المحصنات ، وبيّن حكم القذف ، أراد أنْ يُبيِّن حكم الرمى إنْ كان من الزوج لزوجته ؛ لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه أن يكون مُؤدباً بأدب الشرع ، ولا يجرح الأولاد برمى أمهم ولا ذنب لهم .

لذلك شرع الحق - سبحانه وتعالى - فى هذه الحالة حكماً خاصاً بها هو الملاعنة ، وقد سُمِّيت هذه الآية آية اللعان .

ويُرْوَى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إنى رأيتُ فلاناً على بطن زوجتى ، فإنْ تركتُه لآتى بأربعة شهداء لقضى حاجته وانصرف ، وإنْ قتلتُه فقد اعتديْتُ عليه[1] .

إذن : ما حَلّ هذا اللغز ؟

وينبغى أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بدايةً ، إنما يترك فى الكون من أقضية الحياة وأحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ، بحيث ينزل الحكم فيصادف الحاجة إليه ، كما يقولون : موقع الماء من ذى الغُلَّة الصَّادى ، يعنى : حين ينزل الحكم يكون له موضع فيتلقفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أنْ كانوا

---

(١) لفظ الحديث عند الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٣٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - جاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى » الحديث .

يستشرفون لحكم فى مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملاعنة أو اللعان خاصة ، لهذه الحالة التى يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أنْ يأتى عليه بشهود ليثبت هذه الحالة ؛ لذلك جعله الشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهداء الأربع .

يقول : أشهد الله أننى صادق فيما رميتُ به امرأتى ، يقولها أربع مرات ، وفى الخامسة يقول : ولعنة الله علىَّ إنْ كنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهى دور الزوج فى الملاعنة .

﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(يَدْرَأ) أى : يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هى الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول : أشهد الله أنه كاذب فيما رمانى به ، وفى الخامسة تقول : غضب الله علىَّ إنْ كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإنْ حلفتْ فقد تعادلا ، ولم يَعُدْ كل منهما صالحاً للآخر ، وعندها يُفرِّق الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودةَ بعده ، ولا تحل له أبداً[1] .

(١) وقد وردت الرواية بأن امرأة هلال بن أمية والتى رماها بالزنا مع شريك بن سحماء شهدت أربع شهادات أنها لم تفعل ، فلما كانت الشهادة الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت على القول ففرّق رسول الله ﷺ بينهما وقال : « انظروا ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين . فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به جعداً حمش الساقين . أى : تحقق وثبت كذب المرأة وثبت صدق هلال ، فقال ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٦٨) .

هذا التشريع فَضْلٌ من الله ؛ لأنه أنهى هذه المسألة على خير ما تنتهى عليه ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [1]

أى : لولا هذا لَفُضِحتم ولتفاقمت بينكم العداوة ، لكن عصمكم فضل الله فى هذا التشريع الحكيم المناسب لهذه الحالة .

والقذف جريمة بشعة فى حَقِّ المجتمع كله ، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الأواصر ، هذا إنْ كان للمحصنات البعيدات ، وهو أعظم إنْ كان للزوجة ، لكن ما بالك إنْ وقع مثل هذا القول على أم ليست أماً لواحد ، إنما هى أم لجميع المؤمنين ، هى أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة ، والذى سُمِّى بحادثة الإفك ؛ لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أن يُعطينا الأُسْوة فى النبوة نفسها ، ويريد أنْ يُسلِّى عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين ، وقد قيل فيها ما قيل ؛ لذلك ستظل السيدة عائشة أُسْوة لكل شريفة تُرْمَى فى عِرْضها ، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها ، نقول لها : لا عليك ، فقد قالوا مثل هذا فى عائشة .

وتقوم آيات الإفك دليلاً على صدق رسول الله ﷺ - فى البلاغ

---

(١) تكررت ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ..﴿١٠﴾ ﴾ [النور] أربع مرات فى هذه السورة . قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ٢٨٥ : « كرره لاختلاف الأجوبة فيه . إذ جواب الأول محذوف تقديره : لفضحكم . وجواب الثانى قوله ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النور]. وجواب الثالث محذوف تقديره : لعجَّل لكم العذاب . وجواب الرابع ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النور]

عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفظع من ذلك أنْ يرموا زوجة النبى وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ[1] مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى[2] تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

الإفك : لدينا نسَب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية حين تتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه قضية ذهنية ، فإنْ نطقتَ بها فهى نسبة كلامية ، فهل هناك شخص اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإنْ وافقت النسبةُ الكلامية النسبةَ الخارجية ، فالكلام صدْق ، وإنْ خالفت فالكلام كذب .

فالصدق أنْ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب ألاَّ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب قد يكون غير مُتعمد ، وقد يكون مُتعمداً ، فإنْ كان مُتعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كأنْ أخبره شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس كاذباً .

فالإفك ـ إذن ـ تعمُّد الكذب ، ويعطى ضد الحكم ، كأن تقول : محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل ؛ لذلك كان الإفكُ أفظعَ أنواع الكذب ؛ لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة [القاموس القويم ٢/٢٢] قال فى [لسان العرب – مادة عصب] « العصبة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٢) : « الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله ابن أبى بن سلول قبحه الله ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك جماعة وغير واحد . وقيل : المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب » .

يقول تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القُرَى التى جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغيِّر الواقع ، ويقلبه رأساً على عَقِب .

والعصبة : الجماعة التى ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول : عصابة مخدرات ، عصابة سرقات ، يعنى : جماعة اتفقوا على تنفيذ حَدَث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. (١٤)﴾ [يوسف]

وما دام أهلُ الإفْك عصبةً فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة فى التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعذور فى أن يكون كذلك ، ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أُبىٍّ تاجاً ليُنصِّبوه ملكاً على المدينة[1] ، فلما فُوجِىء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيت هذه فى نفسه .

لذلك فهو القائل : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨)﴾ [المنافقون] يقصد أنه الأعزُّ ، فردَّ عليه الحق - تبارك وتعالى - صدقت ، لكن العزة ستكون لله وللرسول وللمؤمنين ، وعليه فالخارج منها أنت .

وهو أيضاً القائل : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧)﴾ [المنافقون] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ،

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٥٨٤) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » .

ويقولها علانية ، ومع ذلك ينكرها بأعماله وتصرفاته ، ويحدث تشويشاً فى الفكر وفى أداء العبارة .

وما دام أن الحق سبحانه سمَّى هذه الحادثة فى حَقِّ أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بُدَّ أنهم قلَبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت فى غزوة بنى المصطلق ، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته : مَنْ تخرج منهن معه . وهذا ما تقتضيه عدالته ﷺ ، وفى هذه الغزوة أقرع بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجتْ معه ، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة : ذهبتُ لأقضى حاجتى فى الخلاء ، ثم رجعت إلى هَوْدَجِى ألتمس عِقْداً لى من (جَزْع ظَفَار)[1] وهو نوع نفيس .

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا ، ولم تجد هَوْدجها فقالت فى نفسها لا بُدَّ أنهم سيفتقدوننى وسيعودون . لكن كيف حمل القوم هودج عائشة ولم تكُنْ فيه ؟ قالوا : لأن النساء كُنَّ خِفَافاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نحيفة ، لذلك حمل الرجال هَوْدجها دون أن يشعروا أنها ليست بداخله . ثم نامت السيدة عائشة فى موضع هودجها تنتظر مَنْ يأتيها ، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليتفقد المكان ويُعقب عليه ، علَّه يجد شيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلَّف عن الرَّكْب .

(١) الجَزْع والجِزْع : نوع من الخرز اليمانىّ ، وهو الذى فيه بياض وسواد تُشبَّه به الأعين ، وظَفَار : قريَة من قرى حِمير منسوبة إلى ظفار أسد مدينة باليمن [لسان العرب ـ مادتا : جزع ، ظفر] .

وكان هذا المعقِّب هو صفوان بن المعطل[1] ، فلما رأى شبحَ إنسان نائم فاقترب منه ، فإذا هى عائشة رضى الله عنها ، فأناخ ناقته بجوارها ، وأدار وجهه حتى ركبتْ وسار بها دون أن ينظر إليها وعَفَّ نفسه ، بدليل أن القرآن سمَّى ما قالوه إفْكاً يعنى : مناقضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولما قَدم صفوان يقود ناقته بعائشة رآه بعض أهل النفاق فاتهموهما ، وقالوا فى حقهما مَا لا يليق بأم المؤمنين ، وقد تولّى هذه الحملة رأسُ النفاق فى المدينة عبد الله بن أُبىٍّ ومسْطح بن أُثَاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش ، فروَّجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١١) ﴾ [النور] لكن ما الخير فى هذا الكلام وفى إذاعته ؟ قالوا : لأن القرآن حين تُتَّهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، وحين يُفضَح قوم على لسان القرآن ، لا بُدَّ أن يعتبر الآخرون ، ويخافوا إنْ فعلوا مخالفة أنْ يفتضح أمرهم ؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان .

نعم ، أصبحت هذه الحادثة خيراً ؛ لأنها نوع من التأييد لرسول الله ولدعوته ، فالحق - تبارك وتعالى - يُؤيِّد رسوله فى الأشياء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه فى الانتصار عليه ، ولو بالتدليس ، وبالمكر ولو بالإسرار والكَيْد الخفى ، ففى ذروة عداء قريش لرسول الله كان

---

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بأرمينية . وقيل : فى سميساط . روى عن النبى ﷺ حديثين . توفى عام ١٩ هـ (الأعلام للزركلى ٣/٢٠٦) . وقال الحاكم فى مستدركه (٣/٥١٨) « مات بشمشاط سنة ستين وقبره هناك » .

إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم .

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ، فحاولوا أن يسحروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه في بئر ذروان في مُشْط ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث رسول الله ﷺ علياً فجاء به[1] .

إذن : عجزوا في المواجهة ، وعجزوا في التبييت والكيد ، وعجزوا حتى في استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا في تشويه صورة النبوة والنَّيْل من سمعتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لأعدائه : اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين .

ومع ذلك ، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون في حقها ، لكن تغيَّر لها رسول الله ﷺ ، فلم يَعُدْ يداعبها كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : « كيف تيكم » وقد لاحظت عائشة هذا التغيُّر لكن لا تعرف له سبباً إلى أنْ تصادف أنْ سارت هي وأم مسْطح أحد هؤلاء المنافقين ، فعثرتْ فقالت : تعس مسْطح فنهرتها عائشة : كيف تدعو على ابنها ، فقالت : إنك لا تدرين ما يقول ؟ عندها ذهبتْ السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عَمَّا يقوله الناس فأخبرتها .

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٨٩) كتاب السلام أن رسول الله ﷺ قال : « جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىَّ فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلىَّ ، أو الذى عند رجلىَّ للذى عند رأسى : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فى أى شىء ؟ قال : فى مشط ومشاطة . قال : وجُفِّ طلعة ذكر . قال . فأين هو ؟ قال : فى بئر ذى ذروان » .

لذلك لما نزلت براءة عائشة فى القرآن قال لها أبو بكر : قومى فاشكرى رسول الله ، فقالت : بل أشكر الله الذى بَرَّأنى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ .. (١١) ﴾ [النور]

عادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد فى الخير ، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال فى الشر ، لماذا ؟ قالوا : لأن فعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع ذراتها وتكوينها ، فالذى يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً فى نفسه ، ولا يعارض ملكَة من ملَكَاته ، أو عادة من العادات .

وهذه نلاحظها حتى فى الحيوانات ، ألاَ ترى القطة : إنْ وضعتَ لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإنْ أخذتْها منك خَطْفاً تفرّ بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك . إذن : فى ذاتية الإنسان وفى تكوينه - وحتى فى الحيوان - ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ .

وأنت إذا نظرتَ إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً ؛ لأن ملَكَات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك فى هذا الفعل ، فإنْ حاولتَ النظر إلى ما لا يحلّ لك تختلس النظرة وتسرقها ، وتحاول سترها حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً غير طبيعى ، لا حَقَّ لك فيه ، فتعارضك ملكَاتُ نفسك ، وذراتُ تكوينك . فالأمر الطبيعى تستجيب له النفس تلقائياً ، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال ، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد بـ (اكتسب) الدال على الافتعال .

---

(١) قصة حادثة الإفك وردت بطولها فى صحيح البخارى (حديث ٤٧٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٦ / ٥٩ ، ٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقوله تبارك تعالى : ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور]

تولّى كبر الشيء : يعنى قام به وله حَظٌّ وافر فيه ، أو نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أُبَىّ الذى قاد هذه الحملة ، وتولّى القيام بها وترويجها ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور] أى : يناسب هذه الجريمة .

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

يُوجِّهنا الحق - تبارك وتعالى - إلى ما ينبغى أن يكون فى مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم وبإيمانهم ، وأنْ يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التى لا تليق بمجتمع المؤمنين ، فكان على أول أُذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصَفْوته من خَلْقه ، فيجعل زوجته محلَّ شكٍّ واتهام فضلاً عن رَمْيها بهذه الجريمة البشعة .

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور] كان من المنتظر قبل أن تنزل المناعة فى القرآن أن تأتى من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام .

و (لولا) أداة للحضّ والحثّ ، وقال : ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ .. ﴿١٢﴾﴾ [النور] لأنه جال فى هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحثّهم على ظنِّ الخير برسول الله أو بزوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم

هم ؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين ، فما بالك بزوجة نبى الله ورسوله ﷺ ؟

﴿ وَقَالُوا .. (١٢) ﴾ [النور] أى : قبل أن ينزل القرآن ببراءتها ﴿ هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور] يعنى : كذب متعمد واضح بيِّن لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق أم المؤمنين التى طهَّرها الله واختارها زوجة لرسوله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٣) ﴾

وسبق أنْ ذكرت الآيات حُكْم القذف ، وأن على مَنْ يرمى المحصنة بهذه التهمة عليه أن يأتى بأربعة شهداء ليثبت صدْق ما قال ، فإنْ لم يأتِ بهم فهو كاذب عند الله ، ويجب أنْ يُقام عليه حَدُّ القذف .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) ﴾

﴿ أَفَضْتُمْ .. (١٤) ﴾ [النور] أن تندفع إلى الشىء اندفاعاً تقصد فيه السرعة ، ومعنى السرعة أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقلَّ مما يتصوّر له ، كالمسافة تمشيها فى دقيقتين ، فتسرع لتقطعها فى دقيقة واحدة ، فكأنهم أسرعوا فى هذا الكلام لما سمعوه ، كما يقولون : خبَّ فيها ووضع .

لكن ، لماذا تفضَّل الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسَّهم العذاب ، ولم يُجازهم على افترائهم على أم المؤمنين ؟

قالوا : لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلةَ إيضاح ، فليس المراد أن يُنزل الله بهم العذاب ، إنما أن يُعلمهم ويعطيهم درساً فى حِفْظ أعراض المؤمنين .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

انظر إلى بلاغة الأداء القرآنى فى التعبير عن السرعة فى إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وَعْى ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقِّى الأخبار يكون بالأُذن لا بالألسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بألسنتهم ، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور]

﴿ بِأَفْوَاهِكُم .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] يعنى : مجرد كلام تتناقله الأفواه ، دون أنْ يُدقِّقوا فيه ؛ لذلك قال بعدها ﴿ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] وهذا الكلام ليس هيناً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله ؛ لأنه تناول عِرْض مؤمن ، وللمؤمن حُرْمته ، فما بالك إنْ كان ذلك فى حَقِّ رسول الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا ما كان يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أنْ تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام . وكلمة ﴿ سُبْحَانَكَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] تقال عند التعجُّب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نُنزِّهه ونُجله ونُعليه أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع فى حقِّ رسوله ﷺ ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفى ، فإنْ كان الكلام بالإثبات جريمةٌ فالكلام بالنفى فيه مَظنة أن هذا قد يحدث.

كما لو قلت : الورِع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكأنه رغم النفى جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه السوء ولو بالنفى ، فذلك ذَمٌّ فى حقِّه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ، ولو حتى بالنفى ، ومعنى ﴿ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] كذب يبهت سامعه ، ويُدهشه لفظاعته ، وشناعته . فنحن نأنف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا مَنكرين له .

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

الوعظ : أن تأتى لقمة الأشياء فتعظ بها ، كالرجل حينما يشعر بنهايته يحاول أنْ يعظَ أولاده ويُوصيهم ، لكن لا يُوصيهم بكُلِّ أمور الحياة ، إنما بالأمورِ الهامة التى تمثل القمة فى أمور الحَياة . ووعظ

الحق - تبارك وتعالى - لعباده من لُطفه تعالى ورحمته ، يعظكم ؛ لأنه عزيز عليه أنْ يؤاخذكم بذنوبكم .

وتذييل الآية بهذا الشرط : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور] حثٌ وإهاجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألاَّ يقعوا فيه مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إنْ عُدْتُم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم ؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ[1] فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ يُحِبُّونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النور] الحب عمل قلبى ، والكلام عمل لسانى ، وترجمة عملية لما فى القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم يتكلَّموا به ؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم التحدث ، ثم السماع دون إنكار .

ولفظاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ، وهى مجرد عمل القلب الذى لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن : المسألة خطيرة .

والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هى للمتهم ، لكن قد تنتهى بحياته ، وقد تنتهى ببراءته ، لكن المصيبة

---

(١) الفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القويم ٧٣/٢] .

أنها ستكون أُسْوة سيئة فى المجتمع .

وهذا توجيه من الحق - سبحانه وتعالى - إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُرَاعى ، وهى : حين تسمع خبراً يخدش الحياءَ أو يتناول الأعراض أو يخدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أنْ تشيعه فى الناس ؛ لأن الإشاعة إيجاد أُسْوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول فى نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٩)﴾ [النور]

والحق - تبارك وتعالى - لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأَسْوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة فى حق رجل محترم مُهَاب فى مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإنْ سمعت فى حَقِّه مَا لاَ يليق فلربما زهّدك ما سمعتَ فى هذا الشخص ، وزهَّدك فى حسناته وإيجابياته فكأنك حرمتَ المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هى التعليل الذى يستر الله به غَيْب الخَلْق عن الخَلْق ، إذن : ستْر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثرى الخير فى المجتمع وتُنميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على علاَّتهم ، وصدق الشاعر الذى قال :

فَخُذْ بِعلْمى ولاَ تركَنْ إلىَ عَملِى   وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

انظر كم فضل من الله تعالى تفضّل به على عباده فى هذه الحادثة ، ففى كل مرحلة من مراحل هذهِ القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. (٢٠) ﴾ [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإنْ ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يُفهَم من السياق وتقديره : لَفُضحْتُم ولَهلكتم ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أنْ تُقدِّره كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفى موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس] فالحق - سبحانه وتعالى - شرع منهجاً ويجب مَنْ يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته فى تقبُّل هذا العمل . إذن : ففضْل الله هو القاسم المشترك فى كل تقصير من الخلْق فى منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بُدَّ أنْ يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ[1] مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾

---

(١) زكا : طهر وصلح فهو زكى وهى زكية . [القاموس القويم ١/٢٨٧] قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « أى : ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً » على قراءة (زكَى) أما على قراءة (زكّى) : « أى أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هى بفضله لا بأعمالكم » .

كأن الشيطان له خطوات متعـددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسببَّة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقـعة ثابتـة ، حيث امتنع عن السـجود لآدم ، وعـصى أمر الله له ، بل وأبدى ما فى نفسه وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] وهكذا علّل امتناعه بأنه خير ، وكأن عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتنـاعه عن السـجود ، إنما يـحذرنا منه ، ويُنبِّـهنا إلى خطره ويُربِّى فينا المناعة من الشيطان ؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هى عداوة لها منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عـرف كيف يقسم ، فـدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خَلْقه ، فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص]

فلو أرادنا ربنا ـ عـز وجل ـ مـؤمنـين ما كـان للـشيـطان علينا سبيل ، إنـما تركنا سبحـانه للاختيار ، فـدخل علينا الشيطان من هذا الباب ؛ لذلك قـال بعدها : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر] فمَن اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مـسـألة العـداوة هذه لـيست بين الحق سـبـحـانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبنى آدم .

فقـوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النور] نداء : يا من آمنتم بإله كأنه يقـول : تَنبَّهوا إلى شـرف إيمانكم به ، وابتعدوا عـما يُضـعف هذا الإيمـان ، أو يفُتُّ فـى عَضُـد الـمؤمـنين بأىٍّ وسـيلة ، وتأكّدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

﴿ لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (٢١) ﴾ [النور] فإنْ وسوس لك من جهة ، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً في هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى ، وزيّن لك من باب آخر ، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقعك ، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف في تكوينه ، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة .

والشيطان : هو المتمرد العاصي من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائع والعاصي ، والعاصي منهم هو الشيطان ، وعلى قمتهم إبليس ؛ لذلك يقول تعالى في سورة الكهف : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف]

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين المعصية من قِبل النفس والمعصية من قِبل الشيطان ، فالنفس تُلح عليك في معصية بعينها لا تتعدّاها إلى غيرها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، فإن امتنعت عليه في معصية جرَّك إلى معصية أخرى أيّاً كانت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٢١) ﴾ [النور] ولك أنْ تسأل : أين جواب (مَنْ) الشرطية هنا ؟ قالوا : حُذف الجواب لأنه يُفهم من السياق ، ودَلَّ عليه بذكر علَّته والمسبِّب له ، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب : مَنْ يتبع خطوات الشيطان يُذقْه ربه عذاب السعير ؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، فَمَنْ يتبع خطواته ، فليس له إلا العذاب ، فقام المسبِّب مقام جواب الشرط .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام رَبِّ العالمين . وأسلوب القرآن أسلوب راقٍ يحتاج إلى فكر واعٍ يلتقط المعاني ، وليس مجرد كلام وحَشْو .

ألاَ ترى بلاغة الإيجاز في قوله تعالى من سورة النمل : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

وتأمل ما بين هذيْن الحدثيْن من أحداث حُذفت للعلم بها ، فوعى القارىء ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدهد .. وو إلخ فهذه أحداث يُرتِّبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطانُ نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبيَّن طرقه في الإغواء ، ألم يقل : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] فلا حاجةَ للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوساوس التي تنتابه في صلاته ، وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، ولولا أنك في طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، فنسير نحن خَلْفه (نكُرّ في الخيط كَرّاً) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان استعذْنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

إذن : إياك أنْ تقبل منه طرف الخيط ؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر عليه بعد ذلك .

ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

إذن : للشيطان فى إغواء الإنسان منهج وخُطّة مرسومة ، فهو يأتى الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل ؛ لأن الأولى تشير إلى عُلُوِّ الربوبية ، والأخرى إلى ذُلِّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض فى سجودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [النور]

قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغى أن نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإنْ عاملنا ربنا ـ عز وجل ـ بالعدل لَضِعْنا جميعاً .

لكن ، فى أىِّ شىء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى لم يُعذِّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فَضْل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرَّض للحَدث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع فى المعصية ، وقبل أن تفاجئنا الأحداث ، فقال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾ [طه] وإلا لغرق الإنسان فى دوامة المعاصى .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّى المناعة فى النفس ، فلم يتركنا ربنا ـ عز وجل ـ فى غفلة إلى أنْ نقعَ فى المعصية ، كما نُحصِّن نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَكَىٰ منكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. (٢١) ﴾ [النور] (زكَى) تطهَّر وتنقَّى وصفَّى ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور] وقال : ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور] لأنه تعالى سبق أنْ قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩) ﴾ [النور] ذلك فى ختام حادثة الإفك التى هزَّتْ المجتمع الإسلامى فى قمته ، فمسَّتْ رسول الله ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور : ٢١] بما تُكِنُّه القلوب من حُبٍّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ[٢] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

تورط فى حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساقَ خلف مَنْ روَّجوا لهذه الإشاعة ،

(١) **سبب نزول الآية :** قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « المشهور من الروايات أن هذه الآيات نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى قحافة ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما كان أمر الإفك وقال مسطح فى عائشة ابنة أبى بكر ما قال حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً » .

(٢) يأتل : معناه يحلف . وقالت فرقة : معناه يقصر . [القرطبى ٦/٤٧٤٣] .

وكان مـن هؤلاء مسطح بن أثاثة ابن خـالة أبى بكر الصديـق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال فى عائشة ما قال وخاض فى حـقهـا أقسم أبو بكر ألاّ ينفـق عليه ، وقـد كان يعـيش وأهله فى سَعَة أبى بـكر وفضله ؛ لأن هذه الفتنة جعلتْ بعض أهل الخـير يضِنُّ به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجـميل ولا يُقدِّر صنائع المـعروف ، وهذا الفعـل يُزهِّد الناس فى الخيـر ، ويصرفـهم عن عمل المـعروف ، والله تعالى يريد أنْ يُصحِّح لنا هذه الـمسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبـيعةَ الإيمان ؛ لأن الذى يعصـى الله فيك لا تكافئه إلا بأنْ تطيع الله فيه .

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله وتعفُو عنه أنت ، فإنما تركتَه للعقاب الأقوى ؛ لأنك إنْ عـاقبته عاقبتـه بقدرتك وطاقتك ، وإنْ تركتَ عقابه لله عاقبه بقدْر طاقته تعالى وقدرته .

إذن : العافى أقسى قَلْباً من المنـتقم ، وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأخ حين يعـتدى على أخيـه الأصغـر ، فيأتى الأب فـيجد صـغيره مـهاناً مظلوماً ، فيـأخذه فى حضنه ، ويحاول إرضـاءه وتعويضه عَمَّـا لَحِقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال فى هذه المسألة ولله المثل الأعلى .

ومن هنا يجب عليك أن تُسَـرَّ بمَنْ جعل الله فى جـانبك ، وتُحسن إليه ، لا أنْ تْردّ له الإساءة بمثلها .

إذن : نزلت هذه الآية فى مسطح بن أثاثة حـين أقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليـه وعلى أهله ، وأنْ يـمنع عنه عطاءه وبِرّه ، نزلت لتـصـحح للصِّديـق هذه النظرة وتُوجِّه انتـباهه إلى جـانب الخير البـاقى عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢) ﴾ [النور]

﴿ يَأْتَلِ .. (٢٢) ﴾ [النور] ائتلى مثل اعتلى تماماً ، ومنها تألّى يعنى : حلف وأقسم ، يوجه الحق - تبارك وتعالى - الصِّديق أبا بكر ، ويذكر لفظ ﴿ أُوْلُوا .. (٢٢) ﴾ [النور] الدال على الجماعة لتعظيمه لما له من فضل ومنزلة فى الإسلام ، ففى كل ناحية له فضل ؛ لذلك أعطاه وصفيْن مثل ما أعطى للنبى ﷺ ، فقال للصِّديق : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا.. (٢٢) ﴾ [النور] وقال للنبى ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ..(١٣) ﴾ [المائدة]

كذلك ، ألاَ ترى الصِّدِّيق ثانىَ اثنينِ فى الغار ، وثانى اثنين فى أمور كثيرة ، فهو ثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى قبول دعوة الإسلام الأولى ؛ لذلك صدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال عن الصِّديق : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان » . يعنى : فى التسابق فى الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى إليها لاتبعته »[1] .

ولما كان لأبى بكر أفضال كثيرة فى زوايا متعددة لم يخاطبه بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

ألاَ ترى الصِّديق مع ما عُرِف عنه من الحلم ورقة القلب لما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحدثتْ مسألة الردّة يقف ويقول : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدُّونها لرسول الله لجالدتهم

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب أبى بكر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٥٤) .

بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر »[1] .

هذا موقف الصِّديق رقيق القلب ، ليِّن الجانب ، صاحب الرحمة والحنان ، الذى تقول عنه ابنته « إنه رجل بكّاء[2] » يعنى : كثير البكاء . فى حين يعارضه فى أمر الحرب عمر مع ما عُرف عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض فى موقف كل منهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طَبْعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه ، فموقف الردة هو الذى جعل من الصِّدِّيق أسداً شجاعاً قاسىَ القلب ، ولو أن عمر فى مكانه من المسئولية وفعل كما فعل الصِّدِّيق لقالوا : شِدّة أَلِفها الناس من عمر .

فكأن الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبْع خاص يظل عليه ، إنما الموقف هو الذى يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه فى قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

فالمسلم ليس مفطوراً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أنْ يتصرَّف فى كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله .

فقوله تعالى : ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢)﴾ [النور] يقول للصِّديق : أنت رجل فاضل صدِّيق ، وعندك سعة فلا تعطى ولا تُؤثر

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة بلفظ : « والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦) كتاب الصلاة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن » .

على نفسك من ضيق ، ولا يليق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذى وقع فيه مسْطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بحدِّ القذف ثمانين جلْدة ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع فى حَدٍّ وعُوقب به لا يجوز لأحد أنْ يُعيِّره بذنبه ؛ لأنه تاب وأناب وطهّره الله منه بالحدِّ ، وانتهت المسألة ، وليس لأحد أن يدخل بين العبد وربه .

فكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أنت إلى سعتك ، وكُنْ موصولَ المروءة ، ولا تقطع رحمك ، يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُصفِّى ما فى النفوس من آثار هذه الفتنة التى زلزلتْ المجتمع المؤمن فى المدينة .

ولا يليق بذى الفضل والسَّعَة أنْ يعامل الناس بالعدل ، فصحيح أن مسْطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا الجزاء لا يليق بالصِّدِّيق صاحب الفضل والسَّعَة .

ولو أجريتَ إحصاءً للمؤمنين بإله وللكافرين فى الكون ، ستعلم أن المؤمنين قلَّة والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره فى الكون : أعطوا مَنْ آمن ، واتركوا مَنْ كفر ؟ وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا مثَلاً فى ذاته عز وجل ، فكما أنه يعطى مَنْ كفر به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالاً مِمَّنْ آمن ، فأنت كذلك لا تمنع عطاءك عَمَّنْ أساء إليك .

لذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ [البقرة]

فإنْ كنت باراً بأحد وبدر منه شيء فلا تحلف بالله أنك لا تبرُّه ، فقد تهدأ ثورتك عليه ، وتريد أنْ تبرَّه ، وتتحجج بحلفك ، إذن : لا تجعلوا الله عُرْضة لحلف يمنعكم من المعروف .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [النور] صحيح أن مسْطح من ذوى قُرْبى أبى بكر ومن المساكين ، لكن يعطيه الله نيشاناً آخر ، فلم يخرجه مَا قال من وصف المهاجر ، ولم يخرجه ذنبه من هذا الشرف العظيم .

فمن فضل الله تعالى على عباده أن السيئة لا تُحبط الحسنة ، إنما الحسنة بعد السيئة تحبطها ، كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

فرغم ما وقع فيه مسْطح ، فقد أبقاه الله فى العَتْب على أبى بكر ، وتحنين قلبه ، وأبقاه فى المهاجرين .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. (٢٢)﴾ [النور] العفو : ترك العقوبة على الذنب ، لكن قد تعفو عن المذنب ثم تُؤنبه ، وتمنّ عليه بعفوك ، وتُذكِّره دائماً أنه لا يستحق منك هذا العفو ؛ لذلك يحثنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على الصفح بعد العفو ، والصفح : تَرْك المنِّ وعدم ذكر الزلة لصاحبها حتى تصبح العقوبة عنده أهونَ من عفوك عنه .

ذلك لأن الحق سبحانه حينما يُشرِّع للبشر ما يُنظِّم العلاقات بينهم يراعى جميع مَلكات النفس ، لا يقتصر على الملكات العالية فحسب ، إنما لكل الملكات التى تنتظم الخَلْق جميعاً ، وليأخذ كل منَّا على قَدْر إيمانه وامتثاله لأمر ربه

وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

ولو تأملنا حقيقة المثْلية فى رَدِّ الإساءة لوجدناها صعبة فى تقديرها ، فإنْ ضربك شخصٌ ضربة ، أعندك القدرة التى تردُّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة ، وبنفس القوة ، وبنفس الألم ، بحيث لا تكون أنت مُعْتدياً ؟ إنك لو تأملتَ هذه المثلية لفضَّلْتَ العفو بدل الدخول فى متاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المرابى الذى اشترط على المدين إنْ تأخر فى السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل فى السداد خاصمه عند القاضى ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضى ذكياً فقال للمرابى : خُذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إنْ زاد أخذناه منك ، وإنْ نقص أخذناه منك ، فتراجع المرابى لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وَسِعنَا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفى مرتبة أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فالحق - تبارك وتعالى - يجعل لنا مراتب فى رَدِّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكَظْم الغيظ مرتبة ، والعفو مرتبة ، والصفح مرتبة ، وأعْلِى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى مَنْ أساء إليك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أُسْوة لعباده فيقول : ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمَنْ أساء إليك ؟ وكأن ربنا - عز وجل - يريد أن يُصلح ما بيننا ؛ لذلك لما نزلتْ هذه الآية فى شأن أبى بكر

قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب[1] .

ومعنى ﴿أَلَا .. (٢٢)﴾ [النور] أداة للحضِّ وللحثِّ على هذا الخُلُق الطيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور] فمن تخلَّق بأخلاق الله تعالى فليكُنْ له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومَنْ منّا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[2] الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾

نلحظ أن الآيات تحدثتْ عن حَدِّ القذف وما كان من حادثة الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبى بكر فى مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلتْ مسألة الرزق فى هذا الموضوع ؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق بالرزق ، والرزق تكفَّل الله به لعباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٦) أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : بلى والله إنّا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : لا انزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

(٢) المحصنة : التى أحصنها زوجها . والمحصنات : العفائف من النساء . [لسان العرب - مادة : حصن] .

ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملْكاً لـه ، فإنْ حثَّه على النفقة بعـد ذلك يأخذها منه قَـرْضـاً ؛ لذلك يقول سـبحـانه : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فإنْ أنفق المـوسر على المعـسر جعله الله قَرْضـاً ، وتولّى سداده بنفسه ؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع فى هِبَته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذه منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد]

وفى موضع آخر يـقول عن الأموال : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[(١)] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد] لأن الإنسان تعب فى جمع المال وعَرق فى سـبيله ، وأصبح عـزيزاً عليه ؛ لذلك يبخل به ، فـأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الـرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول مَنَاط لعـمارة الـخليفـة فى الأرض ؛ لذلك ترك الـحديث عن القـضيـة الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التى تتعلَّق بالرزق .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعـالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ .. (٢٣٨)﴾ [البقرة] وقـد ذُكِرَتْ وسط مـسائـل تتعلق بالعـدَّة والكفـارة ، وعِدَّة المـتوفَّى عنهـا زوجهـا ، فمـا علاقـة الصلاة بهـذه المسائل ؟

قالوا : لأن النزاعـات التى تحدث غـالباً ما تُغـيِّر النفس البـشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

---

(١) أحفاه : ألح عليه فى السؤال أو طالبـه بقوة وإلحاح . قال تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا .. (٣٧)﴾ [محمـد] أى : إن يجهدكم بطلبـها ويلح عليكم تبخلوا . [القامـوس القويم ١/١٦٣] .

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .

نعود إلى قـوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ .. (٢٣) ﴾ [النور] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهى المتزوجة لأن الإحصان : الحفْظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج ، أو هى العفيفة ، وإنْ لم تتزوج فَهى مُحْصَنَة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة ؛ لأن عملية البِغَاء والزنا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿ الْغَافِلاتِ .. (٢٣) ﴾ [النور] : جمع غافلة ، وهى التى لا تدرى بمثل هذه المسائل ، وليس فى بالها شيء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريرة خادمة السيدة عائشة : « ما تقولين فى عائشة يا بريرة ؟ » فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتى الدواجن فتأكله وهى لا تدرى[1] . وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْج المراهقة ومع نُضْج المراهقة نُضْج اليقين والإيمان .

وتلحظ هذه الغفلة فى البنت الصغيرة حين تقول لها : أتتزوجين فلاناً ؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدرى معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإنْ ذكرتَ لها الزواج تستحى وتخزى أن تتحدث فيه ؛ لأنها عرفتْ ما معنى الزواج .

لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكتتْ فهذا إذْن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إنْ

---

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٦٩ - ٢٧٢ - بشرح فتح البارى) عن عائشة رضى الله عنها وفيه « أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقال بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمراً اغمصه عليها قط اكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتاتى الداجن فتاكله » .

قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و .. و .. ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرى شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا - تبارك وتعالى - جزاء هذه الجريمة : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرى شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فيكيف نقول : إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعْن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أنْ يُقام عليه الحدُّ ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزى فى الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حَىٍّ ، وقد يُوصَف العذاب مرة بأليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم[1] ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

---

(١) - ورد وصف العذاب بالأليم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ [الإنسان] .

- وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً ، منها : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب] .

- وورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً ، منها : ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾ [النساء] .

وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها :

- عذاب شديد : ٢١ مرة .
- عذاب مقيم : ٥ مرات
- عذاب الخلد : مرتان.
- عذاب الخزى : مرتان
- عذاب غليظ : ٤ مرات.
- عذاب قريب : مرة واحدة
- عذاب غير مردود : مرة واحدة.
- عذاب السعير : ٤ مرات وغيرها .

والمعذَّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجَلْد ، لكن يهينه ، فهو فى حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوَّره المتصوِّر ؛ لأن العذاب إيلام من مُعذِّب لمعذَّب ، والمعذَّب فى الدنيا يُعذَّب بأيدى البشر وعلى قَدْر طاقته ، أمّا العذاب فى الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله ؛ لذلك يوُصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذى يتكلم ، فماذا أضافت الآية : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم .. (٢٤) ﴾ [النور]

قالوا : فى الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم فى الحقيقة أنت ؛ لأنه ما تحرَّك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة ، أمَّا فى الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : ألاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا . فما الذى حدث ؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر فى الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. (٢٤) ﴾ [النور] أى : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولِمَ نستبعد نُطْق اللسان على هذه الصورة ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صدْق هذه القضية . فَقُلْ لى : ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم الآن من مكان ؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر فى شىء ، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدرى حتى كيفية هذا القيام ، وأىّ عضلات تحركت لأدائه .

ولك أنْ تقارن هذه الحركة التلقائية السَّلسة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة ، وكيف أن السائق أمامه عَدد كبير من العِصىّ والأذرع ، لكل حركة فى الآلة ذراع معينة .

فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم فى نفسك وفى أعضائك ، فكيف تستبعد أن يكون لربك ـ عز وجل ـ هذه السيطرة على خَلْقه فى الآخرة ؟

إذن : فاللسان محلّ القول ، وهو طَوْع إرادتك فى الدنيا ، أمّا فى الآخرة فقد شُلَّتْ هذه الإرادة ودخلتْ فى قوله تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور] وهذه جوارح لم يكُنْ لها نُطْق فى الدنيا ، لكنها ستنطق اليوم . ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون : إن الجارحة حين تعمل أىَّ عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملتْ ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التى التقطت .

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنطق حقيقة ، كما قال تعالى حكايةً عن الجوارح : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ

﴿ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومعنى : ﴿ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أن لكل شيء في الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] ونطق الهدهد ، فقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

وقد قال تعالى عن نُطْق هذه الأشياء : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن ، إنْ أراد الله لك أن تفقه نُطْقهم فقَّهك كما فقَّه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل] كما فَهِم عن الهدهد ، وخاطبه في قضية العقيدة .

وإنْ كان النطق عادةً يفهم عن طريق الصوت ، فلكل خَلْق نُطْقه الذي يفهمه جنسه ؛ لذلك نسمع الآن مع تقدُّم العلوم عن لُغة للأسماك ، ولغة للنحل ... إلخ .

وسبق أنْ قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبي ﷺ أن الحصى سبّح في يده ، نقول : عليكم أن تُعدِّلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى مُسبِّح في يده ﷺ ، كما هو مُسبِّح في يد أبي جهل .

ولو سألتَ هذه الجوارح : لم شهدتِ عليَّ وأنت التي فعلت ؟ لقالت لك : فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم ننحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

قـوله : ﴿ يَوْمَـئِـذٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] أى : يوم أنْ تحـدث هذه الشهادة ، وهو يوم القـيامة ﴿ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] الدين : يُطلَق على منهج الله لهـداية الخلْق ، ويُطلق على يوم القيـامة ، ويُطلَق على الجزاء .

فالمعنى : يوفيهم الجزاء الذى يستحقونه ﴿ الْحَقَّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] أى : العدل الذى لا ظلـمَ فيه ولا تغـيير ، فليس الـجزاء جُزَافـاً ، إنما جـزاء بالحق ؛ لأنه لم يحـدث منهـم توبة ، ولا تجـديد إيمـان ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يقع بهم ما حـذرناهم منه وأخبرناهم به من العـقاب ، وليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الحكم أو يؤخره عنهم .

لذلك بعد أنْ قـال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[1] وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ[2] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

قال بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]

---

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبـد المطلب بن هاشم ، قرشى ، عمّ رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمـين ، كان غنياً عتيـاً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخـيه ، فآذى أنصاره ، وحرض عليهم وقاتلهم ، كان أحمر الوجه مشرقاً ، فلقب فى الجاهلية بأبى لهب ، مات بعد وقعة بدر بأيام عام ٢ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/١٢] .

(٢) هى : أم جميل ، واسـمها أروى بنت حرب بن أمـية وهى أخت أبى سفيـان ، وكانت عوناً لزوجها أبى لهب على كفره وجحوده وعناده ، فلهـذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم ، فتحمل الحطب فتلقى على زوجها ليـزداد على ما هو فيه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٤/٥٦٤] .

يعنى : ليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الكلام ، فما قُلْته سيحدث لا محالةَ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] و ﴿ الْحَقّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكلُّ ما عدا الله تعالى مُتغير ، إذن : فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تغييرَ فيه ، لذلك يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أنْ نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

فالله هو الحقُّ الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية ، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر مَنْ يقول أنا الله ويدَّعى هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إنْ لم يَقُمْ عليها معارض ومعنى ﴿ الْمُبِين ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] الواضح الظاهر الذى تشمل أحقيتُه الوجودَ كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلنا فى تفسير ﴿ الزَّانِى لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور] أن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] أى : الذين دارتْ عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس فى حقهم ، وهما عائشة وصفوان ﴿ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] أى : مما يُقَال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذى ذكرتْه الآية ، فمن أطيبُ من رسول الله ﷺ ؟ وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على رسوله ﷺ ويجعل من زوجاته مَنْ تحوم حولها الشبهات ..

إذن : فلا بُدَّ أن تكون عائشة طَيّبةً طيبةً تكافى وتناسب طِيبة رسول الله ؛ لذلك برَّأها الله مما يقول المفترون .

وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور] مغفرة نزلتْ من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوى للكرامة وللمنزلة وللسمو ، لا الرزق الحسىّ الذى يقيم قوام البدن من أكل وشرب وخلافه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ[1] وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

كلمة بيت : نفهم منها أنه ما أعدّ للبيتوتة ، حيث يأوى إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم ، ويُسمَّى أيضاً الدار ؛ لأنها تدور على مكان خاص بك ؛ لذلك كانوا فى الماضى لا يسكنون إلا فى بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ،

(١) أى : حتى تطلبوا الأُنْس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأُنْس وتعلموه . [القاموس القويم ١/ ٣٧] .

يقولون : بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السَّكَن بهذه الطريقة عصْمةً من الريبة ؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضى أنْ يدخل الناس على الناس ؛ لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادىء والنظم التى تنظم هذه المسألة ؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّب أموراً تدعو إلى الرِّيبة والشك ؛ لذلك فى الفلاحين حتى الآن : إذا رأوا شخصاً غريباً يدخل حارة[1] لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل : لماذا دخل هنا ؟

إذن : فشرْع الله لا يحرم المجتمع من التلاقى ، إنما يضع لهذا التلاقى حدوداً وآداباً تنفى الرِّيْب والشبهة التى يمكن أنْ تأتى فى مثل هذه المسائل .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آداب الاستئذان : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور]

﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور] من الأُنْس والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك فى بيتك ، وأقبل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يُقدِّم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بُدَّ أن تحدث منه وَحْشة ونفور إذن : على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول : يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر مَنْ بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصياته التى لا يحب

(١) الحارة : كل محلَّة دنت منازلهم فهم أهل حارة . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حير] .

صاحب البيت أن يطّلع عليها أحد ، إما كرامةً لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢٧) ﴾ [النور]

أى : خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شىء يؤذيه ، وهَبْ أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدها فى شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتفاقم الخلاف .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور] يعنى : احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهاونوا فيها ، كمَنْ يقولون : نحن أهلٌ أو أقارب لا تكليفَ بيننا ؛ لأن الله تعالى الذى شرع لكم هذه الآداب أعلَمُ بما فى نفوسكم ، وأعلم بما يُصلِحكم .

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامى من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففى الحديث الشريف « نهى أن يطرق المسافر أهله بليل »[(١)] إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤٤) ومسلم فى صحيحه (٣/١٥٢٨) كتاب الإمارة .

فإذا استأذنتَ على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل ؛ لأنك جئتَ للمكين لا للمكانَ ، إلا إذا كنتَ تريد الدخول لتتلصص على الناس وتتجسَّس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٢٨) ﴾ [النور] كيف والدار ليس فيها أحد ؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بُدَّ أنْ يأذن لك صاحب الدار أو مَنْ ينوب عنه في الإذن ؛ لأنه لا يأذن إلا وقد أمِن خُلو الطريق مما يؤذيك ، أو مما يؤذي أهل البيت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ .. (٢٨) ﴾ [النور]

لأنك إنْ تمسكت بالدخول بعد أنْ قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة في نفسه ، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، ألاَ ترى قول رسول الله ﷺ : « دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك »[1] .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾ [النور] أي : عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور ، فإنْ قال لك صاحب الدار ارجع فوقفتَ أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام ، وربك - عز وجل - يريد أنْ يحميك من الظنون ودخائل النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠٠) والترمذي في سننه (٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وتمامه : « فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة » .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

سأل الصِّديق أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : يا رسول الله نحن قوم أهل تجارة ، نذهب إلى بلاد ليس لنا فيها بيوت ولا أهل ، ونضطر لأن ننزل فى أماكن (عامة كالفنادق) نضع فيها متاعنا ونبيت بها ، فنزلت هذه الآية[1] .

و ﴿جُنَاحٌ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] يعنى : إثم أو حرج ، وهذه خاصة بالأماكن العامة التى لا يسكنها أحد بعينه ، والمكان العام له قوانين فى الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة ، فهل تستأذن فى دخول الفندق أو المحل التجارى أو الحمام ... إلخ ، هذه أماكن لا حرجَ عليك فى دخولها دون استئذان .

فمعنى ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] أى : لقوم مخصوصين ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] كأن تنام فيها وتأكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقيد بما أحلَّه الله وأمر به ، فلا يدخل فى المتاع المحرمات .

لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور] يعنى : فى تحديد الاستمتاع ، فلا تأخذه على إطلاقه فتُدخل فيه

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان فى البيوت ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون (أى : يتنقلون ويترددون) بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] . أورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٢٧ ـ طبعة دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٣م) .

الحرامَ ، وإلا فالبغايا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن ؛ لذلك يُحصِّنك ربك ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرتْ من اتباع خطوات الشيطان التى تؤدى إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ فى الزواج ، وأن الزانى للزانية ، والزانية للزانى ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله فى أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضىء فيه القيم السامية ، مجتمعاً يخلو من وسائل (العكننة) والمخالفة والشَّحْناء والبغضاء ، فلو أننا طبَّقنا منهج الله الذى ارتضاه لنا لارتاح الجميع فى ظله .

ومسألة غَضِّ البصر التى يأمرنا بها ربنا - عز وجل - فى هذه الآية هى صمام الأمان الذى يحمينا من الانزلاق فى هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور]

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوْق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شىء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هى حاسَّة البصر ؛ لذلك وضع

الشارع الحكيم المناعة اللازمة فى طرفى الرؤية فى العين الباصرة وفى الشيء المبصر ، فأمر المؤمنين بغضٍّ أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة فى كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضٍّ البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات : **الأولى** : أن يغضَّ هو بصره ولا تبدى هى زينتها ، فخطّ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، **الثانية** : أن يغضَّ هو بصره وأن تبدى هى زينتها ، **الثالثة** : أن ينظر هو ولا تبدى هى زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة فى هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدم.الآخر . إنما الخطر فى القسمة **الرابعة** : وهى أن ينظر هو ولا يغضّ بصره ، وأنْ تتزين هى وتُبدى زينتها ، ففى هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - حرَّم حالة واحدة من أربع حالات ؛ ذلك لأن المحرّمات هى الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالمحرمات هى المحصورة المعدودة ، أمّا المحللات فهى فوق الحصر والعَدِّ ، فالأصل فى الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شيء نَصَّ عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغضٍّ بصره ، كذلك أُمرَتْ المرأة بغضٍّ بصرها ، لأن اللَّفْتة قد تكون أيضاً للرجل ذى الوسَامة و .. و فإنْ كان حظ المرأة فى رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرتْ إلى غيره ، فكما يُقال فى الرجال يُقال فى النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التى وضعها الله عز وجل وألزمنا بها

إنما هى لمنع هذه الجريمة البشعة التى بُدئَتْ بها هذه السورة ؛ لأن النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، ألاَ ترى شوقى رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغزَل يقول :

نَظْرَةٌ فابتسَامَةٌ فسَلاَمٌ   فكَلامٌ فموعِدٌ فلقَاءٌ

فالأمر بغَضٍّ البصر ليِسدَّ منافذ فساد الأعراض ، ومَنْع أسباب تلوث النسل ؛ ليأتى الخليفة لله فى الأرض طاهراً فى مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بأن له نسباً وشرفاً ، والآخر لا نسبَ له .

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن مَنْ يليه فى الخلافة من أبناء أو أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعىٍّ شريف ، فيجتهد كل إنسان فى أن يُنشِّىء أطفاله تنشئةً فيها شفقة ، فيها حنان ورحمة ؛ لأنه واثق أنه ولده ، ليس مدسوساً عليه ، وأغلب الظن أن الذين يُهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون فى نسبهم إليهم .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضمنتَ له الصيانة الكافية ، لئلا تشرد منه غرائز الجنس ، فيعتدى كل نظر على مَا لا يحلّ له ؛ لأن النظر بريد إلى القلوب ، والقلوب بريد إلى الجنس ، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠)﴾ [النور] دقة بلاغ الرسول عن ربه - عز وجل - وأمانته فى نقل العبارة كما أُنزلَتْ عليه ، ففى هذه الآية كان يكفى أن يقول رسول الله : غُضُّوا أبصاركم ، لكنه التزم بنص ما أُنزل عليه ؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزّل على رسوله والذى يُتعبَّد بتلاوته ، فلا بُدَّ أنْ يُبلّغه الرسول كما جاءه من ربه .

لذلك قال فى البلاغ عن الله (قُلْ) وفى الفعل (يَغضُّوا) دلالةٌ على ملحظية (قل) ، فالفعل (يغضوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حُذفت منه النون ، ذلك لأنه جعل (قُلْ) ملحظية فى الأسلوب .

والمعنى : إنْ تقُل لهم غُضُّوا أبصاركم يغضُّوا ، فالفعل - إذن - مجزوم فى جواب الأمر (قُلْ) .

إذن ﴿قُل ..(٣٠)﴾ [النور] تدل على أمانة الرسول فى البلاغ ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضاً كلام الله المعجز ؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : ما أتيتُ لكم بشىء من عندى ، ومهمتى أن أبلغكم ما قاله الله لى .

وقوله : ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٣٠)﴾ [النور] فما داموا مؤمنين بإله حكيم ، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد ، فلا بُدَّ أنْ يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه .

والغَضُّ : النقصان ، يقال : فلان يغُضُّ من قَدْر فلان يعنى : ينقصه ، فكيف يكون النقصان فى البصر ؟ أينظر بعين واحدة ؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائى ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحرّماً عليها .

فنقص البصر يعنى : قَصْره على ما أحل ، وكفّه عما حُرم ، فالنقص نقص فى المرائى وفى مجال البصر ، فلا تعطى له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شىء ، إنما تُوقفه عند أوامر الله فيما يُرى وفيما لا يُرى .

و ﴿مِنْ .. (٣٠)﴾ [النور] فى قوله تعالى : ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠)﴾ [النور] البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول : كُلْ من هذا الطعام يعنى : بعضاً منه ، فالمعنى : يغضُّوا بعض البصر ؛ لأن بَعضه حلال لا أغض عنه بصرى ، وبعضه محرم لا أنظر إليه .

أو : أن ﴿مِنْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] هنا لتأكيد العموم فى أدنى مراحله ، وسبق أن تكلمنا عن (منْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا فى التفسير لا بُدّ أن تقابلنا أشياء ذكرناها سابقاً ، ونحيل القارىء عليها .

قلنا : فرق بين قولك : ما عندى مال ، وقولك : ما عندى من مال . ما عندى مال ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتدّ به ، لكن ما عندى من مال نفى لجنس المال مهما قَلَّ ، فمنْ تعنى بدايةَ ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] يعنى : بداية مَا يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر .

وقلنا : إن الشرع لا يتدخل فى الخواطر القلبية والهواجس ، إنما يتدخل فى الأعمال النزوعية التى يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مررتَ ببستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فأعجبت بها وسُررْت وانبسطتْ لها أسارير نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرجَ عليك فيه ، فإنْ تعدَّى الأمر ذلك فمددتَ إليها يدك لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : قفْ ، فليس هذا من حقك لأنها ليستْ لك .

هذه قاعدة عامة فى جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر وحده ، وكأن ربنا - عز وجل - يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلِّفه فى النفس من عذابات ومواجيد .

ففى نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق كما شئت ، فإن نزعْتَ إلى ضمة أو قبلة قلنا لك : حرام . لماذا ؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإنْ أعجبتْك وانبسطتْ لها أساريرك ، فهذا وجدان ، لا بُدَّ أن يترك فى تكوينك تفاعلاً كيماوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإنْ طاوعْتَ نفسك فى النزوع فقد اعتديتَ ، وإنْ كبتَّ فى داخلك هذه المشاعر أصابتْك بعُقد نفسية ودعتْك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع ؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى مَنْع الإدراك بغضٍّ البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغضٍّ البصر قال : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإنْ أمكن ذلك فى الأمور الأخرى ، فحين نمنعك عن قطف الوردة التى أعجبتْك لا يترك هذا المنع فى نفسك أثراً ولا وَجْداً ، على خلاف ما يحدث إنْ مُنعتَ عن امرأة أعجبتك ، وهيَّجك الوجدان إليها .

وحفْظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحلَّه الله وشرعه فلا أنيله لغَير مُحلَّل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو : أحفظه وأصونه أن يُرى ؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] يعنى : أطهر وأسلم وأدْعَى لراحة النفس ؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج فى أعراض الناس ، وإما ألا ينزع فيُكدِّر نفسه ويُؤلمها بالصبر على مَا لا تطيق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف فى الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملّحة لزهَدَ الكثيرون فى الزواج وفى الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

ألاَ ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب فى مرحلة الحمل ، وأنها ترى المـوت عند الولادة ، حتى إنهـا لتقسـم أنها لا تعود ، لكـن بعد أن ترى وليـدها وتنسى آلامهـا سرعـان ما يعـاودها الحنين للإنجـاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التى زرعها الله فى النفس البشرية لدوام بقائها .

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز ، وربطها بلـذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشَّمِّ والسماع .. إلخ فهى لذة تسـتوعب كل جوارح الإنسان وملكاته ، وما ذلك إلا حِرْصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ(١) أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ(٢) مِنَ

(١) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سمى به بلفظه فلا يؤنث ، والجمع : بعول [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) غيـر أولى الإربة : أى : غير أولى الحاجـة . والإربة الحاجة . والجمع مـآرب أى حوائج . قال القـرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٧١) : « اخـتلف الناس فى معناه ، فقـيل : هو الأحمق الذى لا حـاجة به إلى النسـاء . وقيـل : الأبله . وقيل : الرجل يتـبع القـوم فيـأكل معـهم ويرتفق بهم وهو ضـعيف لا يشـتهى النسـاء » ثم قال : « وهـذا الاختلاف كـله متـقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء » .

﴿ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾

ذكر هنا المقابل ، فأمر النساء بما أمر به الرجال ، ثم زاد هنا مسألة الزينة . والزينة : هى الأمر الزائد عن الحد فى الفطرية ؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتى لا تحتاج إلى أن تتزين : غانية[1] يعنى : غنيت بجمالها عن التزيُّن فلا تحتاج إلى كُحل فى عينيها ، ولا أحمر فى خدَّيْها ، لا تحتاج أن تستر قُلْبها[2] بأسورة ، ولا صدرها بعقد .. إلخ .

فإنْ كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجتْ لشىء من الزينة ، لكن العجيب أنهن يُبالغْنَ فى هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبى مائل ، فترى مُسنَّات يضعْنَ هذا الألوان وهذه المساحيق ، فيَظْهَرن فى صورة لا تليق ؛ لأنه جمال مُصْطنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية ، وفيها قال المتنبى ، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية :

حُسْن الحضارة مَجْلوبٌ بتطْرِيَةٍ ... وفى البَدَاوة حُسْنٌ غير مَجْلُوب[3]

ومن رحمة الله بالنساء أنْ قال بعد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. ٣١﴾ [النور] قال : ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ٣١﴾ [النور] يعنى : الأشياء

---

(١) الغانية : الجارية الحسناء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج ، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة . [لسان العرب ـ مادة : غنى] .

(٢) القُلْب : سوار المرأة . والقُلْب من الأسورة : ما كان قلداً واحداً . [لسان العرب – مادة : قلب] .

(٣) الحضارة : الإقامة فى الحضر . والحضر : خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف . سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأنْ تمشى فى الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تُظهر مثل هذه الزينة الضرورية .

لكن لا يظهر منها القُرْط مثلاً ؛ لأن الخمار يستره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الأسورة أو الدُّمْلُك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغى أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطةَ أن تكون فى حدود ، وأن تقصر على مَنْ جُعلَتْ من أجله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١) ﴾ [النور] المراد تغطية الزينة ، فالجارحة التى تحتها من باب أَوْلَى ، فالزينة تُغطِّى الجارحة ، وقد أمر الله بستْر الزينة ، فالجارحة من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور]

الخُمر : جمع خِمَار ، وهو غطاء الرأس الذى يُسْدل ليستر الرقبة والصدر . الجيوب : جميع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمارُ فتحةَ الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شىء .

والعجيب أن النساء تركْنَ هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسْنَ القلادة ويُعلِّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعى وعدم الدراية بشرع الله مُنزل هذا المصحف .

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ .. (٣١) ﴾ [النور] والضرب هو : الوَقْع بشدة ، فليس المراد أنْ تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أنْ تُحكمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكُنْ عندهم خُمر ، فعمدْن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخُمُر[1] .

إذن : راعَى الشارع الحكيم زِىَّ المرأة من أعلى ، فقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] ومن الأدنى فقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أى : أزواجهن ؛ لأن الزينة جُعلَتْ من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أبو الزوج ، إلا أنْ يخاف منه الفتنة ، فلا تبدى الزوجة زينتها أمامه .

ومعنى ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أى : النساء اللائى يعملْنَ معها فى البيت كالوصيفات والخادمات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] والمراد هنا أيضاً ملْك اليمين من النساء دون الرجال .

ويشترط فى هؤلاء النساء أن يكُنَّ مسلمات ، فإنْ كُنَّ كافرات كهؤلاء اللائى يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تُبدى زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن فى هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة ، وربما ذهبت فوصفتْ ما رأتْ من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ملْك اليمين لا يخصُّ النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أنْ تُبدى زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالاً عاطفياً وامتناعاً عاطفياً فى النفس البشرية ، فالخادم فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها . والمرُوُط جمع مِرْط وهو كساء يؤتزر به وتتلفع به المرأة .

القَصْر لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها ؛ لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة ، إلا إذا شجَّعْنَهُ ، وفتحْنَ له الباب ، وهذه مسألة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] أى : التابعين للبيت ، والذين يعيشون على فضلاته ، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه ، فليس عنده بيت يأويه ؛ لذلك ينام فى أىِّ مكان ، وليس عنده طعام ؛ لذلك يُطعمه الناس وهكذا ، فهو ضائع لا هدفَ له ولا استقلاليةَ لحياته ، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَق وينامون ولو على الأرصفة .

مثل (الأهبل) أو المعتوه الذى يعطف الناس عليه ، وليس له مطمع فى النساء ، ولا يفهم هذه المسألة ، فلا يُخاف منه على النساء ؛ لأنه لا حاجةَ له فيهن ؛ ولا يتسامى لأنْ ينظر إلى أهل البيت .

ومعنى : ﴿غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] يعنى : كأن يكون كبير السِّنِّ واهن القوى ، لا قدرةَ له على هذه المسائل ، أو يكون مجبوباً[١] ، مقطوع المتاع ، ولا خطرَ من مثل هؤلاء على النساء .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

نلحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وُصف بالجمع ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور] لماذا ؟ قالوا : هذه سمَة من سمات اللغة ، وهى الدقة فى التعبير ، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع .

---

(١) الجَبُّ : القطع . والمجبوب : الخصىُّ الذى قد استؤصل ذكره وخُصْياه . فهو مقطوع الذكر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

كما نقول : هذا قاض عَدْلٌ ، وهذان قاضيان عَدْل ، وهؤلاء قضاة عَدْل ، ولم نقل : عدلان وعدول ، فإذا وحِّد الوصف فى الجميع بدون هوى كان الوصف كالشىء الواحد ، فالقاضى لا يحكم بمزاجه وهواه ، والآخر بمزاجه وهواه ، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد . إذن : فالعدل واحد لا يُقَال بالتشكيك ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العَدْل واحد .

كذلك الحال فى ﴿ **الطِّفْلِ** .. (٣١) ﴾ [النور] مع أن المراد الأطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هَوىً ، فكل الأطفال - إذن - كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فكْره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شىءَ وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد فى الغرائز وفى الميول .

بدليل أنه إذا كَبِر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوَّن لديهم هَوىً وفكْر وميْل يقول القرآن عنهم : ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ** .. (٥٩) ﴾ [النور] فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحُّد فى مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ** (٢٤) ﴾ [الذاريات] فوصف ضيف وهى مفرد بالجمع (مكرمين) ؛ ذلك لأن ضَيْف تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حَقٌّ والتزامات لا بُدَّ أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف فى هذه الالتزامات واحد ، سواء كان مفرداً أو جماعة ؛ لذلك دَلَّ بالمفرد على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** .. (٣١) ﴾ [النور] يظهر على كذا : لها معنيان فى اللغة : **الأول** : بمعنى يعلم كما فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف] يعنى : إنْ علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] أى : السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى : ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ... ﴿٣١﴾﴾ [النور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها ، أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم علْم أو دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - يكشف ألاعيب النساء وحيلهنّ فى جذْب الأنظار ، فإذا لم يلفتْك إليها النظر لفتَك الصوت الذى تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك : يا بجم اسمع ، يا للى ما نتاش شايف اسمع ، وفى الماضى كُنَّ يلبسْنَ الخلخال الذى يُحدث صوتاً أثناء المشى ، والآن يجعلْنَ فى أسفل الحذاء ما يُحدث مثل هذا الصوت أثناء المشى ، وأول مَن استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار .

ومعلوم أن طريقة مَشْى المرأة تُبدى الكثير من زينتها التى لا يراها الناس ، وتُسبِّب كثيراً من الفتنة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفى ختام هذه المسائل : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور]

لم يَقُل الحق تبارك وتعالى : يا مَنْ أذنبتم بهذه الذنوب التى سبق الحديث عنها ، إنما قال ﴿جَمِيعًا .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] فحثَّ الجميع على

التوبة ؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء ، ومهما كان المسلم مُتمسِّكاً ملتزماً فلا يأمن أنْ تفوته هفوة هنا أو هناك ، والله - عز وجل - الخالق والأعلم بمَنْ خلق ؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثَّهم عليها ، وقال لهم : ما عليكم إلا أنْ تتوبوا ، وعليَّ أنا الباقى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن مسألة حِفْظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أنْ يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج ؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه ؛ لأن المشرِّع لا بُدَّ أن يستولى بالتشريع على كُلِّ ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و ﴿ الأَيَامَىٰ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور] جمع أيِّم ، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له ، والأيِّم من النساء مَنْ لا زوجَ لها .

ونلحظ أن الأمر فى ﴿ أَنكِحُوا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور] جاء هكذا بهمزة القَطْع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذى سينكح الأيِّم ، إنما لغيره أنْ يُنكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومَنْ عندهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لَهُنَّ أزواج : عَجِّلوا بزواج هؤلاء ، ويسِّروا لهم هذه المسألة ، ولا تتشددوا فى نفقات الزواج حتى تُعِفُّوا أبناءكم وبناتكم ، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة .

وفى الحديث الشريف : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه ، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »(١) .

ومع ذلك فى مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التى تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة فى المهور وفى النفقات والنظر إلى المظاهر .. إلخ وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لأولياء الأمور : يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهِّدوا لهم سبيل الإعفاف .

وقد أعطانا القرآن نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه وليُّ الأمر ، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. (٢٧) ﴾ [القصص] ذلك لأن موسى - عليه السلام - سيكون أجيراً عنده ، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته ؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجَّعه على الإقبال على زواجها ، فأزال عنه حياء التردد ، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤاً ، فلا يتردد فى إعفافها .

وقوله تعالى : ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النور]

وقوله ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، وجمالها ، وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين ، تربتك يداك »(٢) .

ولما سُئل الحسن - رضى الله عنه - عن مسألة الزواج قال لوالد

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) من حديث أبى هريرة بلفظ « إذا خطب إليكم مَنْ ترضوْن دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . وأخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) بلفظ « إذا أتاكم » وقد رجح الترمذى أنه مرسل من رواية الليث بن سعد .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٩٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضاع من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال القرطبى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى (٩/١٣٦) : « معنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هى التى يُرغب فى نكاح المرأة لأجلها ، فهو خبر عما فى الوجود من ذلك ، لا أنه وقع الأمر بذلك ، بل ظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أوْلَى » .

الفتاة الذى جاء يستشيره : زوِّجها مَنْ تأمنه على دينه ، فإنْ أحبَّ ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها . وماذا يريد الإنسان فى زوج ابنته أكثر من هذا ؟

فالدين والخُلق والقيم السامية هى الأساس الذى يُبنى عليه الاختيار ، أما المال فهو شئ ثانوى وعَرَض زائل ؛ لذلك يقول تعالى:﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾[النور]

فالفقر قد يكون سبباً فى عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى الله عنَّا ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطهر ؟ لا يمكن أن يضن الله على زوجيْن التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب ، ومَنْ يدريك لعل الرزق يأتى للاثنين معاً ، ويكون اجتماعهما فى هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذى يفتح للوجهين معاً ؟

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾ [النور] فعطاء الله دائم لا ينقطع ؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص ، والإنسان يُمسك عن الإنفاق ؛ لأنه يخاف الفقر ، أمّا الحق - تبارك وتعالى - فيعطى العطاء الواسع ؛ لأن ما عنده لا ينفد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾

في حالة إذا لم ننكح الأيامى ، ولم نُعنهم على الزواج ، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب ، وهو الاستعفاف ، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامي سواء - تمثَّل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام - أن ينهض بمسألة الأيامى ، وأنْ يعينهم على الزواج ، فإنْ لم يقُمْ المجتمع بدوره ، ولم يكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج ، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله ، مما يدل على أن التشريع يبنى أحكامه ، ويُراعى كل الأحوال ، سواء أطاعوا جميعاً أو عَصَوْا جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ .. (٣٣) ﴾ [النور] يعني : يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه ، يجاهد أن يكون عفيفاً ، وأول أسباب العفاف أن يغضَّ بصره حين يرى ، فلا يوجد له مُهيِّج ومثير ، فإنْ وجد في نفسه فُتوة وقوة فعلية أن يُلجمها ويُضعفها بالوسائل الشرعية كما قال النبي ﷺ : « يا معشر الشبابَ مَن استطاع منكم الباءة - يعني : نفقات الحياة الزوجية - فليتزوج ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء[1] »[2] .

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهدِّيء من شراسة الغريزة ؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أَوْدَه ، ولا يبقى في بدنه ما يثير الشهوة ، كما جاء في الحديث الشريف : « بحسْب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلْبه ... »[3] .

---

(١) الوجاء : هو أن تُضرب الخصيتان ضربة شديدة تذهب شهوة الجماع وينزل منزلة الخصي . وقال ابن منظور في [اللسان - مادة : وجا] : أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٦٥) ، ومسلم في صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذي في سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام ابن معدي كرب وتمامه : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه » .

أو : أن يُفرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذى يشغله ويستنفد جَهْده وطاقته ، التى إن لم تصرف فى الخير صرفت فى الشر ، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ، ويثق بنفسه ، ويكتسب الحلال الذى يُشجِّعه مع الأيام على الزواج وتحمُّل مسئولياته .

لذلك قال تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ .. (٣٣)﴾ [النور] ولم يقُلْ : وليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسْعَ إليه ، بأن يمنع المهيِّج بالنظر ويُهدىء شراسة الغريزة بالصوم ، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم فى الصباح لعمله نشيطاً ، وهكذا لا يجد فرصة لشىء مما يغضب الله .

ومعنى : ﴿الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣)﴾ [النور] أى : بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٣٣)﴾ [النور] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى ؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى ، وقد قال تعالى فى قضية قرآنية : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (٣)﴾ [الطلاق] فمن هذا الباب يأتيه غنَى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. (٣٣)﴾ [النور]

الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة فى ورق ، والمراد هنا المكاتبة ، وهى أن تكتب عقْداً بينك وبين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدها يكون حراً ، إنْ أدَّى ما ذكر فى عَقْد المكاتبة .

﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا .. (٣٣) ﴾ [النور] يعنى : إنْ كانت حريتهم ستؤدى إلى خير كأنْ ترفع عنهم ذِلّة العبودية ، وتجعلهم ينشطون فى الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم .

لذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - هذه المكاتبة مَصْرفاً من مصارف الزكاة ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] يعنى : المماليك الذين نريد أنْ نفكّ رقابهم من أَسْر العبودية وذُلِّها بالعتق ، وإنْ كان مال الزكاة يُدفع للفقراء وللمساكين .. إلخ ففى الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده .

كما جعل الإسلام عِتْق الرقاب كفارةً لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن يُنهى هذه المسألة .

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ .. (٣٣) ﴾ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - هو الرازق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إنْ ملّكك وطلب منك أن تعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ، ولا يعود سبحانه فى هبَته لك ؛ لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قَرْض لا يردُّه الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل رَدَّه ، فيقول : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ سبحانه : يقرض فلاناً ، وإنما يُقرض الله لأنه تعالى هو الخالق ، ومن حق عبده الذى استدعاه للوجود أَنْ يرزقه ويتكفّل له بقُوته .

واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمرة جهده ، وأنها ستعود عليه ، وإلاّ فما الداعى للعمل ولبذل المجهود إنْ ضاعت ثمرته وحُرِم منها صاحبها ؟ عندها ستتعطل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قَدْر حاجته فحسب ، فلا يفيض عنه شىء للصدقة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور]

يُقَال للمملوك : فتى ، وللمملوكة : فتاة ، فقد نهى النبى ﷺ أن يقول الرجل : عبدى[1] وأَمَتى إنما يقول : فتاى وفتاتى ، فهذه التسمية أكرم لهؤلاء وأرفع ، فالفتى من الفُتوّة والقوة كأنك تقول : هذا قوتى الذى يساعدنى ويعيننى على مسائل الحياة ، فالنبى ﷺ يريد أن يرفع من شأنهم .

ومن هؤلاء جماعة المماليك الذين حكموا مصر فى يوم من الأيام ، وكانوا من أبناء الملوك والسلاطين والأعيان .

والبغاء ظاهرة جاء الإسلام فوجدها منتشرة ، فكان الرجل الذى يملك مجموعة من الإماء ينصب لهُنّ راية تدل عليهن ، ويأتيهن الشباب ويقبض هو الثمن ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس النفاق ، وكان عنده (مسيكة ، ومعاذة) وفيه نزلت هذه الآية[2] .

وتأويل الآية : لا تُكرهوا الإماء على البغاء ، وقد كُنَّ يبكين ، ويرفضْنَ هذا الفعل ، وكُنَّ يؤذيْنَ ويتعرضْنَ للغمز واللمز ، ويتجرأ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضِّىء ربك . وليقل : سيدى مولاى . ولا يقل أحدكم : عبدى ، أمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٩) كتاب الألفاظ من الأدب .

(٢) قال الزهرى : كانت جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها معاذة يُكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [النور] . أخرجه البزار فى مسنده (أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/٢٨٨) وعن جابر قال : نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها مسيكة ، كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [النور] قاله الأعمش .

عليهن الناس ، وكان من هؤلاء الإماء بنات ذوات أصول طيبة شريفة ، لكن ساقتهن الأقدار إلى السَّبْى فى الحروب أو خلافه ، فى حين أن الحرة العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء .

ومعنى : ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا .. (٣٣)﴾ [النور] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إنْ لم يُرِدْنَ تحصُّناً فلا تُكرهوهُنَّ ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [النور] طلباً للقليل من المال الزائل ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ [النور] لأنهن فى حالة الإكراه على البغاء يفقدنَ شرط الاختيار ، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة ، عملاً بالحديث النبوى الشريف : « رُفِع عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه »[(١)] .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - هؤلاء اللاتى يُرِدْنَ التحصُّن والعفاف ، لكن يكرههن سيدهن على البغاء ، ويُرغمهن بأىٍّ وسيلة : اطمئنن فلا ذنبَ لَكُنَّ فى هذه الحالة ، وسوف يُغفر لَكُنَّ والله غفور رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾

المعنى : لا عذر لكم ؛ لأن الله تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة التى تضمن لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة

---

(١) أخرج معناه ابن ماجة فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس بلفظ : « إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وانظر كشف الخفاء (١/ ٥٢٢) .

لله في الأرض ، وهذه الآيات مـا تركتْ شيئاً من أقـضيـة الحيـاة إلا تناولتْه وأنزلتْ الحكم فـيه ، وقد نلتمس لكم العـذر لو أن فى حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

لذلك يقول سيدنا الإمـام على ـ رضى الله عنه ـ عن القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخـبر ما قـبلكم ، ونبأ ما بعـدكم ، هو الفَصْل ليس بالهَزْل ، مَنْ تركه من جـبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهـدى فى غيره أضله الله[1] .

ولا يزال الزمان يُثبِت صدْق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مـصـارع الآراء والمـذاهب والأحـزاب والدول الـتى قـامت لـتناقض الإسلام ، ســواء كانت رأسماليـة شرسة أو شـيوعية شـرسة . إلخ . كلها انهارت على مَرْأىً ومَسْمع من الجميع .

نعم ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ، لأنه خالقك ، وهو أعلم بما يُصلحك ، فلا يليق بك ـ إذن ـ أن تأخذ خَـلْق الله لك ثم تتكبر عليـه وتضع لنفسك قـانوناً من عندك أنت .

وســبق أنْ قُلْنا : إن الآيـات تطلق علـى ثلاثة إطلاقـات : الآيات الكونية التى تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، وعلى المعجزات التى تأتى لتـثـبت صِدْق الرسـول فى البلاغ عـن الله ، وتُطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن الكريم ، وفي القرآن هذا كله .

وقـوله تـعـالى : ﴿وَمَـثَـلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَـبْلِكُمْ وَمَـوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور]

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٨٩) .

أى : جعلنا لكم موعظة وعبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتى بلغت شأوها فى الحضارة ، ومع ذلك لم تملك مُقوِّمات البقاء ، ولم تصنع لنفسها المناعة التى تصونها فانهارت ، ولم يبق منهم إلا آثار كالتى نراها الآن لقدماء المصريين ، وقد بلغوا من الحضارة منزلةً أدهشت العالم المتقدم الحديث ، فيأتون الآن متعجبين : كيف فعل قدماء المصريين هذه الحضارة ؟

وكان أعظم من حضارة الفراعنة حضارة عاد التى قال الله عنها : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] يعنى : ليس لها مثيل فى الدنيا ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر] يعنى : لن يفلت من المخالفين أحد ، ولن ينجو من عذاب الله كافر .

والمثَل كذلك فى مسألة الزنا وقَذْف المحصنات العفيفات ، كحادثة الإفك التى سبق الكلام عنها ، وأنها كانت مَثَلاً وعبرةً ، كذلك كانت قصة السيدة مريم مثلاً وقد اتهمها قومها ، وقالوا : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم]

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، وكلها مسائل تتعلق بالشرف ، ولم تَخْلُ من رَمْى العفيفات المحصنات ، أو العفيف الطاهر يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

وهذه الآيات مبينات للوجود الأعلى فى آيات الكون ، مُبينات لصِدْق المبلِّغ عن الله فى المعجزات ، مُبيِّنات للأحكام التى تنظم حركة

الحياة فى آيات القرآن ، ثم أريناهم عاقبة الأمم السابقة سواء مَنْ أقبل منهم على الله بالطاعة ، أو مَنْ أعرض عنه بالمعصية ، ولا يستفيد من هذه المواعظ والعِبَر إلا المتقون الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسىَّ الذى نرى به مرائى الأشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوى ، وقلنا : إن الدنيا حينما تظلم ينير كل منَّا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته فى الإضاءة ، فإذا ما طلعتْ الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل منَّا نوره ؛ لأن نور الله كافٍ ، فكما أن نور الله كافٍ فى الحسيات فنوره أيضاً كافٍ فى المعنَويات .

فإذا شرع الله حكماً معنوياً يُنظِّم حركة الحياة ، فإياكم أن تعارضوه بشىء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام مصباحه فأطفئوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى وأوامره ، والأمر واضح فى الآيات الكونية .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] كما نقول ولله المثل الأعلى : فلان نوَّر البيت ، فالآية لا تُعرِّف الله لنا ، إنما تُعرِّفنا أثره تعالى فينا ، فهو سبحانه مُنوِّر السموات والأرض ، وهما أوسع شيء نتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضحاً غيرَ خفيّ .

ثم يضرب لنا ربنا - عز وجل - مثلاً توضيحياً لنوره ، فيقول : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] أى : مثَلُ تنويره للسموات وللأرض ﴿كَمِشْكَاةٍ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] وهى الطاقة التى كانوا يجعلونها قديماً فى الجدار ، وهى فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِسْرجة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه فى ناحية فيصير قوياً ، ولا يصنع ظلاً أمام مسار الضوء .

والمصباح : إناء صغير يُوضَع فيه زيت أو جاز فيما بعد ، وفى وسطه فتيل يمتصّ من الزيت فيظل مشتعلاً ، فإنْ ظلَّ الفتيل فى الهواء تلاعبَ به وبدَّد ضوءه وسبَّب دخاناً ؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق ؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزاً من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتى الضوء منه صافياً لا دخانَ فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .

وهكذا تطور المصباح إلى لمبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] يعنى : كوكب من الدُّرِّ ، والدُّر ينير بنفسه .

كذلك زَيْتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة.

يقول الحق سبحانه : ﴿يُوقَدُ من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

يعنى : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعنى : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهى إذن شرقية غربية على حَدٍّ سواء ، لكن كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون فى الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون فى الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرأ ايها نور وظلمة ، إنما هذه لا هى شرقية ولا هى غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شىء عنها الضوء .

وهذا يؤثر فى زيتها ، فتراه من صفائه ولمعانه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٣٥)﴾ [النور] ، وتعطى الشجرة الضوء القوى الذى يناسب بنوتها للشمس ، فإن كانت الشمس هى التى تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هى ابنتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها ضوء الشمس .

إذن : مَثَلُ تنوير الله للسموات وللأرض مثل هذه الصورة مكتملة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المواصفات ، أيكون بها موضع مظلم ؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات وللأرض ، أما نوره تعالى فشىء آخر فوق أنْ يُوصَف . وما المثَل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .

وسبق أنْ ذكرنا قصة أبى تمام حين وصف الخليفة ومدحه بأبرز الصفات عند العرب ، فقال :

إقْدَامُ عَمْرٍو فِى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْم أحنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب ؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب ؟ فالأمير فوق مَنْ وصفتَ .

فأكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكروا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً شَـــرُوداً فـى النَّـدَى والبَـاس
فَاللهُ قَـدْ ضـربَ الأقـــلَّ لنُـوره مَثَـلاً مـن المشْـكَاة والنِّبــراس

فالله - تبارك وتعالى - هو نور السموات والأرض أى : مُنوِّرهما ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس فى وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حَدِّ قول الشاعر فى المدح :

كأنكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكبٌ إذَا ظَهَرتْ لَمْ يَبْدُ منهُنّ كوكَبُ

ثم يقول سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فلم يتركنا الحق - سبحانه وتعالى - فى النور الحسىِّ فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذى ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حسِّى ، ونور قيمى معنوى ، وإذا شهدتم أنتم بأن نورى الحسىّ ينير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم ، فاعلموا أن نور منهجى كذلك يطغَى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر فى وجود منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : لنوره المعنوى نور المنهج ونور التكاليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإن اهتدوا إلى النور الحسىِّ فى الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا لهَ مصابيحهم ، لكن لم يكُنْ لهم حظ فى النور المعنوى ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوى مثْلُ نوره الحسى لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء فى أثر على بن أَبى طالب : « من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

والعجيب أن العبد كلما توغل فى الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور] يعنى : للعبرة والعظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِى بُيُوتٍ .. (٣٦) ﴾ [النور] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذى سبق الحديث عنه فى بيوت أَذِن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوى الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه فى مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذى يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية فى ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش فى ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية فى البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيّز إلى مكان خاص به ؛ لأن التحيّز أمر مطلوب فى النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر فى اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا

مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً فى الأرض ، هو أول بيت وُضع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران]

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التى اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦)﴾ [النور] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة فى بيته تعالى كما تجدون الراحة فى بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة فى بيتك والراحة فى بيت الله .

الراحة فى بيوتكم راحة حسِّية بدنية فى صالون مريح أو مطبخ مليء بالطعام ، أمّا فى بيت الله فالراحة معنوية قيمية ؛ لأن ربك - عز وجل - غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبى ﷺ كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1] ليُلقى بأحماله على ربه . وماذا تقول فى صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن : فنور على نور هذه لا تكون إلا فى بيوت الله التى أَذِن سبحانه أن تُرفعَ بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل فى الأماكن الأخرى وتعظم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفعَتْ بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التى تُعقَد فى بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التى ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد : « لا ردها الله عليك »[1] .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد ﷺ مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة فى المسجد والصلاة فى أىِّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التى تؤدى فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعلت إلا لعبادة الله ؟ لا بد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أن تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى فى سننه (١/ ٣٢٦) والترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

عن كاهلك الهمّ والغم وحلّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - جعل فى الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطرى مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذى ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه فى هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. (٨) ﴾ [الزمر]

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع البيع يُمنع الشراء فى الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشترى وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهى إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشىء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

---

(١) خوَّله كذا : ملّكه إياه متفضّلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من جديد إلى حركة الحياة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك فى حركتك فى التجارة ، وفى الإنتاج ، وفى الاستهلاك ، وفى كل ما ينفعك ويُنمى حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذى نختزله من مصالح دنيانا فى عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأَخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله ؛ لذلك ضرب لنا الحق - تبارك وتعالى - مثلاً لهذا النور بالمصباح الذى يتنامى نوره ويتصاعد ؛ لأنه فى زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرِّىٍّ والنور يتصاعد ؛ لأنها بزيت زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية فى آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة فى المثل ، فكذلك النور فى بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون فى السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة فى السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ فى ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق فى بيته وفى مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما ينعكس على سطح القمر فيُلقى إلينا بالضوء الذى نراه ؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذى يَسْطع فى بيوت الله ، ألاَ يعطينا ذلك الإشعاع الذى يفوق إشعاع البدور ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ[1] لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾[النور] فالمساجد جُعلَتْ لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها[2] .

والغُدوُّ : يعني الصباح ، والآصال : يعني المساء ، فهي لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم :

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ[3] فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَٰرُ (٣٧) ﴾

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضي البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْهِهمْ التجارة عن ذكْر الله لأنهم عرفوا ما في الزمن المستقطع للصلاة مِنَ بركة تنثر في الزمن الباقي .

---

(١) هناك قراءة أخرى « يُسبَّح » قرأها عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن . بفتح الباء على ما لم يُسمَّ فاعله . ذكره القرطبي في تفسيره (٦/٤٨١٢) .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٦/٤٨١٢) : « رأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة ، فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله ﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور] ثم قال : « اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين . فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاءه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا » .

(٣) كناية عن الحيرة والفزع الشديد والبحث عن موضع للفرار من أهوال يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم [تفسير القرطبي ٦/٤٨١٧] .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذكْر الله فى ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا فى الصِّغَر نسمع فى الأسواق بين البائع والمشترى ، يقول أحدهما للآخر : وحِّد الله ، صَلِّ على النبى ، مدَّح النبى ، بالصلاة على النبى ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس .
ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبى ، فهى فى حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيِّع عليه الوقت ، وتُفوِّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذى يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له فى وقته ، وينجز من الأعمال فى الوقت المتبقى ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه فى دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سَلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه فى صفات هؤلاء الرجال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور] ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى

وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمّا هؤلاء فيتاجرون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قسْتَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدرى متى يفاجئك فيه الموت ، أمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفى الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاَ وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] واليوم فى ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخَاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خِفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادى لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث فى هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب فى القلب ؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلَّب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهى الموقف إلى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ .. (٤٣)﴾ [القلم] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا مَنْجى ، ولن يجد فى هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته،

يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : فى هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله !! لكن كيف بأسوأ ما عملوا ؟ هذه دَعُوها لرحمة الله ولمغفرته ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] لأن الله تعالى لا يعاملنا فى الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق .. إلخ .

والبعض يظن أن الرزق يعنى المال ، وهذا خطأ ؛ لأن الرزق مجموعُ أمور كثيرة ، فإنْ كان رزقُك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقكَ صنعة تجيدها ، فاصنع لأخرقَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك - عز وجل - يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْطِ المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً

المعدمين ، واعلم أنك مُنَاول عن الله ، والرزق فى الأصل من الله وقد تكفّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة فى العطاء ، فأنت تعطى من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطى كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعنى ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب ؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد ؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدِّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، ألاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروف كثيرة ، لكن لم يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل فى عمل الخير أنْ يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء فى الحديث : « عملت ليقال وقد قيل »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِى فى النار » الحديث .

لقد مدحوك وأثنَوْا عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخلَّدوا ذكْراك ؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩)﴾ [النور]

﴿أَعْمَالُهُمْ .. (٣٩)﴾ [النور] أى : التى يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر فى الصحراء وقت الظهيرة ، كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قيعة » : جمع قاع وهى الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل ﴿يَحْسَبُهُ .. (٣٩)﴾ [النور] إلى الظمآن ؛ لأنه فى حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ظمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجرى خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهى عند خيبة المسعى إنما ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور] فُوجِىء بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ، ويصحو من غَفْلته ، ويُفَاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذى لم يجد له رِيّاً ، ومصيبة العذاب الذى ينتظره ، كما قال الشاعر[1] :

كَما أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ ... فَلمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجلَّت[2]

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذى بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعى ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً فى نفسه شمم وترفع . توفى عام (١٠٥ هـ) الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ٢٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٢١ . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

واستشـرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسـمُّون ذلك : يأسٌ بعد إطْماع .

لذلك الحق ـ تبارك وتعـالى ـ يعطينا فى الكون أمثلة تُزهِّد الناس فى العـمل للناس من أجل الناس ، فـالعـمل للناس لا بُدَّ أنْ يكون من أجل الله . وفى الواقع تصـادف مَنْ ينكر الجـمـيل ويتنكر لك بعـد أنْ أحـسنْتَ إليـه ، وما ذلـك إلا لأنك عملتَ مـن أجله ، فوجـدت الجـزاء العادل لتـتأدب بعدها ولا تعـمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ مـا فعلتَ من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قـبل أنْ تنتهى من مباشرة هذا الفعل .

وفى موضع آخر يُشبِّه الحق سـبحانه الذى ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذى لا ينتفع بالمـاء ، فلا ينبت شيئاً : ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ[2] فَتَرَكَهُ صَلْدًا[3] لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة]

وقـوله تعـالى : ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] فـإياك أنْ تستبـعد الموت أو البعث ، فـالزمن بعد الموت وإلى أن تقـوم الساعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كـما قال سبحانه : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

والله تعالى أخـفى الموت أسـباباً وميـعاداً ؛ لأن الإبهـام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة ؛ لأنك تتوقعه

---

(١) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزراعة . [القاموس القويم ١ / ٣٨٠] .
(٢) الوابل : المطر الكثير القطر . والوبيل : الثقيل الغليظ جداً . [لسان العرب ـ مادة : وبل] .
(٣) الصلد : الحجر الصلب الأملس فلا يصلح لإنبات نبات . [القاموس القويم ١/٣٨١] .

فى أى لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلَّك إنْ خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا مَثَل آخر توضيحى لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجى : الواسع الكبير الذى تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق ؛ لأنه طبقات متتالية ، وفى أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التى هى جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى ؟

وقوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] أى : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أَوْلَى ؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدى ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يَرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشىء من عمله .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » . وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ(١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يريد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يلفتنا إلى ما يدلّ على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر ونواه ، وكأن ربك ـ عز وجل ـ يريد أنْ يُطمئنك على أن هذا الكون الذى خلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذا الكون ، وجعله فى استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شىء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتى يوم يتمرّد فيه ، أو يعصى أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

﴿ أَلَمْ تَرَ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] يعني : ألم تعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] ومعلوم أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون فى الألفاظ ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به ـ غيباً عنك ـ أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، ألاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قِصَر

---

(١) صافات : مصطفات الأجنحة فى الهواء ، فهن باسطات الأجنحة . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح . حكاه النقاش . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٤] .

نظر .. إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إذن : نزِّه ذات الله تعالى عن الذوات التى تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فعْل ، ولله تعالى فعْل .

وقد ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فعْل الله وفعْل العبد ، فرسول الله ﷺ لم يقل : سريْتُ من مكة إلى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِى بى .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج فى فعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألاّ تقارن فعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزِّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] فشهد الحق - تبارك وتعالى - لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هى

شـهادة الذات للذات . وقـبل أن يخلق الله الإنسـان المـسبِّح سـبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتـتبع ألفاظ التسـبيح فى القرآن الكريم تجدهـا جاءت مرة بصيغة الماضى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد] فهل سـبَّحَتْ السموات والأرض مـرة واحدة ، فقالت : سبـحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ فى الماضى ، ولا تزال تُسبِّح فى الحاضر : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ①﴾ [الجمعة]

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى] يعنى : اسـتح أن يكون الكون كله مُـسبِّحاً وأنت غـيـر مُسـبِّح ، فصلْ أنت تسـبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجـيب أن نسـمع من يقول أن (مَنْ) فى الآية للعـاقل ، فـهو الذى يُسبِّح أمّـا السموات والأرض فـلا دخلَ لهما فى هذه المـسألة ، ونقول : لا دخلَ لها فى تصورك أنت ، أمّا الحقـيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ㊶﴾ [النور]

وقال : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ⑬﴾ [الرعد] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحـقيقة ، إنما هو تسبيح دلالة وحـال ، لا مـقـال ، يعنى : هذه المـخلوقـات تدلُّ بحـالهـا على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِى كُلِّ شَىء لَهُ آيَةٌ تدُلُّ على أنَّه الوَاحدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بنى جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربى إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهى لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شىء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأى : تأملوا الخلية المسدَّسة التى يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها فى بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمى الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك فى العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التى ستقضى عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة] وكأن ربنا - عز وجل - يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة فى النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفى إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذى يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد علِم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمى نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة فى ﴿ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤١) ﴾ [النور]

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثقل ، يخضع لقانون الجاذبية التى تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ فى الهواء .

لكن الحق - سبحانه وتعالى - يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته فى الهواء ، يظل مُعلّقاً لا يسقط : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ .. (١٩)﴾ [الملك]

وكأن الخالق - عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل فى ﴿عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] ؟

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما فى الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح[1] . إذن : فكل ما فى الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٢٤) : « يجوز أن يكون المعنى : كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، أى : علم صلاة المصلى وتسبيح المسبّح ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾ [النور] أى : لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . وقد قيل : المعنى : قد علم كل مُصلٍّ ومسبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه » .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد فى الكون خللاً أبداً إلا فى منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شىء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض فى يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الانضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ [النور] أى : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾

يريد ربك - عز وجل - أنْ يُطمئنك أن الذى كلّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها مِلْك لله ، لا يشاركه سبحانه فى ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدى مهمتها فى خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[1] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا[2] بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] يعنى : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذى يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفى هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ، ونحن نُجرى مثل هذه العملية فى تقطير الماء حين نغلى الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرض ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى ﴿ يُزْجِي سَحَابًا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : يرسله برِفْق ومَهَل ؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْى الفتاة قال :

كَأَنَّ مِشْيَتَها منْ بيْت جَارَتها مَرُّ السَّحابَة لاَ رَيْث[3] ولاَ عَجَل

---

(١) الودق : المطر ، شديده وهيِّنه . [لسان العرب ـ مادة : ودق] .

(٢) السنا : ضوء النار والبرق . قال أبو زيد : سنا البرق ضوؤه من غير أن ترى البرق أو ترى مخرجه فى موضعه ، فإنما يكون السنا بالليل دون النهار ، وربما كان فى غير سحاب [لسان العرب ـ مادة : سنا] .

(٣) الريث : الإبطاء . راث يريث : أبطأ . وتريث فلان علينا . أى : أبطأ . [لسان العرب ـ مادة : ريث] .

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ .. (٤٣)﴾ [النور] أى : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قِطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمِّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحِّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا ؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفى هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعِلُون بداخله قطعةً من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل فى التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هى سِرُّ عظمة قدماء المصريين فى البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونة) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئين يُحدث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل فى السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعِدُّه فى المعمل ، فما بالك بالمطر الذى يسقى الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣)﴾ [النور] يعنى : مُكدَّساً

بعضه على بعض ، وفى آية أخرى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور] متراكم بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : من خلال هذه الفجوات والفواصل التى تفصل بين السُّحُب .

وهذا الماء الذى ينزل من السماء فيُحيى به الله الأرض قد يأتى نقمةً وعذاباً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] ولنا فى أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدويْن متقابلين يصعب مقاومتهما ؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدٍّ مأرب ؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا فى الصحراء بعيداً عن الماء .

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى - عليه السلام - وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشىء وضده بالشىء الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : الضوء الشديد الذى يُحدثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفى البرق تتولد النار من الماء ؛ لذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ[1] ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير] فصدِّق هذه الآية الغيبية ؛ لأنك شاهدتَ نموذجاً لها فى مسألة البرق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) أى : امتلأت ماءً ، أو امتلأت ناراً يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٠٣] .

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد يستويان فى الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هى قيومية الله تعالى وقدرته فى تصريف الأمور على مراده تعالى ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور]

العبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكان العبور يعنى الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعنى : نقل الكلام النفسى إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ فى الشىء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عينى الدمع .

والعبرة هنا لمن ؟ ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التى تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شىء ، ومنهم أصحاب النظر الواعى المدقِّق ، فالذى اكتشف قوة البخار رأى القدْر وهى تغلى وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التى تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشىء ينفعه ، والله تعالى قد خلق فى الكون ظواهرَ وآيات لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها ما يُثرى حياته ويرتقى بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شيء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج في رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (بج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة في حجم فصِّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التي في ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صغِرَها .. سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل في خَلْقة كل شيء حيٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه

وهذه الخِلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة فى قوالب ثابتة ، إنما هى ألوان وأشكال ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور]

والمشى : هو انتقال الموصوف بالمشى من حَيِّز مكانى إلى حَيِّز مكانى آخر ، والناس تفهم أن المشى ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْى أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه ، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع(١) .

وربنا - سبحانه وتعالى - بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفى تنوع طُرق المشى فى الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. (٤٥) ﴾ [النور] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشى ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. (٤٥) ﴾ [النور] تندرج مثلاً (أُم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما فى

---

(١) قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه إلى جميعها . وقال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً ، بل هى محتاج إليها فى تنقل الحيوان ، وهى كلها تتحرك فى تصرفه . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٩] .

فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هى مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذى يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْى أيضاً السَّعْى بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ[1] مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - الأدلة على أن الملْك له وحده ، وأن كل شىء يُسبِّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه :

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

يعنى : مَنْ ملك هذا الملْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم فى الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

ومعنى ﴿ مُّبَيِّنَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [النور] أى : لاستقامة حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدى كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذى يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمى يضبط كل الحركات ويحثّ كل

---

(١) الهماز : صيغة مبالغة . والهُمَزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعيبهم . وقيل « الهمز » فى القفا والسر ، و « اللمز » عيب فى الوجه فى العلانية . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] .

صانع أنْ يتقن صَنْعته ويُخلص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة فى حياته ، هى حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما فى أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما فى يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما فى أيديهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾[النور]

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل فى هذه المشيئة فلم يَهْتد ؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدى الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل فى إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق فى توجيهه وأطاع فى هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة ﴿ أَنزَلْنَا .. (٤٦) ﴾ [النور] تشعر باحترام الشىء المنزّل ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلُو إلى الأدنى ، فكأن ربك - عز وجل - حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من مستوى الأرض إلى عُلو السماء ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

أى : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذى خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ؛ ذلك لأن للإنسان ملكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن ملكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط ؛ لأن ملكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة[1] ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب الملكات في نفسه ؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رأى نفسه فى نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه

(١) من تقلد الوسام وآثر الحسن والجمال فالاستسامة طلب الحسن والجمال .

فلن يُعوِّضه عنها شىء حتى إنْ كسب العالم كله ؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلى بنفسى أجدها حقيرة : فعلتْ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك فى نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأى الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

ويقول تعالى فى هؤلاء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النساء]

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ما تحاكموا إلى الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .

لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم ؛ لأنه منسجم الملكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون فى الدَّرْك الأسفل من النار .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون]

وهذه المقولة ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ①﴾ [المنافقون] مقولة صادقة ، لكن القرآن يُكذِّبهم فى أنهم شَهدوا بها .

وقد نزلتْ هذه الآية[1] فى أحد المنافقين أظن أنه بشر[2] ، وكانت له خصومة مع يهودى ، فطلب اليهودى أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف ، لكن رَدَّ اليهودى حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته - والإنسان وإن كان فى نفسه مُزِّيفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم فى أمره إلى الأمين العادل - وفعلاً تغلّب اليهودى وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودى . وفى هذا دلالة على أن اليهودى كان ذكياً فَطِناً ، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله ﷺ .

لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله ، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضى الله عنه وقَصَّا عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم

---

(١) يقصد الآيتين التاليتين من سورة النور آية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) هذه القصة وردت فى سبب نزول آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ .. ⑥⓪﴾ [النساء] . أوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ٩٢) عن ابن عباس قال : « نزلت - أى آية سورة النساء - فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله تعالى الطاغوت ، فأبى اليهودى إلا أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ، فاختصما إليه ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى ، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال : ننطلق إلى عمر بن الخطاب ، فأقبلا إلى عمر . فقال اليهودى : اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى عليه فلم يرض بقضائه : وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بى فجئت إليك معه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : نعم . فقال لهما : رويداً حتى أخرج إليكما . فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه ، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ، وهرب اليهودى ونزلت هذه الآية . وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسُمِّى الفاروق » .

وقد أوردها أيضاً فى أسباب النزول (ص ١٨٨) وكذا أوردها القرطبى فى تفسيره (٤٨٣١/٦) .

رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشْهره في وجه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائى فيه .

إذن : فهؤلاء يقولون : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا .. (٤٧)﴾ [النور] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملى ، والإيمان يقتضى أن تجىء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .

فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [النور] والتولِّى : الانصراف عن شىء كان موجوداً إلى شىء مناقض ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [النور] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾

المراد ما كان من أمر بشر واليهودى ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإنْ كان إعراض المنافق واضحاً فالآية لا تريد تبرئة ساحة اليهودى ، لأنه ما رضى بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق له وواثق أن رسول الله ﷺ لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإنْ كان ليهودى ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله محبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ[1] اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾

---

(١) الحيف : الميل فى الحكم والجور فيه . حاف يحيف : جار وظلم . [القاموس القويم ١/١٨١] .

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة .. الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدرى بها طالما هى سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿ أَمِ ارْتَابُوا .. ۝٥٠ ﴾ [النور] يعنى : شكُّوا فى رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ .. ۝٥٠ ﴾ [النور] يعنى : يجور ويظلم ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٥٠ ﴾ [النور] أى : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَلُمْه إن ظَلَم الآخرين .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى فى ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنِّيه بجزاء خير .

ثم يأتى السياق بالمقابل :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾

فما دُمْت قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان فى كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر

أولاً ، فاختار أن يكون مُسيَّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجىء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النور] يعنى : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شىء .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامى يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا فى الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعنى : أجاب الله مَنْ حمده .

﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهى من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة فى الأرض هى أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطى سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى من يزرعها كل

هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف - رحمه الله ورضى الله عنه - يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فلم تَدَع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به فى هذه البرقية الموجزة التى جمعتْ المنهج كله[1].

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] أى : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ . ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فى الباقى من عمره ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانىَ الكثيرة فى اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزى المشهور حين قالوا له : إذا طُلب

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٣٣) أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبى ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ؟ قال : نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى السنن ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقى من عمره ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبى ﷺ : « أوتيتُ جوامع الكلم » .

منك إعداد خطاب تلقيه فى ربع ساعة فى كم تُعدّه ؟ قال : فى أسبوع ، قالوا : فإنْ كان فى نصف ساعة ؟ قال : أُعدُّه فى ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان فى ساعة ؟ قال : أُعدّه فى يومين ، قالوا : فإنْ كان فى ثلاث ساعات ؟ قال : أُعده الآن .

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق فى أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإنى أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندى للإيجاز .

وبعد أنْ تحدّث القرآن عن قَوْل المنافقين وعن ما يقابله من قول المؤمنين وما ترتب عليه من حكم ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾ [النور] ذلك لأن ذكْر المقابل يُظهر المقابل ، كما قالوا : والضد يظهر حُسْنَه الضدُّ . بعدها عاد إلى الحديث عن النفاق والمنافقين ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) ﴾

القَسَم : هو اليمين والحلف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سراً فى أنفسهم ، إنما ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [النور] يعنى : بَالَغوا وأتَوْا بمنتهى الجهد فى القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمى أو أبى ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبى ﷺ : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت »[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٧٩ ، ٣٨٣٦ ، ٦١٠٨) وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان من حديث عبد الله بن مسعود ، وفى لفظ مسلم أن ابن مسعود أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ .. (٨١) ﴾ [النساء]

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى فى : ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ .. (٨١) ﴾ [النساء] وهذا احتياط ؛ لأن منهم أناساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون فى أنْ يُخلِصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يُقسمون عن غير صدْق فى القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحلف والحنْث فيه ؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحلف : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا .. (٥٣) ﴾ [النور] ولا يمكن أن ينهى المتكلمُ المخاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون فى قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ .. (٥٣) ﴾ [النور] يُشعر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهى طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) ﴾ [النور] والذى يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما فى نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور فى نفوسهم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصى الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يُبقى عليهم ، وألاَّ يرمى (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ؛ ذلك لأنهم عباده وخلْقه .

وكما ورد فى الحديث الشريف : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة .. »[1]

ونلحظ فى هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] وفى آيات أخرى يأتى الأمر مرة واحدة ، كما فى الآية السابقة : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾﴾ [النور] ، وفى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال] وفى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] أى : أن طاعتهما واحدة .

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود . والفلاة : الصحراء الواسعة التى قُلِيت عن الزرع والإنبات .

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه فى الحديث الشريف ، وجعل له ﷺ حقاً فى التشريع بنصِّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق - تبارك وتعالى - وفرضها ، لكن تفصيلها جاء فى السنة النبوية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر فى السنة .

كالذى يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصَل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن فى الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون فى القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام] فهات لى من القرآن : كم رغيفاً فى إردب القمح ؟ فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : فى الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

فالأمر الذى يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾ [النساء]

وفى الحديث : « الصلاة عماد الدين »[1]

ففى مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله والرسول ؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما فى مسائل عدد الركعات وما يُقَال فى كل ركعة وكوْنها سراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله فى إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة خاصة بالرسول فى تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتى الأمر مرتين ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٤)﴾ [النور]

كما نلحظ فى القرآن : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٦)﴾ [النور] هكذا فحسب .

قالوا : هذه فى المسائل التى لم يَرِدْ فيها تشريع ونَصٌّ ، فالرسول فى هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبى ﷺ عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان ﷺ هو الوحيد الذى فُوِّض من الله فى التشريع .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. (٥٤)﴾ [النور] لأنه تعالى أعلم بحِرْص النبى على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه فى دعوتهم ، كما خاطبه فى موضع آخر : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك ﴿قُلْ

---

(١) تمام الحديث : « من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشّعب بسند ضعّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى « مشكل الوسيط » : « إنه غير معروف » . وذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] أى : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تُؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] نلحظ أن المفعول فى ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هى طاعة واحدة .

وقوله : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] تكليفاً من الله ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعى لتنظيم حركة الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين ، يصبحون فى السلاح ويمسون فى السلاح . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة ، وأنزل الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] إلى آخر الآية ، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب ، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف وغيَّروا فغيَّر الله بهم . رواه الربيع ابن أنس عن أبى العالية . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٨) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) ، والقرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٣٥) .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

فى أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور ؛ لأنها تبين للناس النور الحسىّ فى الكون ، وتقيس عليه النور المعنوى فى القيم ، وما دُمْنا نطفىء أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله فى الشمس ، يجب كذلك أن نطفىء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رأىٌ مع شرع الله ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - يريد لخليفته فى الأرض أن يكون فى نور حسىٍّ ومعنوى ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَات وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّى

بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[١] .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَرِبة أشبه ما تكون بالراديو الذى لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفى الحديث يقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « أطِبْ مَطْعمك تكُنْ مُسْتجاب الدعوة »[٢] .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة فى الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترْمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لا تطّلعوا على عورات الناس .. إلخ .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة فى الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعانى تصبُّ فى هذه الآية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور] فمَنْ فعل ذلك كان أَهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغَثَّ[٣] من السَّمين ، ألاَ ترى المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) من حديث ابن عباس قال : تليت عند رسول الله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا .. (١٦٨) ﴾ [البقرة] فقال سعد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ : « يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » . قال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم »

(٣) الغث : الردىء من كل شىء . ولحم غَثٌّ : مهزول . [لسان العرب ـ مادة : غثث] .

الأوائل كيف كانوا يُعذَّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

وهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله فى أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا فى اتجاه مبادئهم . وهذا الابتلاء الذى عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أهْلاً لها .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ .. (٥٥) ﴾ [النور] والوَعْد : بشارة بخير لم يأت زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضدّه الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأت زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافى الوقوع فى أسبابه .

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صدْق ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ [النساء] وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ (١١١) ﴾ [التوبة].

والذى يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطَبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفى له بما وعد ، وقد يأتى زمنُ الوفاء فلا يقدر عليه ، أمّا الحق - تبارك وتعالى - فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..(٥٥)﴾ [النور] قلنا : إن الإيمان الذى يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيمانى مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا.. (١٤)﴾ [الحجرات] فردَّ الله عليهم : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا..(١٤)﴾ [الحجرات] يعنى : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فبماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ..(٥٥)﴾ [النور] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..(٥٥)﴾ [النور] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس بدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد فى مواكب الرسل والنبوة ومُشَاهد فى المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُوذُوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤمَروا بردِّ العدوان .

حتى إن رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة فى جَمْع من صحابته استقبله الأنصار بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل فى تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصارى زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أُطلِّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا ناراً : كيف يعيش المهاجرون فى المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذى يشكل أعظم الخطر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا بالسلاح مخافةَ أنْ ينقضَّ عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوانه : أترونَ أنَّا نعيش حتى نأمن ونطمئن ولا نبيت فى السلاح ونصبح فيه ، ولا نخشى إلا الله ؟ يعنى : أهناك أمل فى هذه الغاية ؟

وآخر يذهب إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون ؟ ألاَ يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمنين ؟

فيقول النبى ﷺ بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يُكذَّب فيما بعد : « لا تصبرون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتبياً ليست فيه حديدة »[(١)] يعنى : فى الملأ الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهانىء ، والحديدة كناية عن السلاح .

وقد قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منها »[(٢)] .

ومعنى « إن الله زوى لى الأرض » معلوم أن للإنسان مجالَ رؤية يلتقى فيه إلى نهاية الأفق ، أمّا الأرض ذاتها فواسعة ، فزُوِيَتْ الأرض لرسول الله يعنى : جُمعت فى زاوية ، فصار ينظر إليها كلها .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) سبباً فى نزول الآية مروياً عن أبى العالية .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٨٩) كتاب الفتن ، وأحمد فى مسنده (٥/٢٧٨ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان رضى الله عنه .

إذن : فهم فى هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال ، وقد قال تعالى عنهم فى هذه الفترة : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة].

وفى غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق يُنزل تعالى على رسوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم فى مكة فى أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أنْ رأى ما نزل بالكفار قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ثم ينزل الله تعالى على رسوله ﷺ بعض الآيات التى تُطمئن المؤمنين وتصبرهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

فاطمئنوا ، فكل يوم ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، فالمقدِّمات فى صالحكم ، ثم يأتى فتح مكة ويدخلها النبى ﷺ فى موكب مهيب مُطأطِئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهِراً ذلة العبودية لله .

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله ﷺ فى هذا الموكب يقول للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان[1] ، يعنى : المسألة ليست مُلْكاً إنما هى بشائر

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) أن جيوش المسلمين عُرضت على أبى سفيان فى فتح مكة وهو مع العباس عم رسول الله ﷺ ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان فى مكة .

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير وبنى قريظة وينتصر عليهم ، ثم تسقط فى يده البحرين ومجوس هَجَر ، ويدفعون الجزية .

بعد ذلك يرسل ﷺ كُتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، فيرسل إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى المقوقس ، وإلى هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتيه الهدايا من كُلٍّ هؤلاء .

ويستمر المدُّ الإسلامى والوفاء بوعد الله تعالى لخليفة رسول الله ، فإنْ كان المد الإسلامى قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ، فإنه تعدّاها إلى شتى أنحاء العالم فى عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد الإسلامُ العالمَ كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين فى ذلك الوقت : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب فى وقت واحد ، ويتحقق وعد الله للذين آمنوا بأنْ يستخلفهم فى الأرض .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتحقق النبوءات التى أخبر بها ، ومنها ما كان من أمر سراقة بن مالك الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش ، وبعد أنْ تاب سُرَاقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقة ساعديْه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : « كيف بهما فى سوارى كسرى ؟ »[1]

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٣٢٥) أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما فى يدَىْ سراقة قال : الحمد لله ، سوارا كسرى بن هرمز فى يد سُراقة ابن مالك بن جُعْشم أعرابى من بنى مدلج وذكر الحديث . قال الشافعى ـ رحمه الله : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : « كأنى بك قد لبست سِوارىْ كسرى » .

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سُرَاقة ، فيلبسهما ، ويراهما الناس فى يديه .

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعد الله يراها المؤمنون فى أنفسهم ، لا فيمن يأتى بعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ.. (٥٥)﴾ [النور] يعنى : المسألة لن تطول .

كذلك أم حرام بنت ملحان[١] التى خرجت فى غزوة ذات الصوارى وركبت البحر ذكرت أن رسول الله ﷺ كان ينام هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له : ما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال : « أناس من أمتى يركبون زَبَد هذا البحر ، ملوك على الأسرَّة أو كالملوك على الأَسرّة » فقال : ادْعُ الله أن أكون منهم ، فدعا لها فاستجاب الله دعاءه ، وخرجتْ فى الغزوة ، ولما ركبوا البحر الأبيض أرادت أنْ تخرج فماتت[٢] .

إذن : فالبشارة فى هذه الآية ليست بشارة لفظية ، إنما هى بشارة واقعية لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً .

لكن ، ما المراد بالأرض فى ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..(٥٥)﴾ [النور] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُفْردةً غير مضافة لشىء فتعنى كل الأرض ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

---

(١) أخت أم سليم ، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ ، وكان يقيل فى بيتها وتزوجها عبادة بن الصامت . قال هشام بن الغاز : قبر أم حرام بقبرس ، وهم يقولون : هذا قبر المرأة الصالحة . « المؤمنات الصالحات لتقى الدين الحصنى توفى ٨٢٩ هـ . ص ٥٣ ، ٥٤ ـ دار البشير تحقيق عادل أبو المعاطى » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٦١/٢) بهذا اللفظ ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٢/٦ ـ فتح البارى) وأبو نعيم فى الحلية (٦٢/٢) بلفظ : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا » قالت أم حرام : أنا منهم ؟ قال : « أنت منهم » .

الأرْضَ.. ﴿١٠٤﴾ [الإسراء] يعنى : تقطّعوا فى كل أنحائها ، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ.. ﴿١٠٤﴾ [الإسراء] الذى وعد الله به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء] يعنى : جمعناكم من الأراضى كلها ، وهذا هو الأمل القوى الذى نعيش عليه ، وننتظر من الله أنْ يتحقق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] فوق الاستخلاف فى الأرض يُمكّن الله لهم الدين ، ومعنى تمكين الدين : سيطرته على حركة الحياة ، فلا يصدر من أمور الحياة أمر إلا فى ضوئه وعلى هَدْيه ، لا يكون ديناً مُعطّلاً كما نُعطِّله نحن اليوم ، تمكين الدين يعنى توظيفه وقيامه بدوره فى حركة الحياة تنظيماً وصيانة .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] وهم الذين قالوا : نبيت فى السلاح ، ونصبح فى السلاح ، فيبدلهم الله بعد هذا الخوف أَمْناً ، فإذا ما حدث ذلك فعليهم أنْ يحافظوا على الخلافة هذه ، وأنْ يقوموا بحقها ﴿يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]

ومعنى ﴿كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] يعنى : بعد أن استخلفه الله ، ومكّن له الدين وأمَّنه وأزال عنه أسباب الخوف .

وفَرْق بين تمكين الإسلام وتمكين مَنْ يُنسب إلى الإسلام ، فالبعض يدَّعى الإسلام ، ويركب موجته حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهى المسألة ، لا .. لأن التمكين ليس لك أيها الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذيْن الركنين ، وتأتى الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هى الركن الوحيد الذى فُرض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرِضَتْ بالوحى ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى بالرئيس الذى يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق - تبارك وتعالى - أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحى ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبى ﷺ لأمته قال له : أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى فى الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدنى .

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسةً ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هى الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق - عز وجل - حين يطلب من صنعته أن

تقابله وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذى يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَب ؟

وربك هو الذي يناديك ويدعوك للقائه ويقول : « لاَ أملّ حتّى تملُّوا »[1] ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ فى بيته وفي معيته فعلي الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها فى الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففى الصلاة تتكرر الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع فى الصلاة عما تمتنع عنه فى الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه فى صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان فى الاستبقاء ، لذلك كانت هي عمود الدين ، والتى لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتي يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّى بين الناس ، فيقف الغنى والفقير والرئيس والمرؤوس في صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْب قدومه ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين .

وهذا يُحدث استطراقاً غبودياً فى المجتمع ، ففى الصلاة مجال يستوى فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل . إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم فى الصلاة ، وقوام المادة فى الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾ [النور] وهنا فى الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة ؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه فى فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما فى السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. (٥٦)﴾ [النور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ .. (٥٧)﴾ [النور] يعنى : لا تظنن ، والشىء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعنى : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما علَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلِتون من عقاب الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُملى لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم ، أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدرِكهم لا محالةَ .

وجاء على لسان الجن : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢)﴾ [الجن]

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٥٧)﴾ [النور] أنها عطفتْ هذه الجملة على سابقتها ، وهى منفية ﴿لا تَحْسَبَنَّ .. (٥٧)﴾ [النور] فهل يعنى هذا أن معناها : ولا تحسبن مأواهم النار ؟ قالوا : لا ، إنما المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض لأن مأواهم النار .

﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾ [النور] أى : المرجع والمآب .

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمسُّ المجتمع من داخله والأسرة فى أدقِّ خصوصياتها ، بعد أنْ ذكر فى أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجى ، فيقول سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ[1] الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)﴾

تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبويْن والأبناء ، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم ، والحق - تبارك وتعالى -

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

يريد أن يُنشِّىءَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعنى : يا من آمنتم بى رباً حكيماً مُشرِّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب : ﴿ **لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ** .. (٥٨) ﴾ [النور]

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتى على صورتين : فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى : ﴿ **لِيَسْتَأْذِنكُمُ** .. (٥٨) ﴾ [النور] يعنى : علِّموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم ، مثل : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا** .. (٣٣) ﴾ [النور] يعنى : استعفوا ، لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل : ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ** .. (٧) ﴾ [الطلاق]

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكلِّف به كل مؤمن داخل الأسرة ، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم ملْك اليمين والأطفال الصغار ، فأمر الله الكبارَ أن يُعلِّموا الصغار ، كما ورد فى الحديث الشريف : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »(١) .

فلم يُكلَّف بهذا الصغار إنما كُلِّف الكبار ؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْد مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم ، لذلك أنت الذى تأمر وأنت الذى تتابع وتعاقب(٢) .

وأمْرُ الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لِتُربى فيه الدربة والتعود

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

(٢) قال الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٨٩ : « إن قلت : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم ، مع أنهم غير مكلفين؟ قلت : الأمر فى الحقيقة لأوليائهم ليؤدِّبوهم » .

على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَره ، إنما إنْ عوَّدته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سِنِّ التكليف ، وتتحول العادة فى حقه إلى عبادة يسير عليها .

وشرع الله لنا آداب الاستئذان ؛ لأن للإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخاصة من أهله فى أمور لا يُظهرها على الآخرين ، إذن : فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة ، وحرية المرء فى أسرته أوسع من حريته فى المجتمع العام ، فإنْ كان فى حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة .

فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمى هذه الخصوصيات ، وتُنظِّم علاقات الأفراد فى الأسرة الواحدة ، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير, لأن الأجير حر يستطيع أن يتركك فى أى وقت ، أمَّا العبد فليس كذلك ؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له ، فالمملوكية راجحة فى هؤلاء ، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفْلت منه .

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلَغ التكليف ، ويقضون المصالح ؛ فتراهم فى البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط ، فهل نتركهم هكذا يطَّلِعون على خصوصياتنا ؟

وللخدم فى البيت طبيعة تقتضى أن يدخلوا علينا ويخرجوا ،

وكذلك الصغـار ، إلا فى أوقات ثلاثة لا يُسْمح لهم فيـها بالدخول إلا بعـد الاستـئذان : ﴿مِّن قَـبْلِ صَـلاةِ الْفَـجْـرِ .. (٥٨)﴾ [النور] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان فى النوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨)﴾ [النور] وهو وقت القيلولة ، وهى وقت راحة يتخفَّف فيـها المرء من ملابسه ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ .. (٥٨)﴾ [النور] وبعد العـشاء النوم . هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبـغى لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك .

وانظر إلى هذا التـحـفّظ الذى يوفره لـك ربك ـ عز وجل ـ حـتى لا تُقيِّد حـريتك فى أمورك الشخصـية ومسائلك الخـاصة ، وكأن هذه الأوقات مِلْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذانَ يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن .

أما فى بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر فى أمر من الأمور ، فأرسل إليه غلاماً[1] من الأنصار ، فلما ذهب الغلام دفع البـاب ونادى : يا عـمر . فلم يرد ؛ لأنه كـان نائمـاً ، فـخرج الغـلام وجلس فى الخارج ودَقَّ الباب فلم يستيقظ عمر ، فماذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السمـاء وقال : يا رب أيقظه . ثم دفع الباب ودخل عليه ، وكان عمـر نائماً على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستـيقظ عمـر ولحظ أن الغلام قد رآه على هـذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبـى ﷺ قـال : يا رسـول الله نريد أن يـسـتـأذن علينـا أبناؤنا

---

(١) هو : مدلج الأنصارى . ذكره ابن حـجر العسقلانى فى « تمييز الصـحابة » (ترجمة رقم ٧٨٥٢) وذكر هذا الحديث وقال : « أخرجه ابـن منده من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس » ذكره ثم قال : « وفـيه أن النبى ﷺ قال للغلام « أنت ممن يلج الجنة » .

ونساؤنا ومواِلينا وخدمنا ، فقد حدث من الغلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية[1] .

ويُسمِّي الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة : ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ.. (٥٨)﴾ [النور] والعورة : هي ما يحب الإنسان ألاَّ يراها أحد ، أو يراه عليها ؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أنْ يراك أحد على شيء تكرهه .

لذلك يقولون لمن به خَلَل في عينه مثلاً : أعور ، والعرب تقول للكلمة القبيحة : عوراء[2] ، كما قال الشاعر :

وعَوْراء جاءتْ من أخٍ فرددْتُها   بِسالمةِ العَيْنيْنِ طَالبةً عُذْراً[3]

يعني : كلمة قبيحة لم أردّ عليها بمثلها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل بسالمة العينين الاثنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ .. (٥٨)﴾ [النور] يعني : بعد هذه الأوقات : لا إثمَ ولا حرجَ عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أنْ يدخلوا عليكم ، ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مُسْتعداً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الخَدَم أو الأَطفال الصغار دون استئذان ؛ لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ..

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٨٤٠) : « قال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدلج على عمر » .

(٢) قال أبو الهيثم : يقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء : عيناء . وقال الليث : العوراء الكلمة التي تهوي في غير عقل ولا رشد . [لسان العرب ـ مادة : عور] .

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب ـ مادة عور . ولم يذكر اسم الشاعر .

﴿٥٨﴾ [النور] يعنى : حـركتـهم فى البـيت دائمة ، دخـولاً وخروجـاً ، فكيف نُقيِّدها فى غير هذه الأوقات ؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النور] أى : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث فى المجتمع تناقـضات فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النور] بكل مـا يُصلح الخـلافـة فى الأرض ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور] فى تشريعاته وأوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كـان يدخل دون استئذان فى غيـر هذه الأوقات ، فإنْ بلغ الحُلُم فـعليه أنْ يستـأذن ، لا نقول : إنه تعوَّد الاستئذان فى هذه الأوقات فـقط ، لا ، إنما عليه أنْ يستأذن فى جميع الأوقات فقد شَبَّ وكَبِر ، وانتهتْ بالنسبة له هذه الحالة .

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنـسان نُضْـجاً يجـعله صـالحاً لإنجـاب مـثله ، فهـذه علامـة اكـتمـال تكوينه ، وهذا لا يتـأتّى إلا باستكمـال الغريزة الجنسية التى هى سَبَب الـنَّسْل والإنجاب ، ومثَّلْنا ذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعـد نُضْجهـا ، فإنْ تركتَـها بعد النـضج سقطتْ من نفـسهـا ، وهذه آية من آيات الله لبقـاء النوع ، فلو أكلنا الثـمرة قـبل نُضْجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها ، فمن حكمة الله فى الخَلْق ألاَّ تحلو الثمرة إلا بعد النُّضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب ، ونقول له : انتهتْ الرخصة التى منحها لك الشرع ، وعليك أن تستأذن فى جميع الأوقات .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

وجاء بالطفل بصيغة المفرد ؛ لأن الأطفال فى هذه السِّنِّ لم تتكوّن لديهم الغريزة ، وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكأنهم واحد ، أمّا بعد البلوغ وتكوُّن الميول الغريزية قال : ﴿الأَطْفَالُ .. (٥٩)﴾ [النور] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته .

وقوله : ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩)﴾ [النور] أى : من الكبار الذين يستأذنون فى كل الأوقات ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [النور] أى : مثل ما بينَّا فى الاستئذان الأول ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .. (٥٩)﴾ [النور] لأنه سبحانه ﴿عَلِيمٌ .. (٥٩)﴾ [النور] بما يُصلحكم ﴿حَكِيمٌ (٥٩)﴾ [النور] لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسير عليها فى زِيِّها وسلوكها ومِشْيتها ، حمايةً لها وصيانةً للمجتمع من الفتنة ،

وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فجعل لها حجاباً يسترها يُخفى زينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً ، وقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لَهُنَّ حكم آخر .

والقواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أمّا القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذى قعد عن دورة الحياة ، ولم يَعُدْ له مهمة الإنجاب ، ومثل هؤلاء لم يَعُدْ فيهنَّ إرْبة ولا مطمع ؛ لذلك لا مانعَ أن يتخفَّفْنَ بعض الشىء من اللباس الذى فُرِض عليهن حال وجود الفتنة ، ولها أن تضع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك : نسبية يعنى : فمن النساء مَنْ ينقطع حَيْضها ويدركها الكبَر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ؛ لذلك ربنا - تبارك وتعالى - وضع لنا الحكم الاحتياطى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور] ثم يدلُّهُن على ما هو خير من ذلك ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ .. (٦٠) ﴾ [النور]

والمقصود بوَضْع الثياب : التخفّف بعض الشىء من الثياب الخارجية شريطة ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أَخْذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج . ونخشى أن نُعلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخذْنَ به حتى لا نقول عنهن : إنهن قواعد !!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السِّنَّ فتجدها وَرِعة فى ملبسها ، وَرِعة فى مظهرها ، وَرِعة فى سلوكها ، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وآسرية ، على خلاف التى لا تحترم سِنّها فتضع على

وجهها المساحيق والألوان فتبدو مَسْخاً مُشوَّهاً .

ومعنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ .. (٦٠)﴾ [النور] أي : يحتفظْنَ بملابسهن لا يضعْنَ منها شيئاً ، فهذا أدْعى للعفة .

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] الحرج : هو الضيق ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥)﴾ [الأنعام]

أو الحرج بمعنى : الإثم ، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضِّيق

أو الإثم الذى يتعلق بالحكم الآتى فى مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

والأعمى يتحرَّج أنْ يأكل مع الناس ؛ لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدتْ يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة فى جلْسته ، وربما ضايق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس . فرفَع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور]

فيصح أن تأكلوا معاً ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يجعل التكامل فى الذوات لا فى الأعراض ، وأيضاً أنك إنْ رأيتَ شاباً مَؤوفاً[1] يعنى به آفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحْتَ شعوره ، حتى إنْ كان ما به أمراً خلْقياً من الله لا يتأباه ، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها .

لذلك كانوا فى الريف نسمعهم يقولون : اللى يعطى العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضى بهذا الابتلاء ، وتعامل مع الناس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ؛ لذلك ترى الناس جميعاً يتسابقون إلى مساعدته والأخْذ بيده ، فإنْ كان قد فقد عيناً فقد عوَّضه الله بها ألف عَيْن ، أما الذى يتأبّى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدى نظارة سوداء ليخفى بها عاهته فإنه يسير مُتعسِّراً يتخبّط لا يساعده أحد .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع

---

(١) مؤوف : أصابته آفة . والآفة : العاهة . وآفت البلاد : صارت فيها آفة . [لسان العرب - مادة : أوف] .

منهم موقفاً[1] ؛ لذلك يعطف علي ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] ثم يقول سبحانه ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : هم مثلكم تماماً ، فلا حرجَ بينكم فى شئ .

﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ..(٦١)﴾ [النور] إلخ .

وكان فى الأنصار قزازة[2] ، إذا جلس فى بيت لا يأكل منه إلا إذا أَذِنَ له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده فى البيت دون أنْ يأذنَ له فى الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أنْ يأكل منه التابع شيئاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ..(٦١)﴾ [النور] إلى آخر هذه المعطوفات .

ولقائل أنْ يقول : وأىّ حرج فى أنْ يأكل المرء من بيته ؟ وهل كان يخطر على البال أنْ تجد حَرَجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا : لو حاولتَ استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين فى الآية لتبيّن لك الجواب ، فقد ذكرتْ الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم فى مقدمة هذا الترتيب ، لماذا ؟

---

(١) قال ابن عباس : لما أنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (١٨٨)﴾ [البقرة] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمريض لا يستوفى الطعام . فانزل الله تعالى هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٨٩] .

(٢) القزازة : الحياء . قزّتْ نفسى عن الشئ : أَبَتْه وعَافته . وتقزز الرجل من الشئ : لم يطعمه ولم يشربه بإرادة . [لسان العرب ـ مادة : قزز] .

قالوا : لأن بيوت الأبناء هى بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكتْ يداه مِلْك لأبيه ، إذن : لك أن تضع مكان ﴿بُيُوتِكُمْ .. ﴿٦١﴾﴾ [النور] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق - تبارك وتعالى - لم يُرِدْ أنْ يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء ، لأنهما شيء واحد .

إذن : لا حرجَ عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ .. ﴿٦١﴾﴾ [النور] يعنى : يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته[1] ، وفى هذا إذْنٌ لك بالتصرُّف والأكل من طعامه إنْ أردتَ .

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. ﴿٦١﴾﴾ [النور] وتلحظ فى هذه أنها الوحيدة التى وردتْ بصيغة المفرد فى هذه الآية ، فقبلها : بيوتكم ، آبائكم ، أمهاتكم .. إلخ إلا فى الصديق فقال ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. ﴿٦١﴾﴾ [النور] ولم يقل : أصدقائكم .

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصيغة المفرد ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]

لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلب رجل واحد ، وإلا ما كانوا أصدقاء ، وكذلك فى حالة العداوة نقول عدو ، وهم جمع ؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكأنهم واحد .

---

(١) عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول فى هذه الآية : أنزلت فى أُناس كانوا إذا خرجوا مع النبى ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما فى بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٠] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور] ﴿ جَمِيعًا .. (٦١) ﴾ [النور] سوياً بعضكم مع بعض ، ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور] متفرقين ، كُلٌّ وحده .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ[1] تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١) ﴾ [النور] على أنفكسم ، لأنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك ، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيمانى وحدة متماسكة ، فحين تقول لغيرك : السلام عليكم سيردّ : وعليكم السلام . فكأنك تُسلِّم على نفسك .

أو : أن المعنى : إنْ دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلِّموا على أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا : السلام على رسول الله وعلينا من ربنا ، قالوا : تُسمع الملائكة وهى ترد .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١) ﴾ [النور] وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةً .. (٦١) ﴾ [النور] والشىء المبارك : الذى يعطى فوق ما ينتظر منه ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٦١) ﴾ [النور] أى : كما بيَّن لكم الأحكام السابقة يُبيِّن لكم ﴿ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٥٧) : « الأوجه أن يقال : إن هذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وإن لم يكن فيه ساكن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وإن كان فى البيت من ليس بمسلم قال : السلام على من اتبع الهدى أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

أى : أن الذى كلّفكم بهذه الأحكام رَبٌّ يحب الخير لكم ، وهو غنىٌّ عن هذه ، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم ، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به انتفعتُم بأوامره فى الدنيا ، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ[1] لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

المؤمن : مَنْ آمن بإله وآمن بالرسول المبلّغ عن الإله ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالرسول المبلِّغ عن الله فلا بُدَّ أن تكون حركتك خاضعةً لأوامره ، ويجب أن تكون ذاتك له ، فإذا رأى الرسول أمراً جامعاً يجمع المسلمين فى خَطْب أو حدث أو حرْب ، ثم يدعوكم إلى التشاور ليُدلى كل منكم برأيه وتجربته ، ويُوسِّع مساحة الشورى فى المجتمع لَيأتى الحكم صحيحاً سليماً موافقاً للمصلحة العامة .

فالمؤمن الحق إذا دُعى إلى مثل هذا الأمر الجامع ، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله ﷺ ، وليس إلزاماً أنْ يأذن له رسول الله ﷺ ؛ لأن أمر المسلمين الجامع لهم قد يكون أهمّ من الأمر الذى يشغلك ، وتريد أن تقوم من أجله ، وتترك مجلس رسول الله ﷺ .

---

(١) اختلف فى الأمر الجامع ما هو ؟ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة فى الدين أو لترهيب عدو باجتماعهم ، وللحروب . وقال مكحول والزهرى : الجمعة من الأمر الجامع . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خِلْسة (وينسلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بُدَّ من أنْ يستأذن رسول الله حتى لا يُفوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رأيٌ ينتفع به .

والرسول إنما يستشير أصحابه ليستنير برأيهم وتجاربهم ، فحين يدعوهم إلى أمر جامع يجب أن يُفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاغه عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر نفراً للتشاور ، فإنما يتشاوران فى أمر شخصى يخصُّ صاحبه ، لكن حين يدعوهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة ، شاء الله أن تكون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التى تنتظم كل الناس خَيْراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أنْ يُقدِّر المدعو هذا الفارق .

ومع وجود هذا الفارق لم يَحرم اللهُ بعضَ الناس الذين لهم مشاغل أنْ يستأذنوا فيها رسول الله وينصرفوا ؛ لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أنْ يضعوا هذا الفارق فى بالهم ، وأنْ يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم فى أمر لشئون الدنيا كلها إلى أنْ تقوم الساعة .

فكأنه إنْ شارك فى هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته : المعاصرون منهم والآتون إلى أنْ تقومَ الساعة ، فإنْ فضّل شأنه الخاص على هذه الشئون فقد أساء ، وفعل مَا لا يليق بمؤمن ؛ لذلك أُمر رسول الله أنْ يأذنَ لمنْ يشاء ، ثم يستغفر له اللهَ .

يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ .. (٦٢) ﴾ [النور] فالأمر متروك لرسول الله يُقدِّره حَسْب مصلحة المسلمين العامة ، فلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن في الباقين عوَضاً عنه وعن رأيه ، فإنِ استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمونَ لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ .. (٦٢) ﴾ [النور] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أذن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يُهمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عَمَّا دُعي إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخَر ، ففي الأمر الجامع ينبغي أنْ يُكتّل الجميع مواهبهم وخواطرهم في الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا.. (٦٣) ﴾ [النور] فأنتم يدعو بعضكم بعضاً فى مسألة خاصة ، لكن الرسول يدعوكم لمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة .

أو : أن الدعاء هنا بمعنى النداء يعنى : يناديكم الرسول أو تنادونه ؛ لأن لنداء الرسول ﷺ آداباً يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه : يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يا أيها الرسول فقد أساءوا ؛ لأنه لا يصحّ أنْ يتعجّلوا رسول الله ، ويجب أنْ يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم ، إذن : أساءوا من وجهين .

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف . ولِمَ لا وربه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم :

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

وقال : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص]

وقال : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

وقال : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .. (٢٦) ﴾ [ص]

لكن لم يُنَاد رسولَ الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ «يـٰأيها» الرسول ، يـٰأيها النبى . فإذا كان الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

وكما نُميِّز دعاء رسول الله حين نناديه ، كذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيُراعون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان : ﴿يَتَسَلَّلُونَ .. (٦٣)﴾ [النور] والتسلل : هو الخروج بتدريج وخُفْية كأنْ يتزحزح من مكان لآخر حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلتُ من المجلس خُفْية ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣)﴾ [النور] يلوذ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣)﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التى تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

وقال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣) ﴾ [النور] لا يخالفون أمره ، فجعل فى المخالفة معنى الإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى : يُعرِضون عنه .

والأمر : يُراد به فعل الأمر أو النهى أو الموضوع الذى نحن بصدده يعنى : ليس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا : أى الموضوع الذى نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه ؛ لأنه وإنْ كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحَى إليه .

لذلكِ يحدد الرسول ﷺ مركزه كبشر وكرسول ، فيقول : « يَردُ علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه فى الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْى ، أم هو الرأى والمشورة ؟ فإنْ كان الأمر فيه وَحْىٌ من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شىء أدْلَى كُلٌّ منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً فى غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكَهُ الله ، أم هو الرأىُ والمشورة ؟ فقال : « بل هو الرأى والمشورة »(١) فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

---

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق .

وقوله تعالى : ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ .. (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الآخرة ، فإنْ أفلتوا من فتنة الدنيا فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة .

ثم تختم السورة بقوله تعالى :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤)﴾

ألا : أداة تنبيه لشىء مهم بعدها ، والتنبيه يأتى لأن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادة يُعد كلامه ، ولديْه أُنْسٌ بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالى الذِّهْن فيفاجئه القول ، وربما شغله ذلك عن الكلام ، فيضيع منه بعضه .

والحق - تبارك وتعالى - يريد ألاَّ يضيع منك حرف واحد من كلامه ، فينبهك بكلمة هى فى الواقع لا معنى لها فى ذاتها ، إلا أنها تنبهك وتُذهب ما عندك من دهشة أو غفلة ، فتعى ما يُقال لك ، وهذا أسلوب عربى عرفته العرب ، وتحدثتْ به قبل نزول القرآن .

ويقول الشاعر[1] الجاهلى يخاطب المرأة التى تناوله الكأس :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبَحِينَا وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدرِينَا[2]

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى ٤٠ ق . هـ ، وهو الذى قتل الملك عمرو بن هند ، مات فى الجزيرة الفراتية . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . قال الزوزنى فى شرحه (ص ١٦٥) : « ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى » .

يريد أن ينبهها إلى الكلام المفيد الذى يأتى بعد .

وبعد ألا التنبيهية يقول سبحانه : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿٦٤﴾﴾ [النور]

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شىء فى الكون العُلْوى والسُّفْلى ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض أى : المظروف فيهما ، فما بال الظرف نفسه ؟ قالوا : هو أيضاً لله ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٤٢﴾﴾ [النور] إذن : فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه .

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه ، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها ، وما بداخل الكيس أثمن منه ، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات . لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشىء مهم عندك فتحفظه فى المصحف ؛ لأنه لا شىء أغلى ولا أثمن من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ؛ لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه .

وفى الآية : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [النور] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكلُّ ما فى السموات ، وكل ما فى الأرض مِلْكٌ لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين فى الألوهية والفَرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شىء منها .

حتى إن النمرود الذى جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال : أنا أُحى وأميت لمَّا قال له إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] لم يستطع فِعْل شىء وبُهِت وانتهت المسألة .

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق ، فخلَق الأشياء ثم تركها تؤدى مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق ، وتصرّف فى كل شىء ، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً ، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه .

فالماء الذى ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يزيد عن حَدِّه ، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر ، إذن : المسألة ليست رتابة خَلْق ، وليست المخلوقات آلاتٍ (ميكانيكية) ، إنما لله الملْك والقيومية والتصرُّف فى كل ما خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤) ﴾ [النور] لفهم هذه الآية لا بُدَّ أن نعلم أن علاقة الحق - تبارك وتعالى - بالأحداث ليستْ كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماض ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن تتكلم به مثل : جاء محمد ، ومضارع وهو إما للحال مثل : يأكل محمد . أو للاستقبال مثل : سيأكل محمد .

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها مَاض وواقع ، وقد تكلمنا فى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

ومعلوم أن الاستعجال يكون للأمر الذى لم يأْتِ بَعْد ، والقيامة لم تأت بعد لكن عبَّر عنها بالماضى (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يُخرِجه شىء عن مراده ، فكأنها أتتْ بالفعل ، إذن : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هى منطقية مع كلام الله .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤) ﴾ [النور] فقد : للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعنى عَلِم ، لكنه بالنسبة لك

أنت يعلم . إذن : فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه ، فبالنسبة للتحقيق جاء بقد ، وبالنسبة للاستقبال جاء بيعلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور] وجاء في آية أخرى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأبعاض المختلفة في الأماكن المختلفة رؤية جزئية ، تتجه إلى شيء فلا ترى الآخر ، إنما هي رؤية شاملة ، كأن لكل شيء رؤية وحده ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد]

فسبحانه لا يشغله سَمْع عن سمع ، ولا بَصَر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط ، واطلاعه دقيق ؛ لذلك يأتي جزاؤه حقاً يناسب دقّة اطلاعه ، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، فربُّك قائم عليك ، ناظر إليك ، لا تَخْفى عليه منك خافية .

فيا مَنْ تتسلل لِواذاً احذر ، فلا شيء أهمّ من مجلس مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه في مجلسه باستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له : ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]

وكان بعض أصحابه يُصلِّي خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف الرجل مسرعاً فيراه ﷺ في أول الصلاة ، ولا يراه في آخرها ،

---

(١) عزب الأمر يعزب : بَعُدَ وغاب وصعب مطلبه . أي : لا يغيب ولا يبعد عنه أي شيء فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

فاستوقفه فى إحدى الصلوات وقال له : « أزهداً فينا » ؟ وكأنه يعزّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حضرته ، أو يَزْهَد فى مجلسه ، فيُحرم من الخيرات والتجليات التى تتنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرَم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه .

لذلك أُحرِج الرجل ، وأخذ يوضح لرسول الله ﷺ ما يدفعه كل صلاة إلى الإسراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً فى حضرة رسول الله ومجلس رسول الله ، فقال : يا رسول الله إن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه .

يعنى : ليس لديه فى بيته إلا ثوبٌ واحد ، فدعا له النبى ﷺ بالخير ، فلما عاد لزوجته سألته عن سبب غيابه ، فقصَّ عليها ما كان من أمر رسول الله ، وأنه استوقفه وحكى لها ما دار بينهما ، فقالت لزوجها : أتشكو ربك لمحمد ؟

ولما سألوها بعد ذلك قالت : « غاب عنى مقدار مائة تسبيحة » فانظر إلى ساعتها التى تضبط عليها وقتها .



سُورَةُ الفُرْقَانِ



بعد أن خُتِمَتْ سورة النور بهذه الآية التى تبين ماالله تعالى من مُلْك وقَهْر وجبروت ، وبينَتْ أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأتْ سورة الفرقان تُبيِّن أن هذا الملْك ليس مُلْك استعباد ، إنما مُلْك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هُدىً ونور ، فقال تعالى :

سورة الفرقان[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾

﴿ تَبَارَكَ .. ۝١ ﴾ [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهى أن يعطيك الشىء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَاركٌ أو فيه بركة .

---

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ .. ۝٦٨ ﴾ [الفرقان] إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ ﴾ [الفرقان] وقال الضحاك : هى مدنية ، وفيها آيات مكية . [تفسير القرطبى ٤٨٦٣/٦] وسورة الفرقان عدد آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٢٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة رقم (٤١) نزلت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة فاطر) .

ومن معانى تبارك : تعالى قَدْره و﴿ تَبَارَكَ ..﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] تنزّه عن شبه ما سواه ، وتبارك : عَظُم خَيْره وعطاؤه . وهذه الثلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿ تَبَارَكَ ..﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] مُعجز فى رَسْمه ومُعْجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسْع مرات : سبْع منها بالألف ﴿ تَبَارَكَ ..﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] ومرتان بدون الألف[1] ، فلماذا لم تُكتب بالألف فى الجميع ، أو بدونها فى الجميع ؟ ذلك ليدلُّك على أن رَسْم القرآن رَسْم توقيفىّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق] فرَسْم كلمة اسم هنا بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

إذن : فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ فى أى كتاب آخر على أىِّ حال كنتَ ، إلا فى القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضوء وتدخل عليه بطُهْر .. الخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن .

ومن حيث الاشتقاق نعلم أن الفعل يُشتَقُّ منه الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل .. الخ ، لكن ﴿ تَبَارَكَ ..﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] لم يذكر منها القرآن إلا هذه الصيغة ، وكأنه يريد أنْ يخصَّها بتنزيه الله تعالى ، مثلها مثل كلمة سبحان ؛ لذلك على كثرة ما مرَّ فى التاريخ من الجبابرة أرغموا الناس على مدحهم والخضوع لهم ، لكن ما رأينا واحداً مهما كان مجرماً فى الدين يقول لأحد هؤلاء : سبحانك .

---

(١) - وردت ﴿ تبارك ﴾ فى سبعة مواضع بالألف : (الأعراف : ٥٤) ، (المؤمنون ١٤) ، (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) ، (غافر ٦٤) ، (الزخرف ٨٥) .
- ووردت مرتين بدون الألف ﴿ تبٰرك ﴾ : (الرحمن : ٧٨) ، (الملك : ١) قال السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن) (١٨٨/٢) : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ، ولا يستعمل إلا لله » .

لذلك نقول فى تسبيح الله : سبحانك ، ولا تُقال إلا لك . مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله .

إذن : ﴿تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] تدور حول معَان ثلاثة : تعالى قَدْره ، وتنزُّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْرهُ وعطاؤه ، ومَنْ تعاظُم خَيْره سبحانه أنه لا مثيل له : فى قَدْره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كله من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبارَ إلا الله ، ولا غنىَّ إلا الله .

وسُمِّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وقد نزل القرآن ليُخرِج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناس على هُدىً وعلى بصيرة ، فالقرآن إذن فَرَق لهم مواضع الخير عن مواضع العطب ، فالفرقان سائر فى كل جهات الدين ، ففى الدين قمة هى الحق - تبارك وتعالى - ومُبلِّغ عن القمة هو الرسول ﷺ ، ومُرْسَل إليه هم المؤمنون ، فجاء القرآن ليفرُقَ بين الحق والباطل فى هذه الثلاثة .

ففى القمة ، وُجِد مَنْ ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، وآخرون يقولون بوجود آلهة متعددة ، وكلاهما على طرفى نقيض للآخر ، ليس هناك سيال فكر يجمعهم ، فجاء القرآن ليفرق بين الحق والباطل فى هذه المسألة ، ويقول : الأمر وسط بين ما قُلْتم : فالإله موجود ، لكنه إله واحد لا شريكَ له ، ففرقَ فى مسألة القمة .

كذلك فَرَق فى مسألة الرسول وهو بشر من قومه ، فلما اعترض بعضهم عليه وحسدوه على هذه المكانة وهو واحد منهم أيَّده الله بالمعجزة التى تُؤيده وتُظهر صدْقه فى البلاغ عن الله ، وكانت معجزته ﷺ فى شىء نبغ فيه القَوم ، وهى الفصاحة والبلاغة والبيان ، والعرب أهل بيان ، وهذه بضاعتهم الرائجة وتحدَّاهم بهذه المعجزة فلم يستطيعوا .

وكذلك فَرَق فى مسألة الخَلْق من حيث مُقوِّمات حياتهم ، فبيَّن لهم الحلال والحرام ، وفى استبقاء النوع بيَّن لهم الحلال ، وشرع لهم الزواج ، ونهاهم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله فى الأرض .

إذن : فَرق القرآن فى كل شىء : فى الإله ، وفى الرسول ، وفى قِوَام حياة المرسَل إليهم ، وما دام قد فَرقَ فى كل هذه المسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نُسمِّيه « الفرقان » .

ولا شكَّ أن الألفاظ التى ينطق بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لها إشعاعات ، وفى طياتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم ، وما أشبهها بفصوص الماس ! والذى جعل الماَس ثميناً أن به فى كل ذرة من ذراته تكسرات إشعاعية ليست فى شىء غيره ، فمن أىِّ ناحية نظرتَ إليه قابلك شُعاع معكوس يعطى بريقاً ولمعاناً يتلألأ من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم .

ومن معانى الفرقان التى قال بها بعض العلماء أنه نزل مُفَرَّقاً ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ .. (١٠٦)﴾ [الإسراء] يعنى : أنزلناه مُفرَّقاً لم ينزل مرة واحدة كالكتب السابقة عليه ، وللحق ـ تبارك وتعالى ـ حكمة فى إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطى الفرصة لكل نَجْم ينزل من القرآن أنْ يستوعبه الناس ؛ لأنه يرتبط بحادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرّج المطلوب فى التشريعات .

يقول تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾ [الإسراء]

لقد كان المسلمون الأوائل فى فترة نزول القرآن كثيرى الأسئلة ، يستفسرون من رسول الله عن مسائل الدين ، كما قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّة .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الأنفال] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرِّع لهم ، وما كان يتأتَّى ذلك لو نزل القرآن جملة واحدة .

وكلمة : ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾[الفرقان] تؤيد هذا المعنى وتسانده ؛ لأن نزّل تفيد تكرار الفعل غير « أنزل » التى تفيد تعدِّى الفعل مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الفرقان] كأن حيثية التنزيل عليه هى العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه . وسبق أن قلنا : إن العبودية لفظ بغيض إنِ استُعمل فى غير جانب الحق سبحانه ، أمّا العبودية لله فهى عِزٌّ وشرف ولفظ محبوب فى عبودية الخَلْق للخالق ؛ لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثيةً للارتقاء السماوى فى رحلة الإسراء ، فقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] فالرِّفْعة هنا جاءتْ من العبودية لله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان] العالمين : جمع عَالَم ، والعَالَم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم : عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يَأْتِها بشير ولا نذير ؛ لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيّر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

فإنْ عزلْتَ من هذه العوالم مَنْ ليس له اختيار ، فيتبقى منها : الجنّ والإنس ، وإليهما أُرسل الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً ، لكن لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] ولم يقل : بشيراً ونذيراً ؟

قالوا : لأنه سبحانه سيتكلم هنا عن الذين خاضوا فى الألوهية ، وهؤلاء تناسبهم النِّذَارة لا البشارة ؛ لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

فى آخر سورة النور قال سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان] فذكر مِلْكية الظرف أى : السماوات والأرض .

ثم تكلّم سبحانه فى مسألة القمة التى تجرّأوا عليها ، فقال : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ..﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان]

وسبق أنْ تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخاذ الولد والحكمة منها ، فالناس تحب الولد ، إما ليكون امتداداً للذكْر ، وإما ليساند والده حالَ ضَعْفه ، وإما للكثرة ، والحق - تبارك وتعالى - هو الحيُّ الباقى الذى لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلِّد ذكْراه ، وهو القويُّ الذى لا يحتاج لغيره ، فلِمَ إذنْ يتخذ ولداً ؟

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان] وهذا أمر

يؤيده الواقع ؛ لأن الله تعالى أول ما شَهد شَهد لنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾[آل عمران]

أى : لما خلقتُ الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدتْ شهادةَ المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادةَ الاستدلال والبرهان .

والحق - تبارك وتعالى - يُعطينا الدليل على صدْق هذه الشهادة ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا هو التفصيل المنطقى العاقل الذى نردُّ به على هؤلاء ، فلو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لَذهبَ كل منهم بجزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعَلاَ كل منهم على الآخر وحاربه ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذى أخذ الملْك منهم ليحاكموه أو ليتوسَّلوا إليه .

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبُتُ لصاحبها إذا لم يَدّعهَا أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهى - إذن - ثَابتة لله تعالى إلى أنْ يُوجَد مَنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بجماعة فى مجلس فَقَد أحدهم محفظته فيه ، ولما انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها ، فلم يدَّعها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول : إنها لى ، فلا شكّ أنها لَه حتى يوجد مُدَّعٍ آخر ، فنفصل بينهما .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) ﴾ [الفرقان] فخلْق الله تعالى ليس خَلْقاً كما اتفق ، إنما خَلْقه سبحانه بقَدَر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التي يُؤدِّيها ؛ لذلك قال في موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣) ﴾

أي : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هي أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

وهذه من الآيات التي وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾[المؤمنون] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخَلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفي موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وللردِّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخَلْق ، الخَلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثَّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجِده على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات]

والذين يصنعون الآن الورد الصناعى ، ويحاولون جاهدين مُضَاهاة الورد الطبيعى الذى خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الوردة الصناعية زاهية لا تذبُل ، لكن العظمة فى الوردة الطبيعية أنها تذبل ؛ لأن ذُبولها يدلُّ على أن بها حياة .

لذلك سمَّى اللهُ الإنسانَ خالقاً ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، ووَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شىء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خَلْقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

ففى قوله تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾[آل عمران]

معلوم أنه فى مقدور كل إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طَيْراً ، ويُصمِّمه على شكله ، لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طَيْراً ؟ وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعثَ فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فإنْ سلَّمْنا أنهم يخلقون شيئاً فهم فى ذات الوقت مخلوقون ، والأدْهَى من هذا أن الذى يتخذونه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمى نفسه أو يقيمها ، إنْ أطاحتْ به الريح ، وإنْ كُسر ذراع الإله أخذوه ليُرمموه ، الإله فى يد العامل ليصلحه !! شىء عجيبٌ وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

ثم يقول سبحانه :﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ..(٣)﴾ [الفرقان] يعنى : لا تنفعهم إنْ عبدوها ، ولا تضرّهم إنْ كفروا بها ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣)﴾ [الفرقان] أى : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أنْ كان عَدَماً أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾

بعد أن تكلم الفرقان وفرَق فى مسألة القمة والألوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبيَّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أنْ يتكلّم عن الفرقان فى الرسالة ، فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿ إِنْ هَٰذَا .. (٤)﴾ [الفرقان] يعنى : ما هذا - أى القرآن - الذى يقوله محمد ﴿إِلاَّ إِفْكٌ (٤)﴾ [الفرقان] الإفك : تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، وسبق أن قُلْنا : إن النسبة الكلامية إنْ وافقت الواقع فهى صِدْق ، وإنْ خالفتْه فهى كذب .

والإفْك قَلْب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء فى حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان[1] أناخ لها ناقته حتى ركبت

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى ، شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بأرمينية عام ١٩ هـ . [الأعلام للزركلى ٢٠٦/٣] .

دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على مُنْتهى العِفَّة والصيانة ، وهُم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُهْراً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يُتعبهم ويُنغِّص عليهم أن يُنزل على محمد بالذات ، فلو نزل - فرضاً - على غير محمد لآمنوا به .

ومن حُمْقهم أن يقولوا :﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدنا إليه ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افْتَرَاهُ .. (٤) ﴾ [الفرقان] أي : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْترى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثْله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟!

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعلِّمه القرآن ، والقرآن عربي ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. (٤) ﴾ [الفرقان] الذي قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها رددها بعده آخرون أمثال : عدَّاس ، ويسَّار ، وأبي فكيهة الرومي ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان] أي : حكموا به

والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزّور هو : عُدَّة الحكم ودليله . والظلم يأتى بعد الزور ، لأن القاضى يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتِّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادةُ شهادةَ زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ ظُلْمًا وَزُورًا ④ ﴾ [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ ﴾

الأساطير : جمع أسطورة ، مثل : أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمع أُحْدوثة ، والبكرة أول النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿اكْتَتَبَهَا .. ⑤﴾ [الفرقان] يعنى : أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑤﴾ [الفرقان] أى : باستمرار ليُكرِّرها ويحفظها .

ويردُّ القرآن عليهم :

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾

﴿ أَنزَلَهُ .. ⑥ ﴾ [الفرقان] أى : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.. ⑥﴾ [الفرقان] فلا تظن أنك بمجرد خَلْقك قدرْتَ أن تكشف أسرار الله فى

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تقف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتى بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مَرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل فى أُمة أمية ، والرسول الذى نزل عليه القرآن رجل أمى ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

والحق - تبارك وتعالى - يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفارَ الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث فى بدر حيث وقف النبى ﷺ فى ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقتْ بفلذات أكبادها وسادتها فى المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة .. »[1] .. الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومَن الذى يستطيع أن يحكم مسبقاً فى معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْب وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان فى هذا المكان .

والوليد بن المغيرة والذى قال عنه القرآن[2] ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ . قال النووى « فما ماط » أى فما تباعد .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٨/٦٦٢) : « اختُلف فى الذى نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحى بن سلام فى تفسيره . وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره . وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلى عن القتيبى ، وحكى هذين القولين الطبرى » .

الْخُرْطُومِ(١٦)﴾ [القلم] يعنى : ستأتيه ضربة على أنفه تَسِمُه بسِمَة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته فى غير مظنَّة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتى رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لأبى لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديْه بتطليق ابنتى رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : « أكلك كلب[1] من كلاب الله »[2]. فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدى من دعوة محمد .

وعجيب أنْ يخاف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذى يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الولد فى رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقى ، فهو يعلم صدق النبى ﷺ وأنه مُرْسَل من عند الله ، لكن يمنعه من الإيمان حقده على رسول الله وتكبّره على الحق.

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد ، قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٤/ ٣٩) .

(٢) وذلك أن عتيبة بن أبى لهب حين فارق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبى وقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه ، وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/ ٣٩) .

وخرج الولد فى رحلة التجارة ورغم احتياطهم فى حمايته هجم عليه سبع فى إحدى الليالى واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال « كلب من كلاب الله » وهذا أسد ليسَ كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالمعنى : قل يا محمد فى الرد عليهم ولإبطال دعاواهم : ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦) ﴾ [الفرقان] وسوف يفضحكم ويُبطل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يُخْزِيكم أمام أعْينِ الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامتْ معركة بين الفُرْس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفقان فى تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه :﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ (٥) ﴾ [الروم]

فأىُّ عقل يستطيع أنْ يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العَدد والعُدة والإمكانات العسكرية ، لكن مَنْ يحكم على معركة ستدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومَنْ يجرؤ أن يقولها قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه المدة مرَّت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفَر به مَنْ آمن وانفضَّ عنه مَنْ حوله .

إذن : ما قالها رسول الله قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلا وهو واثق من صِدْق ما يخبر به ؛ لأن الذى يخبره ربه - عز وجل - الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض ؛ لذلك قال هنا الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان]

ومن العجيب أن ينتصر الروم على الفُرْس فى نفس اليوم الذى انتصر فيه الإيمان على الكفر فى غزوة بدر ، هذا اليوم الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

وما دام أن الذى أنزل القرآن هو سبحانه الذى يعلم السِّر فى السماوات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن ومنطوق الأكوان ؛ لأن خالقهما واحد - سبحانه وتعالى - فمن أين يأتى الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا : لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يقرعهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه - عز وجل - وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبى ﷺ لمن أشار عليه بقتل الكفار : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1]

وكان الصحابة يألمون أشد الألم إنْ أفلتَ أحد رءوس الكفر من

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليه ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به » .

القتل فى المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدَّخرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافراً به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إنْ عُدْتم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان ففى انتظاركم مغفرة الله ورحمته .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُبيِّن لنا هذه المسألة حتى فى النزوع العاطفى عند الخَلْق ، فهند بنت عتبة[1] التى أغرتْ وَحْشياً[2] بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف بهذا ، بل مثَّلتْ به بعد مقتله ، ولاكَتْ[3] كبده رضى الله عنه ، ومع ذلك بعد أنْ أسلمتْ وبايعتْ النبى ﷺ نُسيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب[4] ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبى سفيان ، شهدت أحداً فى جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح ، ماتت فى خلافة عثمان . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/٢٠٦) .

(٢) هو : وحشى بن حرب الحبشى مولى بنى نوفل ، وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله يوم أحد ، وقد أمره النبى ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شارك فى حروب الردة فى قتل مسيلمة وقد شهد موقعة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة عثمان . (الإصابة ترجمة ٩١١٠) .

(٣) لاك : مضغ . وهو مضغ الشىء الصلب تديره فى فمك . واللوْكُ : إدارة الشىء فى الفم . [لسان العرب ـ مادة : لوك] .

(٤) هو : زيد بن الخطاب بن نفيل العدوى ، أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، أمه أسماء بنت وهب من بنى أسد ، أما أم عمر فهى حنتمة بنت هاشم المخزومية ، وكان زيد أكبر سناً من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة . [تمييز الصحابة ٣/٢٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أنْ يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لكسْب العيش ، فهل سبق لهم أنْ رَأَوْا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشى فى الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن : قولهم ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] قولٌ بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] صحيح أن الملَك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : يسانده ، وفى هذه الحالة لن يُغيِّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو هو لا يتغير . إذن : لن يضيف الملَك جديداً إلى الرسالة .. وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجَدَلٌ لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] لم يقولوا بشيراً ، مما يدل على اللدَد واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾

تلحظ أنهم يتنزلون فى لَدَدهم وجَدلَهم ، فبعد أنْ طلبوا ملَكاً يقولون ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ (٨)﴾ [الفرقان] أى : ينزل عليه ليعيش منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا (٨)﴾ [الفرقان] أى : بستان ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٨)﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى ذهب السِّحْر بعقله ، والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويُرتِّب التصرُّفات ، ففاقد العقل لا يمكن أن يكونَ منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خُلقه وأمانته ، وتُسمُّونه « الصادق الأمين » وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى ردّاً عليهم :﴿نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والخُلُق يسوى تصرُّفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف ـ إذن ـ يكون ذو الخُلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً .

وفى موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سَحَر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبّطه واضطرابه فى المجابهة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩)﴾

﴿انظُرْ ..(٩)﴾ [الفرقان] خطاب لإيناس رسول الله وتطمينه ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ..(٩)﴾ [الفرقان] أى : اتهموك بشتّى التهم فقالوا ساحر . وقالوا : مسحور . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن ﴿فَضَلُّوا

فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ [الفرقان] لأنهم يقولون كذباً وهُرَاءً وتناقضاً فى القول .

﴿ فَضَلُّوا..﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] أى : عن المثل الذى يصدُق فيك ليصرف عنك المؤمنين بك ، ويجعل الذين لم يؤمنوا يُصرُّون على كفرهم ، فلم يصادفوا ولو مثلاً واحداً ، فقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : مسحور وكذبوا ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] أى : إلى ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان] كما قلنا : تنزَّه وعَظُم خيره ؛ لأن الكلام هنا أيضاً فيه عطاء مُتمثِّل فى الخير الذى ساقه الله تعالى لرسوله ﷺ ، فعطاؤه سبحانه دائم لا ينقطع ، بحيث لا يقف خير عند عطائه ، بل يظل عطاؤه خيراً موصولاً ، فإذا أعطاك اليوم عرفتَ أن ما عنده فى الغد خير مما أعطاك بالأمس .

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال ابن عباس : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق حزن رسول الله ﷺ فنزل جبريل من عند ربه معزياً له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] وقال جبريل : أبشر يا محمد ، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فأقبل رضوان حتى سلم ثم قال : يا محمد رب العزة يقرئك السلام ، ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة ، فقال : يا رضوان ، لا حاجة لى فيها ، الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . بتصرف واختصار [من أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ١٩٠ ، ١٩١] ، و [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾

يُضرب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لأن الإيمان ليس فى مصلحتهم ، فالإيمان يقتضى حساباً وجزاءً ، وهم يريدون التمادى فى باطلهم والاستمرار فى لَغْوهم واستهتارهم ومعاصيهم ؛ لذلك يُكذِّبون أنفسهم ويخدعونها ليظلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم فى الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يتمنون أنْ تكون قضية الدين قضيةً فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديْهم من قوة ، فالدين عندهم أمر غير معقول ؛ لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة .

ومعنى : ﴿أَعْتَدْنَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الفرقان] هيّأنا وأعددْنا لهم سعيراً ؛ لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذى جَرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتَدواْ ، واعتدلوا على الجادة ، ولَنجَواْ من هذا السعير .

والسعير : اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما أمامها ، كما نقول : كَلْب مسعور ، ثم يقول سبحانه فى وصفها :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُشخِّص لنا النار ، فهى ترى أهلها من بعيد ، وتتحرّش بهم تريد من غَيْظها أنْ تَثِبَ عليهم قبل أنْ يصلوا إليها .

والتغيُّظ : ألم وجدانى فى النفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ،

ومن ذلك نسمع مَنْ يقول : (أنا ح أطق من جنابى) ، يعنى : نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسِعَتها فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر :﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿٨﴾﴾[الملك] تميّز يعنى : تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض .

لكن ، لماذا تميَّز النار من الغيظ ؟ قالوا : لأن الكون كله مُسبِّح لله حامد شاكر لربه ؛ لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ، ويكره العاصى ، ألاَ ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده الجمادُ والنباتُ والحيوانُ واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذين شذُّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورَضُوا لأنفسهم أن يكونوا أَدْنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبَا بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحييه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان فى منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبِّهنا إلى هذه المسألة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما فى الأرض فموضع مُصلاَّه ؛ لأنه حُرِم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب(١) .

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن علياً قال : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء » . وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » قال الهيثمى فى المجمع « رواه أبو يعلى ، وفيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » .

والحق - تبارك وتعالى - يُظهر لنا هذه الصورة فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

فالنار تتشوّق لأهلها كالذى يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلْقِى فيها من العصاة تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ زَفِيراً .. (١٢) ﴾ [الفرقان] النفَس الخارج . وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) ﴾ [الملك] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهى فى المكان الضيق .

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا(1) مُّقَرَّنِينَ(2) دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) ﴾

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب : ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبأ] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوراه يعنى : يا هلاكى تعالَ احضر ، فهذا أوانك لتُخلِّصنى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجينى من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حَدِّ قول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِياً وَحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أَمَانيَا(3)

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

---

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح . ذكره ابن المبارك فى رقائقه (٢٩٩ - زوائد الزهد) وأورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٧١) .

(٢) مقرنين : مُكتَّفين . قاله أبو صالح . وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قُرنوا مع الشياطين ، أى : قُرن كل واحد منهم إلى شيطانه . [أورد هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٧١)] .

(٣) البيت للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وذكره شهاب الدين محمود الحلبى فى « صناعة الترسل » (ص ٢٥٢) فى شواهد حُسْن الابتداءات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُوبِّخهم الحق - سبحانه وتعالى - ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسألة لن تنتهي ، فسوف يُسْلمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأَغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أَمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبّطون فى هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرّض لرسول الله فى أمر دعوته ، والتعرُّض لأىِّ نبىٍّ فى أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعى ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشرى الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق - سبحانه وتعالى - جعل فى كل نفس ملكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتى ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة فى ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوَّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة ، فتتعاون كل ملكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملكاتها أمّارة بالسوء ، وهى أمَّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أى : أنها أخذتْ هذا الأمر حرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر فى قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإنِ اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هى ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيّاط . فالمعنى : أمّارة يعنى : لم يَعُدْ لها عمل فى أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّى نوازع الشر فى النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه فى نفوس قوم آخرين ملَكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لـذلك لا حاجةَ لرسول بعـد رسول الله ﷺ . إذن : فالمناعة موجودة فى أمـة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة فى النفس أولاً ، وفى المجـتمع ثانياً لتـدخلتْ السماء بعـد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن فى المجتمع طائفةً تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون فى ترف فى ظله ، فطبيعى ـ إذن ـ أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعى أنْ يتصدَّوْا لدعـوة الرسول التى جـاءتْ لتعـدل ميزان الـمجتـمع ، وأنْ يقفـوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل الســابقون قد تعرّضــوا لمثل هذا الاضطهاد ، فـقد تعرّض رسول الله ﷺ لأضعاف مـا تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء مناسباً لضــخامة مهمتــه ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمتــه خاصة فى زمن محـدد ، أمّا رسـالته ﷺ فقـد جاءت للناس كـافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فـلا بُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبـراء الذين ينتفـعون بالفـساد فى المـجتـمع يظنون أن رســول الله إذا لُوِّح له بالمـال والنعـيم يمكن أن يتنازل عن دعـوته ، ويتـرك لهم الساحـة ؛ لذلك اجتـمع صناديد قريش علـى رسول الله ، يُلوِّحون له بالمـال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعـوة ويصرفوه عنهـا ، هؤلاء الذين سمـاهم أستـاذنا الشيخ مـوسى : دستـة الشر ، وكـانوا اثنا عـشـر رجـلاً ، مـنهم : أبو البـخـتـري[(١)] ، وأبو جـهل ، وأبو سـفيـان ، والأسود بن المطلب ، وأمـية بن خلف ، والعـاص بن وائل ، وعتبـة بن ربيعة ، ومُنبِّه بـن الحجاج ، والوليد بن المـغيرة ،

(١) أبو البخترى : اسمه العاص بن هشـام بن الحارث . قاله ابن إسحـاق . وقال ابن هشام : هو العاص بن هاشم . [السيرة النبوية ١/ ٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج[(١)] .

لقد ذهب هؤلاء[(٢)] إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدِّم المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناكَ علينا » .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقواْ في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى الملْك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذى مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع »[(٣)] .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبى طالب وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٥) وانظر موقفاً آخر (١/ ٢٩٥) .

(٢) هو : الوليد بن المغيرة فى واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه . [سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ، ٢٩٤] باختصار .

(٣) عن أبى أمامة قال النبى ﷺ : « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٤٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٤) . قال الترمذى : حديث حسن .

وفى موقف آخر ، قال له جبريل : يُخيِّرك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال : « بل نبياً عبداً »[1]

والنبى مالك منهج السماء ، والملك الذى يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا الملْك هو المطلوب فى ذاته ، بدليل أن سليمان ـ عليه السلام ـ مع ما أوتيه من الملْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعنى : الخبز الأسمر غير النقى (الردَّة) فى حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقى[2] ، فلم يكن سليمان يريد الملْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصرْفه عما يريد ردّ عليها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول :﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممَّنْ يملكه ، فكيف يقبله ممَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بى حاجة إلى ما تقولون ،

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٠) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . وعزاه للطبرانى فى الأوسط وقال (١٠/ ٣١٥) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد فى الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت) عن عطاء رضى الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بنى إسرائيل الحوارى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٨٩) فى تفسير آية ٣٥ ـ سورة ص . والحوارى هو الدقيق الأبيض النقى .

فلست طالب مال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنا رسول الله أُرسلْتُ إليكم ، ومعى كتاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليَّ قولى فإننى سأصبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين[١] .

فلجئوا إلى عم النبى ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميله ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله أو أهلك دونه »[٢]

﴿ أَذَٰلِكَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الخلد التى وُعِد المتقون ؟ احكموا أنتم فى هذه المسألة وسنرضى بحكمكم ، إنَّها إغاظة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأُولى وحدها لكانت كافية ، إنما هو فى العذاب ويأتيه أهل الجنة لِيُبكّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكلّمنا عن الصراط ، ولماذا ضُرِب على مَتْن جهنم ، والجميع يمرون عليه ؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يجعل لك

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية بنحو هذا (١/٢٩٦) .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب هذه المقالة .

من مـرائى النار التى تمرُّ علـيهـا فوق الصـراط نعمـة أخرى تُذكِّـرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخـول الجنة فحسب ، إنما أيضـاً بالنجاة من النار ، فيـقول سبـحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يذكـر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما فى الآخـرة فسوف نراها رأى العـين ، كما قال سبـحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ، فتـحمد الله على الإسلام الذى أنجـاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥) ﴾ [الفرقان] كلمة خير فى اللغة تدور على معنيين : خيـر يقابله شَرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كـما جـاء فى الحديث الشـريف : « المؤمن الـقوى خـير وأَحبُّ إلى الله من المؤمن الضـعـيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فكلاهما فيه خيـر ، وإن زاد الخير فى المـؤمن القوى ، وعـادة ما تأتى (من) فى هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾ [البينة]

والجنة كمـا نستعملهـا فى استعمـالات الدنيا : هى المكان المليء بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فـيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى بهـا عن غـيرها ، لذلك أردفـهـا الحـق ـ تبـارك وتعـالى ـ بقـوله : ﴿ الْخُلْدِ .. (١٥) ﴾ [الفرقان]

(١) أخرجـه أحمد بن حـنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ومسلـم فى صحيـحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إذن : فالجنة التى تراها فى الدنيا مهما بلغت فليست هى جنة الخلد ؛ لأنها لابد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة فى الدنيا : لا تغترْ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدى فى سُرُورٍ   تَيقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتقَالاَ

لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التى وعدهم بها هى جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغِّص سرورها ، فلذَّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذى يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتَّق) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤) ﴾ [البقرة] ويقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقايةً ؛ لأنكم لا تتحمّلونَ صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله فى صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً .. (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : جزاءً لما قدَّموا ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعبُوا ، واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب فى ديننا أن نُسعده الآن فى الآخرة .

﴿ وَمَصِيراً (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حَتْماً ، وتأمل وجودك فى الدنيا ، وأنه موقوت مظنون ، ووجودك فى الآخرة وأنه باقٍ دائم لا ينتهى ، لذلك يقولون : إياك أنْ تدخل مدخلاً لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) ﴾

فى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥) ﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿ خَالِدِينَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] وهذه من المواضع التى يرى فيها السطحيون تكراراً فى كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثانى فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهم ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿ لَهُم فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] كأن امتياز الجنة أن يكون للذى دخلها ما يشاء ، وفى هذه المسألة بَحْث يجب أن نتنبه إليه ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلتَ الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود ، أما الجنة ففيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا فى الجنة ، أما فى الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء - حتى الأنبياء - ألاَ ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .. (٤٥) ﴾ [هود] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .

ومـحـمـد ﷺ ـ رغم كل المـحـاولات ـ لم يتـمـكن من هداية عـمـه أبى طالب ، وهذا لا يكون إلا فى الـدنيا ، لذلك فـاعلم أن الله تعـالى حـين يحجب عنك ما تشـاء فى الدنيا إنما ليدخره لك كمـا يشاء فى الآخرة ، مع أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن يحرم عبده .

وفى قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] عطاءات أخرى ، لكن ربك يعطيك على قَدْر معرفـتك بالنعيم ، ويجعل عليك (كنترولاً) فأنت تطلب وربُّكَ يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

والمـشيـئة فى الأخـرى ستكون بـنفسـيات وملَكات أخـرى غيـر نفسـيات وملَكات مـشيـئات الدنيا ، إنهـا فى الآخرة نفـوس صفـائية خالصـة لا تشتـهى غيـر الخير ، عـلى خلاف ما نرى فى الـدنيا من ملكات تشـتهى السـوء ، لأن الملكات هنا مـحكومـة بحكم الجبـر فى أشيـاء والاختيـار فى أشياء : الجـبر فى الأشيـاء التى لا تستطيع أن تتزحـزح عنها كـالمرض والموت مـثلاً ، أمـا الاختيـار ففى المـسائل الأخرى .

ثم يقول سـبحانه : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] الوعد ـ كمـا قلنا ـ البشارة بخير قـبل أوانه . وبعض العلماء يرى أن وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفى موضع آخـر يُسمِّيه تـعالى جزاءً ، فهل هو وعـد أم جزاء ؟ نقول : حـينما شـرع الحق سبحـانه الوعد صـار جزاءً ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يرجع فى وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿ مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] مَن السائل هنا ؟ قالوا : الله تعالى علَّمنا أن نسأله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ .. (١٩٤) ﴾ [آل عمران] فقد سألناها نحن .

وكذلك سألتـها الملائكة ، كمـا جاء فى قوله سبحـانه على لسان الملائكة : ﴿ ربَّنا وأَدْخِلْهُمْ جنَّاتِ عدْنٍ الَّتِى وعَدتَّهُمْ .. ⑧ ﴾ [غافر]

فـالجنة ـ إذن ـ مسـئـولة من أصـحاب الشـأن ، ومـسـئـولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا[1].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ⑰ ﴾

قوله : ﴿ ويوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ⑰ ﴾ [الفرقان] الحشـر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم ـ عليه السـلام ـ وإلى أنْ تقومَ الساعة فى مكان واحـد ، ولغـاية واحدة ، وإذا كـنا الآن نضجّ من الزحـام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن فى جيل واحـد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغى أن ننظر فى كل مَنَ له أمر نـطيعه : أهو أمـر من ذاته ؟ أم أمر مُـبلَّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فـإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُـبَاح أم يتعارض مع نصٍّ شرعى ؟ فإنْ كان مـباحاً فلا بأسَ فى إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

---

(١) أخرج ابن أبى حـاتم والبيهقـي من طريق سعيد بن هلال عن مـحمد بن كـعب القرظى فى قوله ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ⑯﴾ [الفرقان] قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك فى قولهم ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ .. ⑧﴾ [غافر] قال سعيـد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامـة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فانجـز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله ﴿وَعْدًا مَّسْئُولاً ⑯﴾ [الفرقان] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٤١) .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حَمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه في الشياطين : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لـمَنْ يملك أمراً أو سلطة زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزير الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان] يعني : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال في مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه في العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل في النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان]

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذي نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن لكل شيء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممَّن فقه التسبيح : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] فتبسَّم سليمان - عليه السلام - لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفى هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قوْل مخالف لنصِّ القرآن الذى قال : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقْهك له إلا إذا عرَّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهى لغة الإشارات التى يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق - سبحانه وتعالى - يسأل المُعبودين : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى - عليه السلام - على مثل هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبْه إلىَّ [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

عبادتهم بحقٍّ لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ .. (١١٧)﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿عِبَادِى .. (١٧)﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعنى أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين ألِفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفة وإِلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول : لن أمرض وتتمرّد على الموت فلا تموت ، لكن هيهات ، فهذه مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار ، فالذين سبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلْهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله فى كل الأمور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعباد - إذن - يشتركون مع العبيد فى القهريات ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عَزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمّاهم عباداً ، كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

والاستفهام فى قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى .. (١٧) ﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤهَّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أأضللتم عبادى ؟ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملكَة اللغوية لفَهْم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول : أبنيتَ البيت الذى أخبرتنى أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أَبْنِه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام فى الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان فى الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما فى الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾

---

(١) المشى هوناً : بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد فيما نقله عنهما ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : هون] .

كلمـة (سبـحان) أى : تنزيهـاً لله تعالى فى ذاته عن مـشابـهة الذوات ، وتنزيهاً لله تعـالى فى صفاته وأفعـاله عن مشابهة الـصفات والأفعال ، فلـلّه سَمْع ولك سمـع ، ولله وجود ولك وجـود ، ولله حياة ولك حياة ، لكن أحياتك كحـياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً ، الله غنى وأنت قد تكون غنيـاً ، فهل غِنَاك كغِنَى الله ؟ ولله تعـالى فعْل ولك فعل ، فهل فعْلك كفعْل الله ؟

إذن : هناك فَـرْق بين الصفـات الذاتية والصـفات المـوهوبة التى يقبضـها واهبها إنْ شاء .

وقد تُقال سـبحان الله ويُقصَد بهـا التعجب ، فحين تسـمع كلاماً عجيباً تقول : سبحان الله يعنى : أنا أنزه أن يكون هذا الكلام حدث .

لذلك يقولون هنا : ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] يعنى : عجيبة أننا نضل ، كيف ونحن نعـبدك نجعل الآخرين يعبـدوننا ، والمعنى : أن هذا لا يصح منَّا ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبـادتك ، وليس من المعقول أننا ندعوهم إلى عبادتك ونتحوّل نحن لكى يعبدونا : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان]

فأنت وليُّنا الذى نتـقرّب إليه ، وقـد بعثْتنا لمـهمة من المهـمات ، ولابُدَّ أن صواب اخـتيارك لنا يمنعنا أن نفـعل هذا ، وإلا ما كُنا أمناء على هذه المهـمة . فسـبحانك : تنزيـهاً لك أن تختـار مَنْ ليس جديراً بالمهمة ، فيأخذ الأمر منك لنفسه .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا .. (١٨) ﴾ [الفـرقان] نفى الانبـغاء ، نقـول : مـا ينبغى لـفلان أن يفـعل كـذا ، كـما قـال تعـالى فى حق رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس] والشعر ملَكَة وموهبة بيان أدائية ، وكان العرب يتفاضلون بهذه الموهبة ، وإنْ

نبغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توفرت لرسول الله هذه الملَكة .

ولو كان ﷺ شاعراً لكان شاعراً مُبْدعاً ، لكنه ﷺ ما ينبغى له ذلك ؛ لأن الشعر مبنيٌّ على التخيُّل ؛ لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتى به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مُرْهَفٍ ، ولو قُدِّر له أنْ يكون شاعراً لكان عظيماً .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ [الشعراء]

وقالوا عن الشعر : أَعْذبه أكذبُه ، لذلك لم يدخل رسول الله طوَال حياته هذا المجال .

إذن : فقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] ردٌّ على ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] فى قوله : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] فلما متَّعتهم يا ربِّ أترفهم النعيم ، وشغلتْهم النعمة عن المنعم ، فانحرفوا عن الجادَّة .

والآية تنبه المؤمن ألاّ يأْسَى على نعيم فاته ، فربما فتنك هذا النعيم وصرفك عن المنعم عزَّ وجل ، فمن الخير - إذن - أنْ يمنعه الله عنك ؛ لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

وقوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] أى : نسُوا المُنْعِم ، وحَقُّ النعمة ألاَّ تُنَسى المنعم ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن

الصحيح إنْ كان فى نعمة العافية من المنعم سبحانه ، فالمريض الذى حُرِم منها ليس فى نعمة المنعِم ، إنما فى صحبته ومعيته .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يغضب إذا دُعِى له بالشفاء ، ويقول لعائده : لا تقطع عليَّ أُنْسى بربى .

وجاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى ، قال : وكيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده »(١)

إذن : حينما يعلم المريض أنه فى معية الله يستحى أن يجزع ومعنى ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) [الفرقان] البُور : الهلاك ، ومنه أرض بُور ، وهى التى لا تُنبت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (١٩)

بعد أن سألهم الحق - تبارك وتعالى - وهو أعلم بهم : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ .. ﴾ (١٧) [الفرقان] وأجابوا : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) [الفرقان] وقد هزَّهم هذا السؤال هزَّة عنيفة أراد سبحانه أنْ يُبرئهم فقال ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ .. ﴾ (١٩) [الفرقان] يعنى : أنا أعرف أنكم قلتم الحق ، لكنهم كذَّبوكم بما تقولون ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا .. ﴾ (١٩) [الفرقان]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة - من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالتفت إليهم . والصرف : أن تدفع بذاتك عن ذاتك الشر إنْ تعرّض به أحد لك ، والنصر : إذا لم تستطع أنت أنْ تدفع عن نفسك فيأتى مَنْ يدفع عنك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان] وقد يسأل سائل : لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا : فى الواقع ليس هذا العنف نَهْراً لأولياء الله ، إنما زجر ولَفْتُ نظر للآخرين ، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه والخارجين على منهجه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بُدَّ أن يقولوا : مع أن الله اصطفاهم وقرّبهم لم يمنعه ذلك أنْ يُوجِّههم إلى الحق وينهرهم .

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[(١)] ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] فالحق - تبارك وتعالى - يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

والظلم : أخْذُ حقِّ الغير ، وما دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعنى أن الله يريد أنْ يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ؛ لأن أمور الحياة لا تستقيم إنْ أخذ الإنسان ثمرةَ غيره ، وتعوَّد أن يعيش على دماء الآخرين وعَرقهم ؛ لذلك نرى فى المجتمع بعض المجرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عَرق الآخرين وهم لا يعرقون .

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج منَ القلب ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وحين يُؤخَذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهَد فى العمل وبذْل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسِّر للناس مصالحهم ، ويُسهِم بحركته فى حركة المجتمع .

وسبق أن قلنا : إن الفرْق بين المؤمن وغيره فى العمل أن الكافر يعمل لنفسه ، أمّا المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويجهد ليساعد الآخرين ؛ لذلك عليك أن تعمل على قَدْر طاقتك لا على قَدْر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيته بطاقتك ، ثم يكون الباقى عندك لمن لا يقدر على العمل وليس لديه طاقة .

والمعركة التى تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرسل ، اللهُ تعالى يفصل فيها ، يقول : لا يستطيع أحد من خَلْقى أن يظلمنى ، لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا .. ۝٥٧ ﴾ [البقرة] أى : لا يقدر أحد على ذلك ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧ ﴾ [البقرة] ، فظُلْمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يغَارُ على عبده أن يظلم نفسه ؛ لأن للإنسان ملكات متعددة : ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأنِّى الآجل . فالتلميذ المجتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحبٌّ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فَرْق بين حُبٍّ واعٍ ، وحُبٍّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال فى نهاية الأمر أعلى المراتب ، والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه صُعْلوكاً فى المجتمع ، فمتعة الأول أبقى وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية .

هذه قاعدة عامة تُقال فى عمل الدنيا ، وتُقال فى عمل الآخرة ، فالحق - تبارك وتعالى - خلق الإنسان ويحب منه ألاَّ تظلم ملكَة فى النفس ملكةً أخرى ، وألا تظلم ملكة العجلة ملكة التأنِّى ؛ لأن ملكة العجلة تأخذ خيراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التأنى فتنال الخير الآجل الباقى غير المنتهى .

إذن : فالله تعالى يريد لصنعته ، سواء المؤمن أو الكافر ألاّ يظلم نفسه ؛ لأن الله كرَّمه وخلق الكون كله لخدمته وسخَّره من أجله ؛ لذلك يقول له : إنك لا تستطيع أن تظلمنى ولا تظلم المؤمنين ، إنما تظلم نفسك ، فربٌّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه فهو نِعْم الربّ .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحبٌّ - بدليل أننى أعاقبك إذا ظلمتَ نفسك - فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً »[1] .

وحين يُضخِّم الحق - سبحانه وتعالى - العقوبة : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ [الفرقان] إنما ليُنفِّر عباده منها ، ويبتعد بهم عن أسبابها ، فلا تقع .

وكثيراً ما يعترض أعداء الإسلام على قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] يقولون : فلماذا تقتلون مَنْ يرتدّ عن الإسلام ؟ وهؤلاء لا يَدْرُون أن هذا الحكم نضعه عقبةً فى طريق كل مَنْ يريد الإيمان ، وتنبيه له حتى يفكر جيداً فيما هو مُقبل عليه إن اختار الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رضاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم يحتاطُ للأمر فيدخل عليه بمَحْض اختياره وتعقّله .

فالإسلام لا يريد كثرة مُتسرِّعة ، إنما يريد تروياً وتعقّلاً وتدبراً ،

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها فى جَوْدتها ، كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته ويُظهر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما خُتمَتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل : تفكَّرون ، تعقلون ، تذكَّرون . وهذا دليل على أنك لو تعقلتَ ، لو تدبرتَ ، لو تذكرتَ لاهتديت إلى ما جاء به القرآن .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ [الفرقان] كان الذى يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يُعاقب لنفسه حيث أُخذ منه شىء ، لكن الحق سبحانه ما أُخذ منه شىء ، إنما هو سبحانه بصفات الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾

سبق أن تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. (٧) ﴾ [الفرقان] وهذه صفَة كل الرسل ، وليس محمد بدْعاً فى ذلك ، وإذا كان أكْل الطعام يقدح فى كونه ﷺ رسولاً ، وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فنقول : بالله إذا كان أكْل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل

الطعام أنه إله ؟ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولاً ؟

وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؛ لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأُسْوة فى كل شىء للخَلْق ، ولذلك كان رسول الله على أقلِّ حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أَكْل وشُرْب ولباس ، ذلك ليكون أُسْوة للناس ، وكذلك نجده ﷺ حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً فى الزكاة التى يأخذها أمثالهم من الفقراء .

ويقول ﷺ : « إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] .

ومَنْ كان عليه دَيْن من المسلمين تحمّله عنه رسول الله ، وهذا كله إنْ دلَّ فإنما يدل على أنه ﷺ واثق من جزاء أُخْراه ، فلا يُحبّ أن يناله منه شىء فى الدنيا .

لذلك قُلْنا : لو نظرتَ فى مبادىء الحق ومبادىء الباطل أمامك فى الدنيا لوجدتَ أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمثلاً لكى تكون شيوعياً لا بُدَّ أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مُقدّماً : تتعب وتُظلم وتُعذَّب وتجوع وتتشرد ، وتخرج من أهلك ومن مالك ، ثم تنتظر الجزاء فى الآخرة . وبهذا المقياس تستطيع أنْ تُفرِّق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ⦗٢٠⦘ ﴾ [الفرقان] أى : يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبُّرهم على مثل هذه الأعمال ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٦٣) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملى ونفقة نسائى صدقة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) كتاب المغازى من حديث عمر بن الخطاب ، وكذا مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد .

يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه يقول ﷺ : « صاحب الشيء أحقُّ بحمله »[1] .

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] فأىّ بعض فتنة لأىِّ بعض ؟ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أىُّ بعض مرفوع ، وأىّ بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ فى مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة : أن هذا غنىٌّ وهذا فقير ، لكنهم لو أخذوا فى المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن فى كل إنسان موهبةً خَصّه الله بها ، فكلٌّ منّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه ؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق ؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندى ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن : تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل ، والتفضُّل لا يُلزِم أحداً بعمل ، فقد تتعطل المصالح . أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذى تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

ألاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون فى الصباح يبحثون عن

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/١٢٢) من حديث أبى هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصرى وهو ضعيف » . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٢٥) : « ذكره القاضى عياض فى الشفاء بدون عَزْو وهو ضعيف ، بل بالغ ابن الجوزى فعدّه فى الموضوعات » وخطّأه الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) .

عـمل ، ويغضب الواحـد منهم إذا لم يجـد فرصـة عمل فى يومـه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

فالعامل الذى يعمل فى المجارى مثلاً ويتحمَّل أذاها هو فى قدرته على نفـسه ورضاه بقـدَر الله فيـه أفضل منِّى أنا فى هذه المـسألة ، لأننى لا أقـدر علـى هذا العـمل وهو يقـدر ، ولـو ترك الله مـثل هذه الأعمـال للتفـضّل ما أقـدم عليهـا أحد ، إذن : التـسخيـرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمة .

ومـثل هذه الأعمـال الشاقـة أو التى تؤذى العـامل يعدُّها البـعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأىُّ عمل يُصـلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] كل بعض منا فتنة لـلآخر ، فالغنىُّ فـتنةٌ للفقـير ، والفـقير فـتنة للغنى .. إلخ فـحين يتعالى الغنى على الفقير ويستذلّه فـالفقير هنا فتنة للغنى ، وحين يحقد الفقيـر على الغنى ويحسده ، فالغنىّ هـنا فتنة للفقير ، وهـكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسل فتنة لمن كذّبوهم ، والكفار فتنة للرسل .

والناس يفرون مـن الفتنة فى ذاتها ، وهذا لا يصـح ؛ لأن الفتنة تعنى الاخـتبار ، فـالذى ينبغى أن نفـر منه نتيـجة الفتنة ، لا الـفتنة ذاتها ، فالامتحان فتنة لـلطلاب ، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة فى حَقِّه شَرٌّ . إذن : الفتنة فى ذاتها غير مذمومة .

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر ، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن ، وإنْ وُجد مـا هو أنفس منه ، لماذا ؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسـد ولا يتفاعل مع غيره ، وهو كـذلك سـهل السَّبْك ؛ لذلك